

قضايا شيرلوك هولمز

عصير الكتب

قضايا شيرلوك هولمز





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان: قضايا شيرلوك هولمز
- ترجمة: علي عيسى ـ مي أشرف ـ محمد صلاح
- تحرير: محمد الجيزاوي
- تدقيق لغوي: منى عبد الهادي الشريف
- الطبعة الأولى: مايو 2021م
- رقم الإيداع: 2021/7963م
- الترقيم الدولي: 978-977-85878-6-1
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار





قضايا شيرلوك هولمز



قضية العميل المرموق

«لا ضرر من نشرها الآن». كان هذا هو رد السيد شيرلوك هولمز حينما طلبت الإذن منه للمرة العاشرة خلال عدة سنوات من أجل الكشف عن القصة التالية. وبذلك قد حصلت أخيرًا على الإذن لتدوين ما يعدُّ بصورة من الصور، اللحظة الأبرز والأهم في مسيرة صديقي المهنية.

كان لدى كل منَّا -أنا وهولمز- نقطة ضعف تجاه الحمَّام التركي، فلم أجده أقل تحفظًا وأكثر إنسانية كما كان في أثناء وجوده في حجرة التجفيف الذي يساعد جَوُّها على الاسترخاء الممتع. يوجد في الطابق العلوي من مبنى نورثامبرلاند أفينيو زاوية منعزلة وُضِعت فيها أريكتان متجاورتان، وهناك كنَّا مستلقيَيْن في الثالث من شهر سبتمبر عام (1902)، وهو اليوم الذي بدأت فيه هذه القصة. سألته عمَّا إذا كان هناك أي جديد، وكانت إجابته بأن أخرج ذراعه الطويلة النحيفة المرتجفة من الملاءة التي يتدثر بها ومدها إلى الجيب الداخلي للمعطف المُعلّق بجانبه ليُخرِج منه مظروفًا. ثم قال وهو يناولني الرسالة التي كانت بداخل المظروف:

- قد يكون مَن أرسلها شخص أحمق من النَّيّقين المختالين الذين يحبون افتعال الأمور وإثارة الضجة حولهم، وقد تكون مسألة حياة أو موت، لا أعرف أكثر مما تنطوي عليه هذه الرسالة.

كانت مرسلة من نادي كارلتون، ومؤرخة بتاريخ الليلة السابقة، وهذا ما قرأته فيها:

«يتقدم السير جيمس داميري بتحياته للسيد شيرلوك هولمز، ويبلغه أنه سيأتي لزيارته غدًا في الساعة الرابعة والنصف. ويطلب منكم السير جيمس السماح؛ فالمسألة التي يرغب في استشارة السيد هولمز فيها مسألة حساسة جدًّا، وفي غاية الأهمية؛ ولهذا فهو على ثقة من أن السيد هولمز سيبذل قصارى جهده ليمنحه فرصة إجراء هذه المقابلة، وأنه سيؤكد الموعد في مكالمة هاتفية على نادي كارلتون».

قال هولمز وأنا أعيد إليه الورقة:

- لست في حاجة لأن أقول إنني قد وافقت على هذه المقابلة يا واتسون. هل تعرف أي شيء عن هذا المدعو داميري؟

- كل ما أعرفه أن هذا الاسم معروف ومتداول بكثرة في المجتمع الراقي.

- حسنًا، يمكنني إخبارك بأكثر من ذلك قليلًا. إنه مشهور كذلك بتسوية الأمور الحساسة التي تبقى بعيدة عن أعين الصحافة، لِعلّك تتذكر مفاوضاته مع السير لويس بشأن قضية هامفورد ويل. إن لهذا الرجل خبراتٍ واسعةً وميلًا فطريًّا للدبلوماسية، ولهذا آمل ألا يكون تضليلنا هو غرضه من هذه المقابلة، وأن يكون حقًّا في حاجة إلى مساعدتنا.

- مساعدتنا! أتقصد نحن الاثنين؟

- حسنًا، إذا تكرمت بذلك يا واتسون.

- يشرفني ذلك.

- إنك على علم بالميعاد إذن.. الرابعة والنصف. وحتى ذلك الحين نستطيع أن نُخرِج هذا الأمر من رؤوسنا.

كنت في ذلك الوقت أقيم في منزلي الخاص في شارع كوين آن، ومع ذلك وصلت إلى شارع بيكر قبل الميعاد المحدد. وفي تمام الساعة الرابعة والنصف، أُعلن عن وصول السير جيمس داميري. لا يوجد ما يستدعي وصفه، فالكثيرون يتذكرون ذلك الرجل الضخم صاحب الشخصية التي تتسم بالشموخ والهيبة والنزاهة، وذلك الوجه العريض الحليق، والصوت المبهج العذب. كان الصدق يشع من عينيه الأيرلنديتين الرماديتين، وحس الدعابة اللطيفة لا يفارق شفتيه المبتسمتين. قبعته الفخمة اللامعة، ومعطفه الطويل الداكن وكل تفاصيل ملابسه، بداية من الدبوس اللؤلؤي في رابطة العنق الستان السوداء، ووصولًا إلى الواقي الأرجواني الذي يغطي حذاءه الملمع، تدل جميعها عن اهتمامه الفائق بالملبس الذي اشتهر به. لقد هيمن حضوره الأرستقراطي المتقن الحذق على الحجرة الصغيرة. قال وهو يحيِّينَا بانحناءة مهذبة لطيفة:

– بالطبع كنت أعرف أنني سأجد الدكتور واتسون هنا. قد تكون معاونته ضرورية جدًّا، فنحن بصدد التعامل مع رجل اعتاد العنف يا سيد هولمز، وحرفيًّا لا يمكن لشيء أن يردعه. إنه لا يوجد رجل أخطر منه في أوروبا كلها.

قال هولمز مبتسمًا:

– كان لدي العديد من الخصوم ينطبق عليهم هذا الوصف بما ينطوي عليه من إطراء. ألا تدخن؟ اسمح لي إذن بأن أشعل غليوني. إن كان الرجل الذي تتحدث عنه أخطر من البروفيسور الراحل موريارتي، أو الكولونيل سيبستيان موران، فلا بد أنه يستحق أن نلتقي به. هل لي أن أسألك عن اسمه؟

– هل سبق لك أن سمعت عن البارون جرونر؟

– أتقصد القاتل النمساوي؟

رفع الكولونيل داميري يديه المغطيتين بقفازين من جلد الماعز وهو يضحك، وقال:

– لا أحد يستطيع التفوق عليك يا سيد هولمز، رائع! إذن فقد عددته قاتلًا حقًّا!

– إن عملي يتطلب أن أكون على علم بكل تفاصيل الجرائم التي تحدث في أوروبا، فمَن الذي قد يقرأ ما حدث في براغ ولا تساوره أي شكوك في أن هذا الرجل مذنب! لم ينقذه إلا نقطة قانونية تقنية بحتة، ووفاة أحد الشهود في ظروف مريبة! لقد كنت واثقًا تمامًا حين وقع «الحادث» المزعوم في ممر سبلوجين أنه هو مَن قتل زوجته كما لو كنت قد رأيته بأم عيني وهو يقوم بذلك. عرفت أيضًا أنه قد جاء إلى إنجلترا، وكنت أشعر في قرارة نفسي أنني سأواجهه عاجلًا أو آجلًا. حسنًا، ما الذي ينوي البارون جرونر فعله؟ أعتقد أن الأمر لا يتعلق بذلك الحادث القديم، أليس كذلك؟

– كلا، إن الأمر أخطر من ذلك. إن القصاص لجريمة ما أمرٌ مهم، ولكن منع جريمة هو أمر يفوقه أهمية. كم هو شنيع يا سيد هولمز أن ترى حدثًا مروعًا، موقفًا بشعًا يتهيَّأ أمام عينيك، وأن تكون مدركًا عواقبه بوضوح، ومع ذلك تقف عاجزًا تمامًا عن تفاديه. هل من الممكن يوضع الإنسان في موقف أكثر صعوبة؟

– ربما لا.

– إذن فسوف تتعاطف مع العميل الذي جئت لأُمثِّله.

– لم أدرك أنك مجرد وسيط. مَن هو العميل إذن؟

– أرجو ألا تلح في هذا السؤال يا سيد هولمز. فمِن الضروري أن أُطمئنه أن اسمه المُشرِّف الكبير لن يُقحَم في هذه المسألة بأي صورة من الصور. أؤكد لك أن دوافعه شريفة ونبيلة لأقصى درجة، ولكنه يفضل أن يبقى مجهولًا. ولست بحاجة إلى أن أقول لك إنك ستحصل على أتعابك كاملة، وستكون لك حرية كاملة في التصرف. ومن المؤكد أن الاسم الفعلي للعميل لا يعدُّ شيئًا جوهريًّا في القضية، أليس كذلك؟

قال هولمز:

– آسف يا سيدي. إنني معتاد أن يكتنف الغموض أحد طرفي قضاياي، ولكن أن يكتنف الغموض كلا الطرفين، فهذا مُربك للغاية. أخشى أيها السير جيمس أنني مضطرٌّ إلى رفض التحقيق في هذه القضية.

بدا على زائرنا الانزعاج وغيَّم على وجهه المرهف إحساسه بخيبة الأمل. ثم قال:

– إنك لا تدرك عاقبة تصرفك هذا يا سيد هولمز، إنك بذلك تضعني أمام معضلة خَطِرة جدًّا. فأنا متأكد تمامًا أنك ستعتز بتولِّي هذه القضية لو أطلعتك على حقائقها، ولكن الوعد الذي قطعته يمنعني من الكشف عنها كاملة. فهل يمكنني على الأقل أن أطلعك على ما تيسر لي؟

– بالطبع، ما دام واضحًا لك أنني لن ألزم نفسي بشيء.

– هذا مفهوم. ولكن في المقام الأول، لا شك أنك قد سمعت عن الجنرال دو ميرفيل؟

– دو ميرفيل الذي ارتبط اسمه بممر خيبر؟ نعم، لقد سمعت عنه.

– إن لديه ابنة تُدعى فيوليت؛ شابة ثرية حسناء ذكية، امرأة مثالية من كل النواحي. تلك الابنة الجميلة البريئة هي التي نحاول إنقاذها من براثن هذا الشيطان.

– أتعني أن البارون جرونر قد أوقعها تحت سيطرته؟

– نعم، إنه يسيطر عليها بأقوى طريقة يمكن بها السيطرة على امرأة؛ سيطرة الحب. هذا الشخص – لو كنت قد سمعت– وسيمٌ بدرجة غير مألوفة، وذو أسلوب ساحر وآسر للغاية، وصوت رقيق عذب، تكتنفه الرومانسية والغموض وهو الشيء الذي يؤثر كثيرًا في أي امرأة. بل يُقال إن جنس الإناث كله يقع تحت رحمته، وقد استغل هذا الأمر بأقصى درجة.

– ولكن كيف التقى رجل كهذا امرأةً في منزلة الآنسة فيوليت دو ميرفيل؟

– لقد تعرف إليها في أثناء رحلة على ظهر أحد اليخوت في البحر الأبيض المتوسط. ومع أن الصحبة كانت من الصفوة، فقد دفعوا ثمن رحلاتهم. ولا شك أن متعهدي الرحلة لم يدركوا الهُوية الحقيقية للبارون إلا بعد فوات الأوان. وقد ظل هذا الوغد ملازمًا للآنسة، واستخدم تأثيره حتى استطاع أن يظفر بقلبها تمامًا، وجعلها تتعلق به تعلقًا شديدًا. بالكاد يمكن لكلمة «حب» أن تَفِي بالتعبير عن مشاعرها نحوه. فهي متيمة به، ومهووسة، لا ترى غيره على وجه الأرض، ولا تقبل بسماع كلمة ضده. وقد بُذِلت كل المحاولات الممكنة من أجل إنقاذها من هذا الجنون، ولكن دون جدوى. وخلاصة القول، إنها تعتزم

إتمام زواجها منه في الشهر القادم. وبما أنها قد بلغت سن الرشد ولديها إرادة حديدية، فمِن الصعب أن نجد طريقة تمنعها من ذلك.

– هل لديها علم بالحادثة النمساوية؟

– لقد أخبرها هذا الشيطان الماكر بكل فضائحه البغيضة التي ارتكبها سابقًا، لكن بطريقة تجعله يبدو ضحية بريئة. وقد صدقت كل كلامه تمامًا ولا تصغي لأحد غيره.

– يا إلهي! ولكنك كشفت دون قصد عن اسم عميلك، أهذا صحيح؟ إنه الجنرال دو ميرفيل دون ريب.

تململ ضيفنا في مقعده.

– يمكنني خداعك بموافقتك على هذا يا سيد هولمز، ولكن هذا لن يكون صحيحًا. لقد أصبح دو ميرفيل رجلًا محطمًا؛ فقد تسبب هذا الحادث في إصابته باليأس والإحباط بعد أن كان ذلك الجندي الشجاع. وفقد أعصابه التي لم تخذله يومًا في ساحة المعركة، وصار رجلًا عجوزًا واهنًا خَرِفًا، عاجزًا عن مواجهة هذا الوغد النمساوي الجبار شديد الدهاء. أما موكلي فهو صديق قديم، تربطه بالجنرال صداقة قوية منذ عدة سنوات، وقد كان يعدُّ فيوليت كابنته منذ أن كانت طفلة صغيرة؛ ولهذا فهو لا يستطيع أن يرى وقوع هذه المأساة دون أن يحاول منعها. ولا يوجد ما تستطيع رجال شرطة سكوتلاند يارد فعله حيال مسألة كهذه، لذا فقد اقتَرَحَ أن نلجأ للاستعانة بك، لكن بشرط واضح وصريح، وهو ألا يتدخلَ شخصيًّا في هذه المسألة وألا يُقحم اسمه. وليس لدي شك يا سيد هولمز أنك تستطيع بما أوتيت من قدرات عظيمة أن تقتفي أثر موكلي من خلالي، ولكنني أرجوك أن تمتنع عن القيام بذلك، وأن تعطيني كلمة شرف بأن لا تكشف عن هُويته.

ابتسم هولمز ابتسامة غريبة ثم قال:

– اِطمَئِن، أعتقد أنني أستطيع أن أعدك بذلك. وأود أن أضيف إلى هذا أن مشكلتك تثير اهتمامي، وإنني مستعد للنظر فيها. كيف سأتواصل معك؟

– يستطيع نادي كارلتون أن يصل إليَّ. ولكن في حالة حدوث أي شيء طارئ، يمكنك أن تتصل بي على هذا الرقم الخاص (101031).

دوَّن هولمز الرقم وجلس وهو لا يزال مبتسمًا، ومفكرته مفتوحة فوق ركبتيه.

– عنوان البارون الحالي، رجاءً.

– منزل فيرنون بالقرب من كينجستون. إنه منزل كبير، قد حالفه الحظ في بعض المضاربات المشبوهة نوعًا ما، وهو رجل ثري، ما يجعله خصمًا أكثر خطورة بطبيعة الحال.

– هل هو في المنزل حاليًّا؟

– نعم.

– هل يمكنك أن تمنحني معلومات إضافية عن هذا الرجل بخلاف ما أخبرتني به؟

– إنه يميل إلى البذخ، ويهوى الخيل، وظل يمارس رياضة البولو لفترة قصيرة في نادي هرلينجهام، ولكن حين انتشرت الأقاويل حول مسألة براغ اضطرَّ إلى الرحيل، كما أنه مهتم بتجميع الكتب

واللوحات؛ فإن طبيعته تتمتع بحس فني بدرجة كبيرة. أعتقد أنه من الخبراء المعروفين في مجال الخزف الصيني، حتى إنه قد ألَّف كتابًا عن هذا الموضوع.

– يا لها من عقلية مركبة، إن كل المجرمين الكبار يمتلكون مثل هذه العقلية. فقد كان تشارلي بيس عازفَ كمان مبدعًا، وكان وينرايت فنانًا رائعًا بكل معنى الكلمة، ويمكنني أن أذكر غيرهما الكثير. حسنًا يا سير جيمس، فلتخبر موكلك أنني سأهتم بأمر البارون جرونر. لا أستطيع قول المزيد. لدي مصادر للمعلومات خاصة بي، وأجرؤ على القول إننا قد نجد وسيلة لاستيضاح المسألة.

جلس هولمز بعد مغادرة ضيفنا مستغرقًا في التفكير مدة طويلة، حتى بدا لي أنه نسي وجودي، ولكنه انتبه إليَّ أخيرًا وكأنه عاد إلى الواقع، وقال:

– حسنًا يا واتسون، ما رأيك في تلك المسألة؟

– أعتقد أنه من الأفضل أن تلتقي بالآنسة نفسها.

– يا عزيزي واتسون، إذا كان والدها المسكين العجوز مكسور الجناح لم يستطع أن يؤثر عليها ويقنعها بالتراجع عن قراراها، فكيف سأستطيع أنا الغريب أن أقنعها؟ ومع ذلك قد نلجأ لتنفيذ هذا الاقتراح في حالة فشل كل المساعي الأخرى. ولكن أعتقد أننا يجب أن نبدأ من زاوية مختلفة. أظن أن شينويل جونسون قد يساعدنا.

لم تتح لي الفرصة لذكر شينويل جونسون في هذه المذكرات لأنني نادرًا ما تخيرت الكتابة عن قضايا من الفترات الأخيرة من مسيرة صديقي المهنية. خلال السنوات الأولى من مطلع هذا القرن كان جونسون مساعدًا مُهمًّا لصديقي. ويؤسفني أن أقول إن جونسون قد عُرف في البداية بصفته مجرمًا خَطِرًا، قضى فترتَيْ عقوبة في سجن باركهيرست، ولكنه تاب في النهاية وتحالف مع هولمز ليصبح عميلًا سريًّا له في عالم الجريمة السري الضخم في لندن، وكان يمده بالمعلومات التي غالبًا ما كانت تتضح أهميتها البالغة. ولو كان جونسون قد عمل كمخبر للشرطة لانكشف أمره سريعًا، ولكن نظرًا لأن القضايا التي تناولها لم تكن تعرض قط على القضاء بصورة مباشرة، فلم يكتشف رفاقه حقيقة نشاطاته. وكان ماضيه في عالم الجريمة وإدانته مرتين كفيلين بالسماح له بالدخول إلى كل الملاهي الليلية، ودور رعاية المشردين، وأوكار المقامرة في المدينة، كما جعلته سرعة ملاحظته وذهنه الحاضر عميلًا مثاليًّا لهولمز من أجل الحصول على المعلومات؛ لهذا اقترح شيرلوك هولمز أن نلجأ إليه الآن.

لم أتمكن من اتباع خطوات صديقي أولًا بأول، بسبب ضغط العمل لديَّ، لكننا اتفقنا أن نلتقي مساءً في مطعم سيمبسون، وهناك حيث كنَّا جالسين إلى طاولة صغيرة عند النافذة الأمامية نشاهد تيار الحياة الصاخب في شارع ستراند، أخبرني بشيء مما جرى في أثناء غيابي. قال:

– إن جونسون قد بدأ في البحث بنشاط وراء الرجل. قد يعثر على بعض قاذوراته في أغوار عالم الرذيلة والإجرام السري، فهناك بالتحديد، بين جذور عالم الجريمة المظلم، علينا البحث عن أسرار هذا الرجل.

– ولكن ما دامت الآنسة لا تصدق ما هو معروف عنه بالفعل، فَلِمَ قد يجعلها اكتشاف شيء جديد تتراجع عن قرارها؟

– ومَن يدري يا واتسون؟ إن قلب المرأة وعقلها كأحاجي غامضة يستعصي على الرجل حلها. فقد يتغاضين عن جريمة قتل أو يجدن لها مبررًا، ومع ذلك قد يثير جرم صغير غضبهن! فقد أخبرني البارون جرونر...

– البارون جرونر أخبرك!

– نعم، صحيح، إنني لم أخبرك بما خططت له. حسنًا يا واتسون، إنني أفضل أن أبقى على مقربة من الخصم. أحب أن ألتقيه وجهًا لوجه وأتبيّن طبيعة شخصيته، ولهذا فإنني بعد أن أعطيت جونسون التعليمات، استقللت عربة أجرة وذهبت إلى كينجستون، وهناك وجدت البارون في مزاج لطيف للغاية، وقد كان ودودًا معي جدًّا.

– وهل عرف مَن تكون؟

– لم يكن ذلك بالشيء الصعب، لأنني ببساطة قد أرسلت إليه بطاقتي. إنه خصم من الطراز الأول، بارد كالثلج، صوته ناعم وهادئ كأحد الاستشاريين المتأنقين، ولكنه سامٌّ مثل الكوبرا. يتحلى باللباقة والأصل الراقي... إنه مجرم أرستقراطي بحق، يبدو في ظاهره دمثًا وراقيًا، ولكن في داخله تكمُن وحشية مهلكة. نعم، يسرني أن الظروف قد أتاحت لي فرصة مواجهة أديلبرت جرونر.

– تقول إنه كان ودودًا، أهذا صحيح؟

– نعم، كان مثل قط يخرخر مبتهجًا، يأمل في اصطياد فأر أمامه. إن بعض الناس في لطفهم فتك أشد من العنف الكامن في النفوس الفظة المتحفزة.

كانت تحيته لي مميزة، إذ قال:

– كنت أتوقع أن أراك عاجلًا أو آجلًا يا سيد هولمز. لا شك في أن الجنرال دو ميرفيل هو الذي استعان بك لمحاولة منع زواجي من ابنته فيوليت. أليس كذلك؟ أود أن أقول لك يا عزيزي إنك لن تجني من وراء تدخلك هذا إلا دمار سمعتك التي اكتسبتها عن جدارة. ليس هناك احتمال أن تحقق أي نجاح في هذه القضية. سيكون عملًا عقيمًا بلا جدوى، ناهيك بما سيجلبه لك من أخطار. اسمح لي أن أنصحك وبشدة بالانسحاب من هذه المَهمة فورًا.

فأجبته قائلًا:

– يا للعجب! هذه هي النصيحة نفسها التي كنت أنوي أن أسديها إليك، إنني أكنُّ لعقليتك احترامًا كبيرًا أيها البارون، والقدر القليل الذي رأيته من شخصيتك اليوم لم يقلل من هذا الاحترام البتَّة. دعني أقولها لك بصراحة رجلًا لرجل، لا أحد يريد أن يفضح ماضيك ويتسبب في إزعاجك بلا داعٍ. إن الماضي قد فات وانقضى، وأنت تعيش في هدوء الآن، ولكن إن كنت تصر على إتمام هذا الزواج؛ فستجد حشدًا من الأعداء الأقوياء أصحاب النفوذ الذين لن يتركوك قبل أن يجعلوا إنجلترا بأسرها على أحرٍّ من الجمر من أجل الإمساك بك. هل يستحق الأمر كل هذا العناء؟ لا شك أنه سيكون من الحكمة أن تترك الآنسة وشأنها، فلن يسرك أن يطلعها أحد على ما خفي من وقائع ماضيك.

إن لدى البارون شاربين رفيعين مدببين أسفل أنفه، بدت مثل قرون استشعار الحشرات، كان شاربه يهتز لاهيًا وهو يستمع لي، ثم ضحك ضحكة خافتة في النهاية وقال:

– أعذرني لتندُّري يا سيد هولمز، ولكن من المضحك حقًّا أن أراك تحاول اللعب دون أوراق في يديك. لا أعتقد أن هناك أي شخص من الممكن أن يفعل هذا على نحو أفضل. ولكنه في الواقع أمر مثير للشفقة. فلا توجد أي أوراق رابحة يا سيد هولمز.

فسألته:

– أهذا ما تظنه إذن؟

فأجابني:

– بل هذا ما أعرفه تمام المعرفة. دعني أوضح لك الأمر. إن موقفي قوي للغاية، فيديَّ ممتلئة بالأوراق الرابحة للحد الذي يجعلني لا أخاف أن أكشفها لك. لقد كنت محظوظًا بما يكفي لكسب حب هذه الآنسة. فقد أحبتني مع أنني أخبرتها بكل صراحة ووضوح عن كل شيء حدث في حياتي الماضية. وأخبرتها أيضًا أن هناك أشخاصًا أشرارًا وكائدين –آمل أن تدرك أنك مَن أقصد– سيأتون إليها ويخبرونها بهذه الأشياء، ونبهتها بشأن كيفية التعامل معهم. هل سمعت بإيحاء ما بعد التنويم يا سيد هولمز؟ حسنًا، سترى كيف يعمل، فبوسع الرجل ذي الشخصية القوية أن يستخدم التنويم المغناطيسي دون ارتكاب أي تجاوزات بذيئة أو حماقات. لذا فهي مُهيَّأة وجاهزة لمقابلتك، وليس لدي أدنى شك أنها ستمنحك موعدًا، فهي راضخة تمامًا لإرادة أبيها؛ إلا في أمر واحد صغير.

حسنًا يا واتسون، بدا أنه لم يعد هناك المزيد مما يمكن قوله، فاستأذنت للمغادرة بأقصى ما استطعت أن أستجمع من برود وكبرياء، ولكن ما إن وضعت يدي على مقبض الباب حتى استوقفني. قال لي:

– بالمناسبة يا سيد هولمز، هل تعرف «لو برون» العميل السري الفرنسي؟

فقلت: «أجل».

– هل تعرف ماذا حلَّ به؟

– سمعت أنه تعرض للضرب من قِبَل بعض قُطاع الطرق في حي مونمارتر وصار كسيحًا مدى الحياة.

– هذا صحيح تمامًا يا سيد هولمز. وللصدفة الغريبة أنه كان يبحث في شؤوني الخاصة قبل الحادث بأسبوع واحد فقط. لا تفعل مثله يا سيد هولمز؛ فليس ذلك فَألًا حسنًا. قد آمن بهذه الحقيقة العديد من الأشخاص غيره. وكلمتي الأخيرة لك هي: امضِ في طريقك ودعني أمضي في طريقي. مع السلامة!

هذا ما حدث يا واتسون، أنت الآن على علم بكل ما حدث في غيابك.

– يبدو هذا الرجل خطرًا.

– في غاية الخطورة، إنني أستخف كثيرًا بلغة الوعيد، ولكنه من الرجال الذين يبوحون بأقل مما يعنونه.

– هل من الضروري أن تتدخل في هذا الأمر؟ هل يهم حقًّا إن تزوج بهذه الفتاة؟

– بالنظر إلى أنه هو دون شك من قتل زوجته السابقة، فيجب أن أقول إن المسألة في غاية الأهمية. وإلى جانب ذلك فإن العميل يحتاج إلينا. حسنًا، حسنًا، لسنا بحاجة إلى مناقشة ذلك. عندما تنتهي من شرب قهوتك، يفضل أن تأتي معي إلى المنزل؛ حيث سيكون شينويل المَرِح في انتظاري، ومعه تقريره بشأن هذه المسألة.

عندما عدنا وجدناه هناك. كان رجلًا ضخمًا غليظ الملامح، أحمر الوجه، بدا عليه أنه كان مصابًا بمرض الإسقربوط[1]، بعينين سوداوين مفعمتين بالحيوية، كانتا هما السمة الخارجية الوحيدة التي تَنُمُّ عن العقل الماكر الذي بداخله. يبدو أنه قد غاص في أعماقٍ ما بمنزلة مملكته الخاصة، وكانت بجانبه على الأريكة امرأة شابة سيئة السمعة ممشوقة مثل شعلة متوهجة، ذات وجه حاد الملامح شاحب، فمع شبابه قد أنهكته الخطايا والأسى، حتى إن المرء يستطيع أن يرى ما تركته السنوات الرهيبة من أثر الجذام عليه.

قال شينويل جونسون وهو يلوح بيده الممتلئة مُقدمًا إياها:

– أقدم إليكم الآنسة كيتي وينتر. إنها لا تعرف… حسنًا، سأدعها تتحدث هي عن نفسها. لقد وجدتها بعد أن تلقيت رسالتك بساعة واحدة يا سيد هولمز.

قالت الشابة:

– من السهل العثور عليَّ. أجل، لندن، إنها كالجحيم. عنواني ثابت ومعروف فيها، وتستطيعون العثور عليَّ هناك دائمًا، إنه عنوان بوركي شينويل نفسه، فقد كنا زملاء في السجن فيما مضى. ولكنني أقسم لك إن ثمة شخصًا آخر يستحق أكثر منا أن يكون في الدرك الأسفل من الجحيم إن كان في هذا العالم ذرة من العدالة! إنه ذلك الرجل الذي تبحث عنه يا سيد هولمز.

ابتسم هولمز وقال:

– أرى أن لديك نيات طيبة يا آنسة وينتر.

فقالت ضيفتنا في عنف مضطرم:

– إن كان بوسعي تقديم المساعدة من أجل أن نضعه حيث يجب أن يكون، فأنا معك حتى الموت.

كان في وجهها الأبيض، وتعبيراته العازمة، وعينيها المتقدتين درجة من الكراهية نادرًا ما تصل إليها امرأة، ويستحيل لرجل أن يَبلغها. قالت:

– لست بحاجة إلى الخوض في تفاصيل حياتي الماضية يا سيد هولمز، فهي ليست بالشيء المُهم. ولكن أديلبرت جرونر هو مَن جعلني هكذا. يا ليتني أستطيع أن أنال منه!

كانت تُحرك يدها المنقبضة في الهواء بصورة هستيرية عندما أردفت قائلة:

– أجل، لو أستطيع أن أسحبه إلى تلك الهُوَّة التي ألقى فيها الكثيرين!

– هل تعرفين طبيعة الموقف الحالي؟

– لقد أخبرني بروكي شينويل بالأمر. إنه يلاحق حمقاء مسكينة ويريد الزواج منها هذه المرة، وأنتم تريدون أن تمنعوا إتمام هذا الزواج. حسنًا، من المؤكد أنكم تعرفون عن هذا الشيطان ما يكفي لمنع أي

فتاة شريفة عاقلة من الوقوف معه في الأبرشية نفسها من أجل الزواج منه.

– إنها ليست في كامل رشدها، فهي واقعة في غرامه حد الجنون، لقد أُخبرت بكل شيء عنه وعن ماضيه، ولكنها لا تبالي بأي شيء.

– هل تعرف بأمر جريمة القتل؟

– أجل.

– يا إلهي، يا لجرأتها!

– إنها تعدُّها افتراءات محضة.

– ألم تتمكن من وضع أي براهين أمام عينيها الغافلتين؟

– حسنًا، هل يمكنك مساعدتنا في القيام بذلك؟

– ألستُ أنا نفسي دليلًا؟ إن وقفت أمامها وأخبرتها كيف استغلني...

– هل لديكِ استعداد لفعل هذا؟

– أتسألني؟! بالطبع!

– حسنًا، قد يكون الأمر جديرًا بالمحاولة. ولكنه قد أخبرها بأغلب خطاياه وقد تغاضت عنها، وأعتقد أنها لن تعيد النظر في هذا الأمر مرة أخرى.

– أراهن أنه لم يخبرها بكل شيء، فقد أطلعت على نبذة من جريمة قتل أو اثنتين غير تلك التي أثارت الضجة. كان يتحدث عن أحد الأشخاص بأسلوب ناعم ومن ثم نظر إليَّ نظرة ثابتة وقال: «لقد مات في غضون شهر». ولم يكن ذلك مجرد لغو، لكنني لم أكترث كثيرًا... فكما تعلم، كنت أحبه في ذلك الحين، وكنت أتجاوز عن كل شيء يفعله، تمامًا كما تفعل تلك الحمقاء المسكينة الآن! لم يكن هناك إلا أمر واحد فحسب استطاع أن يهزني ويصدمني –نعم، أقسم إنه لولا لسانه السام الكذوب الذي يجيد التبرير والتلطيف وبث الطمأنينة، لتركته في تلك الليلة بالذات– إنه كتاب يحتفظ به، كتاب ذو غلاف من الجلد البني منقوش عليه من الخارج شعاره بالذهب ويحمل قفلًا. أظن أنه كان ثملًا بعض الشيء تلك الليلة، وإلا ما كان ليطلعني عليه.

– وما الذي يحتويه هذا الكتاب إذن؟

– سأخبرك يا سيد هولمز، إن هذا الرجل يجمع النساء ويتباهى بمجموعته، تمامًا كما يجمع بعض الرجال العث والفراشات. هذا الكتاب يضم كل شيء، صور فوتوغرافية، وأسماء، وتفاصيل، كل شيء عنهن. إنه كتاب بغيض... لا يمكن لرجل مَهما كانت وضاعته أن يأتي بمثله. ومع ذلك تمكن أديلبرت جرونر من تجميعه. ولو شاء لكتب عليه من الخارج «الأرواح التي دمرتها». ولكن هذا ليس بالأمر المهم، فهو لن يفيدك في شيء، ولو كان مفيدًا، فلن تستطيع الحصول عليه.

– أين هو؟

– وكيف لي أن أخبرك بمكانه الآن؟ لقد مضى أكثر من عام منذ أن فارقته. ولكنني أعلم أين كان يحتفظ به في ذلك الوقت. إنه رجل منظم ودقيق كالقطط في الكثير من أموره، لذا فربما يكون لا يزال

يحتفظ به في درج طاولته الأثرية بغرفة المكتب الداخلية. هل تعرف منزله؟

– لقد دخلت إلى غرفة مكتبه.

– حقًّا؟ إنك لا تضيع الوقت إذن، فأنت لم تبدأ في العمل في هذه المَهمة إلا هذا الصباح. لعل أديلبرت العزيز قد واجه ندًّا له هذه المرة. غرفة المكتب الخارجية هي تلك التي تحتوي على مجموعات الخزف الصيني في خزانة زجاجية كبيرة بين النوافذ. وخلف مكتبه يوجد الباب المؤدي لغرفة المكتب الداخلية.. وهي غرفة صغيرة يحتفظ فيها بأوراق وأشياء أخرى.

– ألا يخشى اللصوص؟

– أديلبرت ليس بالجبان، وحتى ألد أعدائه لا يمكن أن يصمه بهذه الصفة. إنه قادر على حماية نفسه، فهناك جهاز إنذار ضد لصوص المنازل ليلًا. ثم ما الذي سيجد اللصوص في المكتب ليسرقوه؟ اللهم إلا إذا استطاعوا أن يفلتوا بكل هذه الأواني الخزفية الفاخرة؟

قال شينويل جونسون بنبرة جازمة وكأنه خبير:

– لا فائدة منها، فتجار السلع المسروقة لا يرغبون في مثل هذه الأشياء التي لا يستطيعون صهرها أو بيعها.

قال هولمز:

– بالضبط. حسنًا يا آنسة وينتر، أرجو أن تتمكني من الحضور إليَّ هنا في الساعة الخامسة من مساء الغد، وحتى ذلك الحين سأفكر في إمكانية تنفيذ اقتراحك في مقابلة هذه الآنسة شخصيًّا. أنا ممتن لك للغاية من أجل تعاونك معنا. ولست في حاجة إلى أن أقول إن عملائي سوف يجزلون العطاء.

فصاحت الشابة قائلة:

– لا داعي لذلك يا سيد هولمز. فأنا لست هنا من أجل المال. أريد فقط أن أرى هذا الرجل غارقًا في الوحل، وأن أطأ بقدمي وجهه الملعون. تلك هي مكافأتي. وسآتي إليك غدًا أو أي يوم شئت وسأقدم لك كل ما في وسعي من مساعدة ما دمت في أثره. يستطيع بوركي دائمًا أن يخبرك أين تجدني.

لم أرَ هولمز مرة أخرى حتى مساء اليوم التالي حين تناولنا العشاء مرة أخرى في ذات المطعم الموجود في شارع ستراد. وعندما سألته عما حدث في أثناء لقائه بالآنسة فيوليت، هزَّ منكبيه ثم أخذ يروي القصة التي أودُّ أن أعيد سردها على النحو التالي، فعباراته القاسية الجافة تحتاج إلى القليل من التعديل؛ لتكون ملائمة للغة الحياة الواقعية. قال هولمز:

– لم تواجهنا صعوبة في الحصول على موعد، فالفتاة تتفانى في إظهار طاعتها وخضوعها لوالدها في كل الأشياء الثانوية، كمحاولة للتكفير عما ارتكبته من عصيان صارخ بخطبتها. اتصل بي الجنرال ليبلغني أن كل شيء جاهز، وجاءت الآنسة وينتر المشتعلة غضبًا في الموعد المحدد، وفي الساعة الخامسة والنصف ترجلنا من عربة أجرة أمام البناية رقم (104) في ميدان بيركلي، حيث يقيم الجندي العجوز.. إنها واحدة من قلاع لندن الرمادية الكئيبة الشنيعة التي تجعل الكنائس بجانبها تبدو ضئيلة. أدخلنا أحد الخدم إلى غرفة استقبال كبيرة ذات ستائر صفراء، وهناك كانت الآنسة تنتظرنا في تحفظ وفتور، إذ

بدت جامدة كتمثال من الثلج فوق قمة جبل. لا أعرف تحديدًا كيف أصفها لك يا واتسون. لعلك تلتقي بها قبل أن نفرغ من القضية، وستتمكن حينها من استخدام موهبتك في انتقاء الكلمات في وصف جمالها. إنها جميلة، لكنه ذلك الجمال الملائكي القادم من عالم آخر، فهو ممزوج ببعض التعنت الذي جعلها تتمسك بآرائها وأفكارها وترتقي بها عاليًا. لا أظنني قد رأيت وجوهًا كهذه إلا في لوحات فناني العصور الوسطى القدماء. لا أتصور كيف تسنى لرجل متوحش مثله أن ينشب مخالبه القذرة في مثل هذه المخلوقة الملائكية. لعلك لاحظت كيف تتجاذب المتناقضات أحدها إلى الآخر، ينجذب ذلك الحيوان القذر إلى تلك الروح العذبة، ذلك الكائن المتوحش إلى تلك الملاك الرقيقة. إننا لن نرى حالة أسوأ من هذه أبدًا.

كانت تعلم بالطبع ما أتينا من أجله، فذلك الوغد لم يُضيّعْ وقتًا ليسمم أفكارها ضدنا. أعتقد أن حضور الآنسة وينتر قد أدهشها إلى حد ما، إلا أنها أشارت إلينا ليجلس كل منا في مقعده كما يستقبل رئيس دير اثنين من المتسولين المصابين بالجذام. إن كنت ترغب في تعلم الخيلاء يا عزيزي واتسون فعليك بدراسة شخصية الآنسة فيوليت دو ميرفيل. قالت لي بصوت يشبه صوت ريح هبت على جبل جليدي:

– حسنًا يا سيدي، إن اسمك مألوف لي. وأعلم أنك أتيت إلى هنا من أجل الافتراء كذبًا على خطيبي، البارون جرونر. وفي الواقع أنا لم أوافق على استقبالك إلا امتثالًا لطلب والدي. وأحذرك مقدمًا من أن لا شيء مما ستقول يمكن أن يكون له أدنى تأثير على رأيي.

كنت أشعر بالأسف من أجلها يا واتسون. شعوري نحوها في تلك اللحظة كان كشعور الأب نحو ابنته. إنني لست فصيح اللسان في الكثير من الأحيان؛ فأنا أستخدم عقلي لا قلبي، إلا أنني حقًّا قد رجوتها بدفء كل الكلمات التي استطعت أن أجدها بداخلي. ورحت أصور لها بشاعة الموقف الذي تكون فيه المرأة التي لا تدرك حقيقة شخصية الرجل الذي تحبه إلا بعد أن تصبح زوجته.. المرأة التي عليها أن تخضع لمداعبات يدين ملطختين بالدماء، وقبلات شفتين فاسقتين. لم أخفِ عنها شيئًا.. العار، والخوف، والعذاب، واليأس الذي سيترتب عليه قرارها بالزواج من رجل مثله، ولكن كل كلماتي، اللاذعة والمؤثرة، لم تتمكن من جعل الدماء تتدفق إلى وجنتيها العاجيتين، أو أن تضرم بريق تأثر في عينيها الشاردتين. تذكرت ما قاله ذلك الوغد عن تأثير ما بعد التنويم المغناطيسي. إذ يمكن للمرء أن يصدق حقًّا أنها تعيش فوق الأرض في نشوة حلم. ومع ذلك لم يكتنف ردودها أي نوع من الغموض؛ فقد كانت عازمة ومصممة. قالت:

– لقد استمعت إليك في صبر يا سيد هولمز، ولم يؤثر كلامك في رأيي كما توقعت تمامًا. أدرك أن أديلبرت، خطيبي، قد عاش حياة عاصفة محمومة واجه فيها أحقادًا مريرة، وعانى افتراءاتٍ في غاية الظلم والإجحاف. ولستَ إلا واحدًا من الكثيرين الذين جاؤوا ليستعرضوا افتراءاتهم أمامي. ربما تكون نواياك طيبة، وإن كنت أعلم أنك عميل مدفوع الأجر، وأنك على استعداد لأن تعمل لصالح البارون كاستعدادك للعمل ضده. ولكن على أي حال أتمنى أن تفهم فهمًا قاطعًا أنني أحبه وهو يحبني، وأن رأي العالم بأسْره لا يعني لي أكثر من أصوات تغريد تلك الطيور خارج النافذة. وإن كانت طبيعته

النبيلة قد هوت مرة، فلعلِّي قد أُرسلت خِصِّيصَى، لأرتقي بها إلى مكانتها السامية التي تستحقها حقًّا. ولكنني لا أفهم...

وهنا التفتت إلى رفيقتي وأردفت قائلة:

– مَن تكون هذه الشابة؟

كنت على وشك أن أجيبها حينما قاطعتنا الفتاة منفجرة بالحديث وكأنها زوبعة. إن لم يكن قد سبق لك رؤية النار في مواجهة الجليد، عليك أن ترى المواجهة بين هاتين المرأتين. فقد هبت من مقعدها وصاحت قائلة في انفعال شديد:

– سأخبركِ من أكون. أنا عشيقته السابقة، واحدة من مئة امرأة أغواها واستغلها ودمرها ثم ألقى بها في كومة النفايات، كما سيفعل بك. ولكن على الأرجح أن كومة النفايات التي سيتخلص منكِ فيها ستكون قبرًا، وربما كان هذا خيرًا لكِ. اعلمي أيتها الحمقاء المغفلة أنك إن تزوجت هذا الرجل فستكون تلك نهايتك. قد تكون تلك النهاية تحطيم قلبك أو كسر عنقك، لكنه سيقضي عليكِ بطريقة أو بأخرى. إنني لا أتحدث بدافع حبي لكِ، فليس يعنيني في شيء سواء حييت أو متِّ. ولكنني أتحدث بدافع كرهي الشديد له ونكاية فيه، ولأنتقم منه على ما فعله بي. لكن الأمر سيان عندي، ولست في حاجة لأن ترمقيني بتلك النظرات يا سيدتي الفاضلة، فقد ينتهي بك الحال إلى مكانة أسوأ وأحط مما آل إليه مصيري.

قالت الآنسة دو ميرفيل ببرود:

– أفضل ألا أتناقش معكِ في مثل هذه الأمور. دعيني أخبركِ لآخر مرة إنني على دراية بأن خطيبي قد مرَّ في حياته بثلاث فترات، تورَّط فيها مع نساء ماكرات خبيثات، وإنني واثقة تمامًا من ندمه العميق ومن توبته الصادقة عن أي إثم قد يكون ارتكبه.

فصاحت رفيقتي قائلة:

– ثلاث فترات؟ يا لك من حمقاء! إن حماقتك فاقت الوصف!

فقالت صاحبة النبرة الباردة:

– أرجوك أن تُنهي هذه المقابلة يا سيد هولمز. لقد نفَّذتُ رغبة أبي في مقابلتك، لكنني لست مضطرة إلى الاستماع لهذيان هذه الفتاة.

فاندفعت الآنسة وينتر للأمام وهي تقسم وتتوعد، ولولا أنني قبضت على معصمها لكانت أمسكت هذه الفتاة المثيرة الأعصاب من شعرها. فسحبتها تجاه الباب. حتى إني كنتُ محظوظًا لأنني تمكنت من إعادتها للعربة دون إثارة للفضائح أمام المارة، فقد كانت في قمة الغضب. حتى أنا شعرت بالغضب حقًّا يا واتسون، فقد كان ثمة شيء مزعج بدرجة لا توصف في اللامبالاة الهادئة، والرضا الشديد عن النفس اللذين تحلّت بهما الآنسة التي كنا نحاول إنقاذها. وها قد صرتَ الآن على علم بآخر التطورات، ومن الواضح أن عليَّ تدبير خطة جديدة بما أن هذه المحاولة لم تفلح. سأظل على تواصل معك يا واتسون، فعلى الأرجح أنه سيكون لك دور لتقوم به، مع أن الخطوة التالية قد تتوقف عليهم لا علينا.

وهذا ما حدث حقًّا، فقد كانت الخطوة التالية من جانب خصومنا، فقد ضربا ضربتهما، أو ضربته بالأحرى، فلم أستطع أن أصدق أن الآنسة كانت على دراية بالأمر. أعتقد أن بإمكاني أن أريكم البلاطة التي كنت أقف عليها بالتحديد حين وقعت عيناي على ذلك الإعلان الذي أثار الرعب في نفسي. حدث ذلك بين فندق جراند ومحطة تشيرينج كروس، حيث كان بائع الصحف مبتورَ الساق يعرض الجرائد المسائية، كان ذلك بعد محادثتنا الأخيرة بيومين. وهناك رأيت الخبر الرهيب مكتوبًا باللون الأسود على خلفية صفراء:

(اعتداء فتَّاك على شيرلوك هولمز)

أظن أنني وقفت مذهولًا لبضع لحظات. ليس لدي إلا ذكرى مشوشة لما حدث حين انتزعت إحدى الجرائد، واحتجاج الرجل الذي لم أدفع له ثمنها، ثم وقوفي أخيرًا عند مدخل إحدى الصيدليات حيث وقفت أقرأ الفقرة المشؤومة. وكانت كالآتي:

«لقد نما إلى علمنا ببالغ الأسى أن السيد شيرلوك هولمز، المحقق الخاص المشهور، وقع ضحية اعتداء إجرامي خَطِر تركه في حالة خَطِرة. إن التفاصيل الدقيقة للواقعة لم تبلغنا بعد، ولكن يبدو أن الاعتداء قد وقع في نحو الساعة الثانية عشرة في شارع ريجنت، أمام مقهى رويال. نفّذ الاعتداء رجلان مسلحان بالعصي، وقد تعرض السيد هولمز لضربات شديدة في الرأس والجسد، مما أسفر عن إصابات وصفها الأطباء بأنها شديدة الخطورة. وقد نُقل المُعتَدَى عليه أول الأمر إلى مستشفى تشيرينج كروس، ولكنه أصر بعد ذلك على نقله إلى مسكنه في شارع بيكر. وقد اتضح أن الجانيين كانا يرتديان ملابسَ فخمة، وقد تمكنا من الهرب من أيدي المارة بالمرور عبر مقهى رويال، ومنه إلى شارع جلاسهاوس الواقع خلفه. ولا شك أن الجانيين ينتميان إلى الجماعة الإجرامية التي كثيرًا ما كان يزعجها نشاط المعتدَى عليه وعبقريته».

لست بحاجة إلى أن أقول إنني ما كدت ألقي نظرة سريعة على الخبر حتى قفزت في عربة أجرة واتجهت إلى شارع بيكر. وهناك وجدت السير ليزلي أوكشوت، الجراح الشهير، في الردهة بينما كانت عربته تنتظر عند الرصيف.

وقد ورد في تقريره: «ليست هناك خطورة على حياته، فلديه جرحان قطعيان في فروة الرأس، وبعض الكدمات الشديدة، ما استلزم إجراء العديد من الغرز. وقد أعطيته حقنة من المورفين. الهدوء ضروري جدًّا له، ولكن إجراء مقابلة قصيرة لبضع دقائق ليس ممنوعًا تمامًا».

ولما حصلت على هذا الإذن تسللت إلى الغرفة المظلمة، فوجدت صديقي المصاب مستيقظًا، وسمعته يهمس باسمي بصوت أجش. كانت الستائر منسدلة حتى ثلاثة أرباعها، إلا أن شعاع من الشمس اخترقها في اتجاه رأس صدقي الملفوف بالضمادات، ورأيت بقعة قرمزية قد تسربت من الرباط الكتاني الأبيض. فجلست بجانبه خافضًا رأسي. تمتم هولمز بصوت واهن للغاية:

– لا بأس يا واتسون. لا تخف هكذا، إن الأمر ليس بهذا السوء.

– حمدًا لله على ذلك!

– لدي القليل من الخبرة في المبارزة بالعصي كما تعلم. لقد تحاشيت أغلب الضربات، ولكن ضربات الرجل الثاني كانت شديدة.

– ما الذي يمكنني فعله من أجلك يا هولمز؟ من المؤكد أن ذلك الرجل اللعين هو الذي حرضهما على الاعتداء عليك. سأذهب إليه، وأوسعه ضربًا بإشارة منك.

– عزيزي واتسون! كلا، لا يمكننا فعل أي شيء بخصوص هذا الأمر إلا إذا تمكنت الشرطة من القبض على الرجلين، وهذا ليس مرجحًا؛ فقد كان هروبهما مدبَّرًا جيدًا. تريث قليلًا، فلديَّ خططي. أولًا عليك أن تبالغ في وصف الإصابات، سيأتون إليك لمعرفة أخباري، فلتقل إن الإصابات بالغة وخطرة يا واتسون. فلتقل إنه إذا حالفني الحظ قد أعيش حتى نهاية الأسبوع، قل إنني قد أصبت بارتجاج.. هذيان.. قل ما شئت! وبالِغ بقدر ما تستطيع.

– ولكن ماذا عن السير ليزلي أوكشوت؟

– نعم، لا تقلق من ناحيته، فسيرى الجانب الأسوأ مني، سأتولى ذلك الأمر.

– هل من شيء آخر يجب عليَّ فعله؟

– أجل، أخبر شينويل جونسون أن يبعد تلك الفتاة عن الأنظار، فلا شك أن أولئك المجرمين سيلاحقونها الآن بعد أن عرفوا أنها ساعدتني في القضية. وما داموا قد تجرؤوا على محاولة قتلي، فليس من المحتمل أن يتركوها. هذا أمر ضروري، عليك أن تفعل هذا الليلة.

– سأذهب الآن. هل ثمة شيء آخر؟

– ضع غليوني على الطاولة.. وكيس التبغ أيضًا. حسنًا، فلتأتِ كل صباح؛ حتى نخطط لما سنفعله.

وفي ذلك المساء رتبت مع جونسون لكي نأخذ الآنسة وينتر إلى إحدى الضواحي الهادئة، والتأكد من أنها في مأمن بعيدًا عن الأنظار إلى أن يزول الخطر.

وطوال ستة أيام ظل الاعتقاد السائد بين الناس أن شيرلوك هولمز كان على أعتاب الموت. فقد كانت تقارير متابعة حالته تنذر بخطورة الموقف، مما جعل الصحف تكتب عنه مقالات تدعو للتشاؤم. إلا أن زياراتي المستمرة له أكدت لي أن الأمر لم يكن بهذا السوء، فقد كانت بنيته التي تجمع بين النحافة والقوة، وإرادته القوية تصنعان المعجزات. كان يتعافى سريعًا، حتى إنني ساورني الشك في بعض الأحيان أنه كان يستعيد قواه أسرع مما يتظاهر به حتى أمامي. فقد كانت ثمة نزعة غريبة لدى هذا الرجل نحو التكتم تؤدي إلى العديد من النتائج المثيرة. كان لا يترك حتى أقرب صديق له يخمن ما الذي يخطط له بالتحديد، حتى وصل به الأمر إلى الحد الذي جعله يتبنى مبدأ أن السبيل الوحيد لنجاح الخطة بأمان هو أن تخطط لها وحدك. فمع أنني كنت الأقرب إليه من أي شخص، إلا أنني كنت دائمًا ما أشعر بالفجوة بيننا.

في اليوم السابع أزيلت الغرز، ومع ذلك نشرت الجرائد المسائية أخبارًا عن إصابته بالتهاب الحمرة الجلدي. وقد كانت نفس الجرائد المسائية تلك تحمل خبرًا لم أجد بُدًّا من إخبار صديقي به، مهما كانت حالته، صحيحًا كان أم عليلًا. كان الخبر ببساطة أن مركب روريتانيا التابع لخطوط كونارد الذي سيبحر من ليفربول يوم الجمعة القادم، سوف يحمل من بين ركابه المسافرين البارون أديلبرت جرونر،

الذي سيذهب إلى الولايات المتحدة؛ لتسوية بعض الأمور المالية المهمة قبل زفافه الوشيك على الآنسة فيوليت دو ميرفيل، الابنة الوحيدة… إلخ.

أنصت هولمز للخبر وعلى وجهه الشاحب نظرة شاردة أوحت بأنه كان مستغرقًا في التفكير، مما أوحى إليَّ بأن صدمته من الخبر كانت شديدة. صاح هولمز قائلًا:

– الجمعة! بعد ثلاثة أيام فقط. أعتقد أن هذا الوغد يريد الابتعاد عن طريق الخطر. لكنه لن يتمكن من الهرب يا واتسون! أقسم إنه لن يفعل! اسمعني يا واتسون، أريدك أن تقوم بشيء من أجلي.

– أنا في خدمتك يا هولمز.

– حسنًا، أريدك أن تقضي الأربع والعشرين ساعة القادمة في دراسة الخزف الصيني دراسة مكثفة.

لم يقدم أي أسباب، ولم أطلب منه تقديم أي تفسير كذلك. فمن خلال خبرتي الطويلة معه تعلمت الحكمة من الطاعة. وما إن خرجت من منزله، حتى أخذت أعتصر عقلي في التفكير وأنا أمشي في شارع بيكر حول كيفية تنفيذ طلبه الغريب. وأخيرًا توجهت إلى مكتبة لندن في ميدان سانت جيمس، وطرحت الأمر على صديقي لوماكس، أمين المكتبة، ثم غادرت إلى مسكني حاملًا مجلدًا ضخمًا تحت ذراعي.

يُقال إن المحامي الذي ينكب على دراسة قضية بعناية شديدة حتى يستطيع استجواب شاهد خبير يوم الاثنين، ينسى كل المعلومات التي أقحمها في ذاكرته قبل يوم السبت. بالتأكيد لن أدعي الآن أنني خبير في الخزف. ولكنني قضيت ذلك المساء وطوال الليل أستقي المعلومات، وأحفظ الأسماء، ولم ألتمس سوى سويعات قصيرة من الراحة قبل صباح اليوم التالي. وهكذا عرفت السمات المميزة لفناني الديكور الكبار. وغموض التقويم الدوري الصيني، وآثار الإمبراطور هونجو، وتحف يونجلو، وكتابات تانج يينج، وأمجاد بداية عصر أسرتي سونج ويوان. كنت محملًا بكل هذه المعلومات عندما ذهبت لزيارة هولمز في مساء اليوم التالي. وهناك وجدته قد غادر الفراش، وهو في حالة لا يمكن لأحد أن يتخيلها وفقًا للتقارير المنشورة عن صحته، وقد جلس في كرسيه المفضل ذي الذراعين مسندًا رأسه الملفوف بالضمادات إلى يده. قلت له:

– عجبًا يا هولمز! لو أن أحدًا صدق ما نشر في الجرائد لظن أنك الآن تحتضر.

فقال:

– هذا هو الانطباع الذي قصدت أن أنقله للناس. والآن أخبرني يا واتسون، هل ذاكرت دروسك؟

– حاولت على الأقل.

– عظيم. هل بإمكانك أن تجاري حديثًا متخصصًا حول هذا الموضوع؟

– أعتقد أنني أستطيع.

– ناولني إذن تلك العلبة الصغيرة الموضوعة على رف المدفأة.

فتح هولمز غطاء العلبة وأخرج منها شيئًا صغيرًا ملفوفًا بعناية في قطعة من الحرير الشرقي الفاخر، ولما كشف عنه الغطاء رأيت صحنَ فنجانٍ رقيقٍ ذا زرقة داكنة رائعة الجمال. قال هولمز:

– عليك أن تتعامل معه بحذر يا واتسون. فهو من أرق قطع الخزف الصيني الأصلي الذي يعود لأسرة مينج. لم تعرض قطعة بمثل هذه الفخامة في صالة مزادات كريستي من قبل. إن طقمًا كاملًا منه يساوي مبالغ طائلة، بل إنه في الواقع ثمة شك أن يكون هناك طاقم كامل منه خارج القصر الإمبراطوري في بكين. إن رؤية قطعة كهذه تثير جنون أي خبير حقيقي.

– ولكن ماذا سأفعل به؟

أعطاني هولمز بطاقة مطبوع عليها «د. هيل بارتون، (369) شارع هاف مون». وقال لي:

– هذا هو اسمك لهذه الليلة يا واتسون. سوف تذهب لزيارة البارون جرونر. بحسب ما أعرفه عن روتينه اليومي أنه على الأغلب لن يكون لديه ارتباطات في الثامنة والنصف. وستعلمه سلفًا –برسالة– بأنك ستزوره، وستخبره فيها أنك ستأتيه بقطعة من طقم فريد من نوعه من الخزف الصيني الذي كانت تملكه أسرة مينج. يمكنك أن تقدم له نفسك بصفتك طبيبًا، فهذا دور تستطيع أن تمثله ببساطة ودون تكلف. أخبره أيضًا أنك تهوى جمع التحف، وأن هذا الطقم قد وقع في يدك مصادفة، وأنك سمعت عن اهتمام البارون بهذا الموضوع، ولا تمانع في أن تبيعه إياه بسعر معين.

– أي سعر؟

– سؤال وجيه يا واتسون. فإنك ستفشل فشلًا ذريعًا بكل تأكيد إن لم تعرف قيمة بضاعتك. هذا الصحن جاءني به السير جيمس. وهو يعود، حسبما فهمت، إلى مجموعة خاصة بموكله، ولن يكون من باب المبالغة إن قلت إنه ليس له نظير في العالم كله.

– ربما يمكنني أن أقترح أن يقوم أحد الخبراء بتثمين الطاقم.

– ممتاز يا واتسون! إنك متألق اليوم، اقترِح عليه الخبير كريستي أو سوثبي؛ فإن أمانتك وحساسية موقفك تمنعانك من تحديد سعره بنفسك.

– لكن ماذا لو رفض مقابلتي؟

– بل سيقابلك، فهو مهووس بجمع التحف الثمينة.. وخاصة الخزف الصيني والذي يُعد البارون خبيرًا فيه. اجلس يا واتسون حتى أُملي عليك الرسالة. ولا حاجة إلى طلب رد. ستقول إنك آتٍ لزيارته، وستذكر سبب الزيارة.

كانت الرسالة بديعة بحق، صيغت في إيجاز وأدب، بطريقة جديرة بإثارة فضول الخبير الهاوي، وحملها أحد سعاة بريد الحي إلى العنوان المذكور. وفي مساء اليوم نفسه، بدأت مغامرتي الخاصة حاملًا الصحن الثمين في يدي، وبطاقة الدكتور هيل بارتون في جيبي.

دلَّ المنزل البهي والأرض المحيطة به على أن البارون جرونر كان رجلًا شديد الثراء، كما قال السير جيمس. فقد كان يضم ممرًا طويلًا صفت على جانبيه أنواع من الشجيرات النادرة، يؤدي إلى ساحة كبيرة مفروشة بالحصى ومزدانة بالتماثيل. بنى هذا المكان أحد ملوك الذهب من جنوب إفريقيا إبان الطفرة الاقتصادية الكبرى. ومع أن المنزل كان قديم الطراز إلا أنه كان مهيبًا في حجمه ومتانته. أدخلني رئيس الخدم الذي بدا وكأنه أحد الأساقفة، وأوصلني إلى خادم يرتدي زيًّا من القطيفة، اصطحبني بدوره إلى البارون.

وجدته واقفًا أمام خزانة كبيرة مفتوحة تحتوي على جزء من مجموعة الخزف الصيني الخاصة به. عندما دخلت التفت إليَّ وفي يده مزهرية صغيرة بنية اللون، وقال:

– تفضل بالجلوس يا دكتور. لقد كنت أستعرض مقتنياتي الثمينة وأتساءل إن كان بإمكاني حقًّا أن أضيف شيئًا إليها. ربما تثير اهتمامك هذه القطعة الصغيرة من آثار أسرة تانج الحاكمة التي تعود إلى القرن السابع. أنا واثق من أنك لم ترَ حرفيةً بهذه الدقة أو طلاءً بهذه القيمة. هل معك صحن مينج الذي ذكرته في رسالتك؟

أخرجت الصحن من لفافته وسلمته إياه بحذر. فجلس إلى مكتبه وقرَّب المصباح؛ إذ كان الظلام قد حل، وأخذ يتفحصه. وفي أثناء انشغاله بذلك انعكس الضوء الأصفر على ملامحه، مما أتاح لي فرصة تفرُّس ملامحه.

كان رجلًا وسيمًا بحق. لم يكن ذلك الصيت الذي اكتسبه على مستوى أوروبا لوسامته من فراغ أبدًا. مع أنه كان متوسط الطول تقريبًا، إلا أن له قوامًا رشيقًا. أما وجهه فكان أسمر البشرة، هذا السمار الشرقي الخلَّاب، بعينين واسعتين داكنتين خاملتين تحملان جاذبية لا يمكن للنساء مقاومتها، لشعره وشاربه سواد فاحم، وكان الأخير قصيرًا ومدهونًا بعناية من أجل تثبيته، ملامحه متناسقة وجذابة، باستثناء فمه المستقيم ذي الشفتين الرفيعتين، كان كفم قاتل بدا وكأنه جرح بليغ قاس قد شق وجهه، قاسٍ وصارم ومخيف. قد أخطأ عندما قام بتشذيب شاربه لكيلا يغطي فمه، فهو يمثل علامة خطر وضعتها الطبيعة لتحذير ضحاياه. أما صوته فكان جذابًا، وأسلوبه مثاليًّا. وبالنظر إلى سنِّه، فقد بدا في تقديري أنه قد جاوز الثلاثين بقليل، إلا أن سجله الجنائي كشف فيما بعد أنه كان في الثانية والأربعين. قال أخيرًا:

– إنه بديع.. بديع بحق! تقول إن لديك مجموعة من ست قطع من الشكل نفسه. ما يحيرني أنني لم أسمع بهذه القطع الرائعة من قبل! لا أعرف إلا واحدة فقط تضاهيها في إنجلترا، وبالتأكيد ليس من المحتمل أن تكون للبيع. فهل ستكون حماقة مني إن سألتك كيف حصلت عليها يا دكتور هيل بارتون؟

فسألته متعمدًا إظهار اللامبالاة قدر ما استطعت:

– وهل في ذلك ما يهم حقًّا؟ إنك ترى بعينيك أن القطعة أصلية، أما عن قيمتها، فأنا راضٍ بأن نلجأ لتقدير أحد الخبراء.

قال البارون وقد لمعت عيناه الداكنتان ارتيابًا:

– هذا غريب للغاية. فعند التعامل مع أشياء بمثل هذه القيمة يرغب المرء بطبيعة الحال في معرفة كل شيء يتعلق بالصفقة. من المؤكد أن القطعة أصلية، ليس لدي أدنى شك في ذلك، لكنني مضطر إلى وضع كل الاحتمالات في الحسبان. لنفترض أنه قد تبين فيما بعد أنك لم تكن صاحب حق في بيعها!

– أنا على استعداد لمنحك ضمانًا ضد أي دعاوى من هذا القبيل.

– سيثير ذلك بالطبع تساؤلات حول قيمة الضمان الذي ستقدمه.

– سيتكفل المصرفيون الذين أتعامل معهم بالرد على هذا السؤال.

– لا بأس.. ومع ذلك فإن الصفقة برمتها تبدو لي غريبة بعض الشيء.

قلت بلا مبالاة:

– لك أن تقبل الصفقة أو ترفضها. لقد جئتك بالعرض؛ لأنك خبير وصاحب ذوق رفيع في هذا المجال حسبما سمعت، لكنني لن أجد صعوبة في عرضها على آخرين.

– مَن قال لك إنني خبير؟

– علمت أنك قد ألّفت كتابًا في هذا الموضوع.

– هل قرأت الكتاب؟

– لا.

– يا إلهي، إنك تزيد المسألة تعقيدًا في نظري! إنك من هواة تجميع التحف، وبحوزتك قطعة ثمينة للغاية، ومع ذلك لم تهتم بالاطلاع على الكتاب الوحيد الذي كان سيخبرك بالمعنى والقيمة الحقيقيين لما تحمله. فكيف تفسر ذلك؟

– أنا رجل كثير المشاغل؛ فأنا طبيب ولدي عملي.

– هذه ليست إجابة مقنعة، فإن كان المرء شغوفًا بهواية ما، فسيتابعها مهما كانت مشاغله الأخرى. وقد ذكرت في رسالتك أنك من هواة جمع التحف.

– وأنا كذلك حقًّا.

– هل لي أن أطرح عليك بعض الأسئلة حتى أختبرك؟ فأنا مضطر إلى إخبارك أيها الطبيب –هذا إن كنت طبيبًا حقًّا– أن المسألة تزداد ريبة. أود أن أسألك ماذا تعرف عن الإمبراطور شومو وما علاقته بخزينة كنوز «سوشو–إن» الموجودة بالقرب من مدينة نارا؟ عجبًا! هل أربكك السؤال؟ فلتحدثني قليلًا عن أسرة واي الشمالية، ومكانتها في تاريخ الخزف إذن.

فقفزت من مقعدي في غضب مفتعل وقلت:

– هذا شيء لا يطاق يا سيدي. لقد جئت إلى هنا لكي أسدي إليك خدمة، وليس لتختبرني كما لو كنت تلميذًا في المدرسة. وربما أكون على مقدار من المعرفة بهذا المجال قريبة جدًّا لمعرفتك به، لكنني بالتأكيد لن أجيب عن أسئلة طرحت بهذا الأسلوب المهين.

رمقني بنظرة ثابتة وقد اختفى الخمول من عينيه اللتين اشتعلتا غضبًا فجأة، بينما كشفت شفتاه القاسيتان عن أسنانه اللامعة وقال:

– ما هي اللعبة التي تلعبها؟ إنك جاسوس، وهولمز هو من أرسلك. إنك تحاول خداعي. إن الرجل يحتضر، كما سمعت، لذلك أرسل إليَّ مساعديه. لقد دخلت إلى منزلي دون استئذان، وأقسم إنك لن تجد خروجك بمثل تلك السهولة التي دخلت بها.

ثم هبَّ واقفًا، فتراجعت خطوة للوراء؛ تحسبًا لهجومه. كان يتأجج غضبًا، ربما كان يشتبه فيَّ منذ البداية؛ ومن المؤكد أن هذا الاستجواب قد كشف له الحقيقة؛ لكن كان من الواضح أنني لن أستطيع

خداعه. أدخل يده في أحد الأدراج يفتش في غيظ وعنف. ثم سمع صوتًا ما، فوقف يصغي باهتمام. صاح البارون قائلًا: «آه! آه!» واندفع إلى الغرفة الموجودة خلفه.

مشيت خطوتين حتى وصلت إلى الباب المفتوح، حيث رأيت في الداخل مشهدًا سيبقى عالقًا في ذهني إلى الأبد. كانت نافذة الغرفة المطلة على الحديقة مفتوحة على مصراعيها، ورأيت شيرلوك هولمز يقف بجانبها وكأنه شبح مرعب، برأسه الملفوف بالضمادات الملطخة بالدم ووجهه المنهك الشاحب. وما هي إلا لحظة حتى قفز من النافذة، وسمعت صوت ارتطام جسده بشجيرات الغار في الخارج. فاندفع سيد المنزل في إثره نحو النافذة وهو يصرخ غضبًا واهتياجًا.

ومن ثَمَّ وقع الأمر كله في لحظة! لكنني رأيته بوضوح. رأيت ذراعًا -ذراع امرأة- تنطلق من بين أوراق الشجر. وفي اللحظة نفسها سمعت البارون يصرخ صرخة مروعة.. صرخة سيظل صداها يتردد في ذاكرتي للأبد. ثم غطى وجهه بيديه وأخذ يدور في أنحاء الغرفة وهو يخبط رأسه بقوة في الجدران. ثم ما لبث أن سقط على السجادة، وأخذ يتقلب ويتلوى بينما كانت صرخاته تدوي في أنحاء المنزل. كان يصرخ قائلًا:

- ماء! أريد ماءً بحق السماء!

أخذت إبريقًا من فوق الطاولة الجانبية وهرعت لإنقاذه، وفي اللحظة نفسها دخل رئيس الخدم ومعه نفر من رجاله مهرولين مسرعين إلى الغرفة. أذكر أن أحدهم أغمى عليه حين جثوت على ركبتي بجانب الرجل المصاب وأدرت وجهه المريع تجاه ضوء المصباح. فقد كان زيت الزاج[2] يأكل وجهه ويتساقط من أذنيه وذقنه. كانت إحدى عينيه قد ابيضت وكأنها صقلت، وكانت عينه الثانية حمراء ملتهبة. وأصبحت الملامح التي كنتُ معجبًا بها قبل بضع دقائق أشبه بلوحة جميلة مرر عليها الفنان إسفنجة مبللة ومتسخة. فصارت مطموسة، مشوهة، ومرعبة ولا تمت بصلة لملامح البشر.

شرحت للخدم ما حدث بالضبط وما رأيت من الهجوم المتعلق بزيت الزاج في كلمات معدودات، وسرعان ما قفز البعض عبر النافذة وخرج آخرون مسرعين إلى الحديقة خلف المعتدية، غير أن الظلام قد حل، وبدأت الأمطار في الهطول. وكان الضحية يصرخ في اهتياج بكلمات حادة ضد المنتقمة. إذ صاح قائلًا:

- إنها تلك الخبيثة الماكرة، كيتي وينتر! آه، تلك الشيطانة! سوف تدفع ثمن فعلتها! أقسم إنها سوف تدفع الثمن! آه، رحماك يا ربي! هذا الألم لا أقدر على احتماله!

مسحت على وجهه بالزيت العادي وكسوت الأجزاء المتآكلة بالقطن، وأعطيته حقنة من المورفين. وتحت وطأة هذه الصدمة، زال عن ذهنه كل الشكوك التي تساوره بشأني، وتشبث بيدي كما لو كانت لدي القدرة على شفائه مما حل به. كان من الممكن أن أبكي على ما ناله من هلاك لو لم أكن أتذكر جليًّا حياة الرذيلة التي آلت به إلى هذا المصير البشع. كانت ملامسة يديه المحروقتين ليدي تثير الاشمئزاز. تنفست الصعداء حين جاء طبيب عائلته الخاص متبوعًا بجراح اختصاصي؛ لإعفائي من العبء. وجاء كذلك أحد مفتشي الشرطة، فأعطيته بطاقتي الحقيقية، فقد كان من العبث والحماقة أن أفعل خلاف ذلك؛ إذ كان شكلي معروفًا لدى رجال شرطة سكوتلاند يارد تمامًا كما كان شيرلوك هولمز نفسه

معروفًا لديهم. ثم غادرت ذلك المنزل بكل ما فيه من كآبة ورعب، وفي غضون ساعة كنت قد وصلت إلى شارع بيكر.

كان هولمز جالسًا على كرسيه المعتاد وقد بدا عليه الشحوب والإرهاق. فبخلاف إصاباته، كانت لأحداث المساء وقع صدمة عليه رغم أعصابه الحديدية، وأخذ يستمع إليَّ في فزع شديد وأنا أقص عليه روايتي عما أصاب البارون. قال هولمز:

– هذا جزاء الخطيئة يا واتسون.. جزاء الخطيئة!

وأضاف وهو يلتقط مجلدًا بنيًّا من فوق الطاولة:

– فالمرء يذوق جزاء عمله عاجلًا أو آجلًا. فالله يعلم أنه قد بلغ الحد من ارتكاب الخطايا. ها هو الكتاب الذي حدثتنا عنه الشابة. إن لم يكن هذا الكتاب كفيلًا بإيقاف الزواج، فما من شيء آخر يمكن أن يوقفه، لكنه سيوقفه يا واتسون، لا بد أنه سيوقفه؛ فلا يمكن لامرأة تحترم ذاتها أن تتحمل ما فيه.

– أهو سجل علاقاته الغرامية؟

– بل سجل شهواته، سمه كما تشاء. في اللحظة التي أخبرتنا فيها الشابة بشأنه؛ أدركت أنه سيكون سلاحًا رهيبًا إن استطعنا أن نضع أيدينا عليه، لكنني لم أنطق بكلمة -حينها- من شأنها أن تشير إلى ما يدور في ذهني، فقد كان من الممكن أن تفشيه هذه الشابة، ولكنه كان محور تفكيري طيلة الوقت، ثم أتاح لي هذا الاعتداء الفرصة لأجعله يعتقد أنه ليس بحاجة إلى أن يأخذ أي تدابير احترازية ضدي. كان كل شيء يصب في صالحي. وكنت سأتريث قليلًا في البدء في تنفيذ خطتي، لكن رحلته إلى أمريكا أرغمتني على تنفيذها بأسرع ما يمكن، فقد كان من المستحيل أن يترك وراءه وثيقة خطيرة كهذه من شأنها أن تفضح أمره، لذا كان يجب علينا التحرك على الفور. ولأنه يتخذ احتياطات أمنية، فقد كان السطو على منزله ليلًا أمرًا مستحيلًا. ولكن بدت فرصة التسلل إلى منزله ممكنة في المساء فقط إن استطعت التأكد من وجود ما يشغله ويجذب انتباهه. ومن هنا جاءتني فكرة أن تذهب إليه ومعك ذلك الصحن الأزرق. وكانت مهمتي أن أجد مكان الكتاب، وكنت أعلم أنه لم يكن أمامي سوى بضع دقائق فقط؛ فقد كان الوقت المتاح مقيدًا بحدود معرفتك عن الخزف الصيني، ولهذا اصطحبت الفتاة في اللحظة الأخيرة. وكيف كان لي أن أحزِّر ما في داخل العبوة الصغيرة التي كانت تحملها بعناية أسفل عباءتها؟ ظننتها جاءت لتنفيذ خطتي فقط، ولكن اتضح لي أن لديها خطتها الخاصة.

– لقد أدركَ أنني جئت من طرفك.

– هذا ما خشيته حقًّا، لكنك استطعت أن تشغله مدة كافية لأحصل على الكتاب، وإن لم تكن طويلة بما يكفي للتمكن من الهرب دون أن يلاحظني أحد... أجل، السير جيمس، يسرني للغاية مجيئك إلى هنا!

كان صديقنا المرموق قد جاء تلبيةً لطلب من هولمز، وقد استمع باهتمام بالغ لرواية هولمز لما حدث. ولما انتهى صديقي من رواية قصته صاح ضيفنا قائلًا:

– لقد صنعت المعجزات! معجزات بحق! ولكن إن كانت إصاباته بهذه الفظاعة التي وصفها الدكتور واتسون، فمن المؤكد أننا قد نجحنا في إحباط هذا الزواج دون الحاجة إلى اللجوء إلى هذا الكتاب الداعر

الشنيع.

فهز هولمز رأسه وقال:

– إن النساء من نوع الآنسة دو ميرفيل لن يتصرفن هكذا. فقد كانت ستزداد حبًّا له وهو ضحية مشوهة. لا، لا. علينا القضاء على جانبه الأخلاقي، لا الشكلي. سوف يعيدها هذا الكتاب إلى الواقع وسيفتح عينيها على الحقيقة.. ما من شيء غيره يستطيع ذلك. إنه مكتوب بخط يده. ولا سبيل لها لإنكاره.

انصرف السير جيمس حاملًا معه الكتاب والصحن الثمين. ولما كان الوقت قد تأخر بي أنا الآخر، نزلت معه إلى الشارع، حيث كانت هناك عربة في انتظاره. دخل السير إلى العربة، وأمر السائق بالرحيل على الفور، وإذا بالعربة تنطلق سريعًا. ومع أنه ألقى بنصف معطفه الطويل خارج النافذة ليغطي شعارات النبالة المعلقة على لوح الباب، فقد تمكنت من رؤيتها من خلال الضوء المنبعث من نافذة هولمز بالأعلى. فشهقت لشدة دهشتي، ثم استدرت عائدًا وصعدت الدرج متوجهًا إلى غرفة هولمز. دخلت إلى الغرفة متلهفًا لإخباره بالخبر العظيم، إذ صحت قائلًا:

– لقد عرفت من هو عميلنا. يا إلهي يا هولمز! إنه...

فاستوقفني هولمز بإشارة من يديه وقال:

– إنه صديق وفيٌّ، وسيدٌ نبيل. فلنكتف من الأمر بذلك الآن وللأبد.

لا أعرف كيف استُخدِم ذلك الكتاب الذي يدين البارون. ربما يكون السير جيمس قد تولى أمره. أو على الأرجح قد يكون والد الآنسة فيوليت هو من تولى القيام بهذه المهمة الحساسة. ولكن سواء أكان هذا أم ذاك، فقد حصلنا على النتيجة المرجوة. فبعد ثلاثة أيام نشرت جريدة (مورنينج بوست) خبرًا عن إلغاء الزواج المرتقب بين البارون أديلبرت جرونر، والآنسة فيوليت دو ميرفيل. وتضمنت الجريدة نفسها تفاصيل أولى جلسات محاكمة الآنسة كيتي بتهمتها الخطيرة المتمثلة في استخدام زيت الزاج في التعدي على البارون جرونر. وقد عرضت ملابسات الجريمة مخففة إلى أقصى حد ما أدى إلى إصدار حكم سيظل يُذكر بأنه أخف حكم من الممكن أن يصدر كعقوبة لجريمة كهذه.

وقد كان شيرلوك هولمز نفسه مهددًا بالمقاضاة بتهمة السطو، ولكن عندما يكون الهدف خيِّرًا، والعميل شخصية مرموقة بما فيه الكفاية، فحتى القانون البريطاني الصارم يصبح شفوقًا ومرنًا، فصديقي لم يَمثُل حتى الآن في قفص الاتهام.

الإسقربوط: مرض ينجم عن نقص فيتامين ج في الجسم، ومن أعراضه ظهور نتوءات وكدمات في الجلد وتأخر التئام الجروح، ونزيف اللثة وخلخلة الأسنان أو سقوطها.

زيت الزاج: الاسم القديم لحمض الكبريتيك المركز، وهو حمض قوي يتسبب في حدوث حروق عميقة من الدرجة الثانية والثالثة في أغلب الأوقات.

قضية الجندي الشاحب

تتميز أفكار صديقي واتسون، على الرغم من قِلتها، بكونها عنيدة وشديدة الإلحاح. فلطالما ألح عليَّ بشأن تدوين تجربة خاصة بي. في واقع الأمر، ربما أكون أنا من جلبت على نفسي المتاعب، فكثيرًا ما أُتيحت لي الفرصة لأوضح له مدى سطحية مَروِيّاته، واتهامه بالانسياق وراء إرضاء ذوق العامّة من الناس بدلًا من الاقتصار بشكل صارم على الحقائق والأرقام. وكان رد واتسون عليَّ في ذلك الحين هو: «جرب أن تدونها بنفسك يا هولمز!» وعليَّ الاعتراف بأنني بمجرد أن أمسكت بقلمي بدأت أدرك أن المسألة يجب أن تُعرَض بطريقة من شأنها أن تثير اهتمام القارئ. ومن الصعب أن تفشل هذه القضية في تحقيق ذلك، فهي واحدة من أغرب الوقائع التي تضمها مجموعتي، والتي لم يشِر إليها واتسون في مجموعته مطلقًا. وبالحديث عن صديقي القديم وكاتب سيرتي الذاتية، أود أن أغتنم هذه الفرصة للإشارة إلى أن إصراري على اصطحاب رفيق في شتى تحقيقاتي البسيطة لم يكن بدافع العاطفة أو اتباعًا لهوى، ولكن واتسون يتمتع ببعض السمات المميزة والتي، لتواضعه، لم يعرها إلا اهتمامًا ضئيلًا في خضم تقديره المبالَغ فيه لأدائي وإنجازاتي. دائمًا ما يمثل الشريك الذي يتنبأ باستنتاجاتك وتصرفاتك خطرًا عليك. أما الرفيق الذي دائمًا ما يرى أي تطور في الأحداث بمكانة مفاجأة مدهشة والمستقبل ككتاب مغلق لهو رفيق مثالي بالفعل.

وجدت مدونًا في دفتر ملاحظاتي أنني تلقيت زيارة في أحد أيام شهر يناير عام 1903، بعد انتهاء حرب البوير مباشرة، من السيد جيمس م. دود، وهو رجل بريطاني ضخم البنية، أسفع الوجه، بدت عليه حداثة السن واستقامة الخُلُق. وكان صديقي الوفي واتسون قد هجرني حينئذٍ لكي يستقر مع زوجته. وهو التصرف الأناني الوحيد الذي أذكره له طوال سنوات رفقتنا؛ فقد كنت وحيدًا.

من عادتي أن أجلس موليًا ظهري إلى النافذة بينما أجعل زواري يجلسون على الكرسي المقابل حيث يسقط الضوء عليهم كاملًا. بدا السيد جيمس م. دود في حيرة من أمره بعض الشيء بشأن كيفية استهلال الحديث، ولم أحاول مساعدته؛ فقد أتاح لي الصمت وقتًا أطول للملاحظة. وقد وجدت أنه من الحكمة أن أثير إعجاب عملائي بإظهار تمكني من عملي، لذا بادرت بالحديث حول بعض مما استنتجته من ملاحظاتي.

– أظنك من جنوب إفريقيا يا سيدي، صحيح؟

فأجاب بشيء من الدهشة:

– أجل يا سيدي.

– إنك من فرقة اليوامنة الإمبراطوريِّين، على ما أتخيل.

– بالضبط.

– فيلق ميدلسكس، بلا شك.

– هو كذلك يا سيد هولمز، أنت عبقري.

فابتسمت لما رأيت الحيرة قد اعترت وجهه وقلت:

– عندما يأتيني شاب محترم قوي البنية ومفعم بالحيوية وقد لفحته أشعة شمس لا يمكن إطلاقًا أن تكون شمس إنجلترا، واضعًا منديله في كُمه وليس في جيبه، فلن يكون من الصعب أن أحدد مكان إقامته. كما أن لك لحية قصيرة، مما يدل على أنك لست جنديًّا نظاميًّا، وتصفيفة شعرك تدل على أنك فارس. أما بالنسبة إلى ميدلسكس، فقد كان مذكورًا في بطاقتك أنك تعمل سمسارًا في البورصة في شارع ثروجمورتون. فبأي فيلق عساك أن تلتحق إذن؟

– أنت ترى كل شيء.

– لا أرى سوى ما هو موجود بالفعل أمام عيني، لكنني دربت نفسي على الملاحظة الدقيقة. ولكن من المؤكد يا سيد دود أنك لم تأتِ لزيارتي من أجل الحديث عن عِلم الملاحظة. ما الذي حدث في توكسبري أولد بارك؟

– سيد هولمز...!

– يا سيدي العزيز، إن الأمر ليس بلغز. لقد صدرت رسالتك بهذا العنوان. وبما أنك قد حددت هذا الموعد في إلحاح شديد، فكان من الواضح أن شيئًا مفاجئًا ومُهمًّا قد حدث.

– نعم، بالفعل. لكنني كتبت تلك الرسالة عصرًا. وقد وقع الكثير من الأحداث منذ ذلك الحين. فلو لم يطردني الكولونيل إمزورث...

– يطردك!

– حسنًا، هذا ما آل إليه الأمر. إن الكولونيل إمزورث شخص صعب المراس. فقد كان أكثر قيادات الجيش تشددًا وصرامة في عهده، كما كان سليط اللسان أيضًا. ما كنت لأتحمل التعامل مع الكولونيل لو لم يكن هذا من أجل جودفري.

أشعلت غليوني وتراجعت مسترخيًا في مقعدي ثم قلت له:

– هلا أوضحت ما تعنيه بكلامك!

فابتسم عميلي ابتسامة خبيثة وقال:

– كنت قد بدأت أعتقد أنك تعرف كل شيء من دون الحاجة إلى إخبارك. لكني سأخبرك بكل الأحداث التي وقعت، وأتمنى من الله أن تتمكن من تفسيرها لي. فقد قضيت طوال الليل أفكر وأنا في حيرة من أمري، وكلما فكرت في الأمر أكثر، كلما ازداد تعقيدًا في نظري وصعب عليَّ تصديقه.

تزامن التحاقي بالجيش في يناير عام 1901 –أي قبل عامين فقط– مع انضمام الشاب جودفري إمزورث إلى سرية الخيالة نفسها. كان جودفري هو الابن الوحيد للكولونيل إمزورث –إمزورث الحاصل على صليب فيكتوريا[3] لبسالته في مواجهة العدو في أثناء حرب القرم– وقد ورث عن والده تلك الروح القتالية؛ لذلك فلا عجب في انضمامه متطوعًا. كان أجود وألطف شباب الكتيبة. وقد نشأت بيننا صداقة –نوع خاص من الصداقة لا يمكن أن يولد إلا عندما يعيش الصديقان الحياة نفسها ويتشاركان الأفراح والأحزان عينها. لقد كان رفيقي– وهو أمر يعني الكثير داخل الجيش. عشنا الحياة بحلوها ومرها معًا لمدة عام؛ عام من القتال الشرس. ثم أصيب برصاصة من إحدى البنادق في أثناء القتال بالقرب من

دايموند هيل خارج حدود مدينة بريتوريا. تلقيت بعد ذلك رسالة منه في أثناء وجوده في مستشفى كيب تاون ورسالة أخرى في أثناء إقامته بمدينة ساوثهامبتون، ومنذ ذلك الحين لم يراسلني أبدًا؛ ولو بكلمة واحدة يا سيد هولمز، لمدة ما يزيد على ستة أشهر، وهو أقرب أصدقائي.

حسنًا، بعدما انتهت الحرب، وعدنا جميعًا إلى ديارنا، راسلت والده لأسأله عن مكان وجود جودفري، ولكن لم يصلني رد، فانتظرت قليلًا ثم راسلته مجددًا، وتلقيت ردًا هذه المرة، وكان مقتضبًا وفظًا. لقد ذهب جودفري في رحلة بحرية حول العالم، وليس من المرجح أن يعود قبل عام. كان هذا هو الرد.

لم أقتنع بذلك يا سيد هولمز. بدا لي الأمر برمته غريبًا للغاية. فقد كان صديقًا مخلصًا، ولن يقاطع صديقه بمثل هذه الطريقة. لم يكن هذا من طبعه. ثم صادف أن عرفت أنه كان وريثًا لأموال طائلة، وأنه ووالده لم يكونا على وفاق دائمًا، فقد كان العجوز مستبدًا في بعض الأحيان. وكان جودفري متمردًا بطبعه ولم يكن ليتحمله. لا، لم يقنعني هذا الرد. وصممت على معرفة حقيقة الأمر. ولكن حدث أن وجدت الكثير من شؤوني الخاصة، بعد عامين من الغياب، بحاجة إلى إصلاح وإعادة ترتيب. ولهذا السبب لم يتسنَّ لي العودة لمتابعة مسألة جودفري مرة أخرى إلا هذا الأسبوع. ولكن بما أنني نويت الانخراط في هذا الأمر، فإني عازم على التفرغ لها بالكامل.

بدا لي السيد جيمس م. دود من ذلك النوع من الأشخاص الذي يحسن بك كسب صداقته لا عداوته. فقد كانت عيناه الزرقاوان صارمتين وقاسيتين، وكان فكه المربع مشدودًا وهو يتحدث. سألته قائلًا:

– حسنًا، ماذا فعلت؟

– كانت أولى خطواتي هي الذهاب إلى منزله في توكسبري أولد بارك، بالقرب من بيدفورد، لمعاينة الوضع بنفسي. لذلك كتبت رسالة إلى والدته –فقد نلت كفايتي من فظاظة والده– فاجأتها فيها بأنني سآتي إلى المنزل مباشرة، إذ أخبرتها أن جودفري كان صديقي المقرب، وأن لدي الكثير من التفاصيل المثيرة حول تجاربنا المشتركة التي قد أقصها عليها، وأنني سوف أكون بالجوار، فهل ثمة أي اعتراض... إلخ؟ وقد تلقيت منها ردًا غاية في الود واللطف وعرضًا باستضافتي لليلة. وهكذا ذهبت إلى هناك يوم الاثنين.

إنه لمن الصعب الوصول إلى ذلك المنزل في الواقع في توكسبري أولد بارك؛ فهو على بعد خمسة أميال من أي منطقة آهلة بالسكان، ولم يكن في المحطة أي عربات، لذلك اضطررت إلى السير حاملًا حقيبة السفر الخاصة بي، وكان الظلام قد حل تقريبًا قبل أن أصل إلى وجهتي. إنه منزل كبير مُترامِي الأطراف مُقام في وسط منتزه ضخم. ويجدر بي القول إن تصميمه يشكل مزيجًا من جميع العصور والأطرِزَة، فمبدؤه أساس نصف خشبي على طراز العصر الإليزابيثي ومنتهاه رواق مُعمَّد على طراز العصر الفيكتوري. أما في الداخل، فكانت الجدران كلها مغطاة بالألواح المؤطرة وأقمشة النجود ولوحات وصور قديمة قد طمس الزمن نصف ملامحها. بدا كمنزل بعيد في الظلال يكتنفه الغموض. وجدت كبير الخدم، العجوز رالف، في استقبالي، والذي بدا أثر الزمن عليه واضحًا تمامًا كأثره على المنزل. ورأيت زوجته أيضًا التي ربما تكبره سنًّا. كانت زوجته مربية جودفري، وقد سبق لي أن سمعته يصفها بأنها أقرب الناس إلى قلبه بعد والدته مباشرة، لذا وجدت نفسي منجذبًا إليها على الرغم من

مظهرها الغريب. وقد أعجبت بوالدته أيضًا.. فهي سيدة دمثة وديعة ضئيلة الحجم. لم يشكل لي عائقًا سوى الكولونيل نفسه.

فما لبث أن نشب بيننا شجار بسيط، وكنت سأعود سيرًا إلى المحطة لو لم يراودني شعور بأنها ربما تكون لعبة لعبها عليَّ ليدفعني إلى الرحيل. فقد أُرشِدت إلى مكتبه مباشرة، وهناك رأيته؛ رجل ضخم مقوس الظهر ذو بشرة داكنة اللون ولحية رمادية شعثاء، يجلس خلف مكتبه المبعثر. رأيت أنفه ذا العروق الحمراء البارزة الأشبه بمنقار النسر، وعينيه الرماديتين القاسيتين الشرستين يحدقان إليَّ من أسفل حاجبيه الكثيفين. أستطيع الآن أن أفهم لماذا لم يكن جودفري يتحدث عن أبيه إلا نادرًا. قال لي بصوت أجش: «حسنًا يا سيدي، لدي رغبة في معرفة الأسباب الحقيقية وراء هذه الزيارة». فأجبت بأنني قد أوضحت الأسباب بالفعل في الرسالة التي أرسلتها إلى زوجته.

– صحيح، صحيح، ذكرت أنك تعرفت على جودفري في إفريقيا، ولكن ليس لدينا –بالطبع– أي دليل يثبت صحة ادّعائك.

– معي الرسائل التي أرسلها إليَّ، إنها في جيبي.

– فضلًا، أرني إياها.

ألقى نظرة سريعة على الخطابين اللذين أعطته إياهما ثم رماهما إليَّ. سأل قائلًا:

– حسنًا، وماذا بعد؟

– إن ابنك هو صديقي المقرب يا سيدي وقد أحببته حبًّا جمًّا، فقد جمعنا الكثير من الروابط والذكريات. أليس من الطبيعي أن أتعجب من الانقطاع المفاجئ لرسائله وأن أرغب في معرفة ما حلَّ به؟

– على ما أذكر يا سيدي أنني قد راسلتك من قبل، وأخبرتك بالفعل بما حدث. لقد انطلق في رحلة بحرية حول العالم. فقد ساءت صحته بعد الذي تعرض له في إفريقيا ورأيت أنا ووالدته أنه في حاجة إلى الراحة التامة والتغيير. وأرجو أن توضح هذا إلى أي أصدقاء آخرين قد يهمهم الأمر.

أجبته قائلًا:

– سأفعل هذا بالتأكيد. لكن لعلك تتفضل بإخباري باسم الباخرة والخط الملاحي الذي أبحر عليه، بالإضافة إلى التاريخ الذي انطلق فيه في رحلته. ومن المؤكد أنني سأتمكن من إرسال رسالة إليه.

بدا لي أن طلبي قد أربك الرجل وأثار غضبه. فقد انعقد حاجباه الكثيفان فوق عينيه وأخذ ينقر بأصابعه على المكتب بنفاد صبر، ثم نظر إليَّ أخيرًا نظرة شخص رأى خصمه يقوم بحركة خطيرة في لعبة الشطرنج وقرر كيف يواجهها. قال:

– إن إلحاحك الشديد هذا من شأنه أن يثير استياء الكثيرين، وربما يعتبرون أن هذا الإصرار قد بلغ حد الوقاحة اللعينة.

– يجب أن تعزو السبب وراء هذا الإلحاح إلى محبتي الحقيقية لابنك يا سيدي.

– بالضبط، فكل تساهل معك كان مرجعه هذا السبب. ولكن عليَّ أن أطلب منك الكفَّ عن هذه الاستفسارات، فلكل عائلة شؤونها الداخلية ودوافعها الخاصة، التي قد لا يمكن أن يتم توضيحها دائمًا

للغرباء مهما كان حسن نواياهم. إن زوجتي متلهفة لسماع بعض التفاصيل عن ماضي جودفري، وهو أمر تستطيع فعله، ولكني أطلب منك ألا تسأل عن الحاضر أو المستقبل. فمثل هذه الاستفسارات لن تفيد في شيء يا سيدي وستضعنا في موقف حساس وصعب.

وهكذا وصلت معه إلى طريق مسدود يا سيد هولمز. ولم يكن أمامي بديل عن التظاهر بتقبل الموقف، ولكني قطعت عهدًا في قرارة نفسي بأنني لن أرتاح أبدًا حتى أعرف ما آل إليه مصير صديقي. كانت أمسية مملة، فقد تناول ثلاثتنا العشاء في هدوء داخل غرفة قديمة باهتة الألوان يخيم عليها جو من الكآبة. أخذت السيدة تسألني بلهفة عن ابنها، بينما ظل العجوز متجهمًا ومغتمًا. لقد شعرت بالضجر من الموقف برمته حتى إنني استأذنت للانصراف حالما وجدت ذلك لائقًا وذهبت إلى غرفة نومي. كانت غرفة واسعة شبه خالية في الطابق الأرضي، لا تقل كآبة عن بقية المنزل، ولكن بعد عام من النوم فوق سهوب جنوب إفريقيا لا يدقق المرء المرء كثيرًا حول مكان مبيته يا سيد هولمز. أزحت الستائر ووقفت أتأمل الحديقة، فقد كانت ليلة صافية انتصف فيها القمر وسطع ضوؤه، ثم جلست بالقرب من نيران المدفأة المستعرة وعلى جانبي منضدة وضع عليها مصباحًا وحاولت تشتيت ذهني بقراءة برواية، لكن رالف، كبير الخدم العجوز، قاطعني بدخوله حاملًا دفعة جديدة من الفحم. قال رالف:

– لقد ظننت أنك قد تحتاج إلى المزيد من الفحم في أثناء الليل يا سيدي، فالطقس قارس وهذه الغرفة باردة.

لاحظت تردده قبل أن يغادر الغرفة وحين التفت رأيته واقفًا أمامي وعلى وجهه المجعد نظرة حزن وأسى.

– أستميحك عذرًا يا سيدي، لكنني لم أستطع منع نفسي من استراق السمع إلى كلامك عن سيدي الشاب جودفري في أثناء العشاء. فكما تعلم يا سيدي أن زوجتي قد أرضعته وربته، لذا يمكنني القول إنني في منزلة أبيه، ومن الطبيعي أن نهتم لأمره. إنك تقول بأنه أبلى بلاء حسنًا في أثناء الحرب يا سيدي وأنه كان شجاعًا، صحيح؟

– كان أشجع رجال الكتيبة. لقد سحبني ذات مرة من تحت طلقات نيران بنادق البوير، ولولاه ربما ما كنت هنا الآن.

فرك العجوز يديه النحيلتين وقال:

– نعم يا سيدي، نعم، هذا هو طبع السيد جودفري. دائمًا ما كان شجاعًا. لا توجد شجرة في المنتزه يا سيدي إلا وتسلقها. لم يكن هناك شيء من شأنه أن يوقفه. لقد كان فتىً رائعًا... آه يا سيدي، لقد كان رجلًا رائعًا.

فنهضت واقفًا وصحت قائلًا:

– مهلًا! لقد قلت إنه كان. أنت تتحدث عنه كما لو كان ميتًا. ما كل هذا الغموض؟ ما الذي حدث لجودفري إمزورث؟

أمسكت الرجل العجوز من كتفيه، فانكمش خوفًا وقال:

– لا أعرف ما الذي تقصده يا سيدي. فلتسأل السيد الكبير عن السيد جودفري. هو يعرف. ليس لي أن أتدخل في هذا الأمر.

كان يهم بمغادرة الغرفة ولكني أمسكت بذراعه وقلت له:

– اسمع. ستجيبني عن سؤال واحد قبل أن تغادر حتى إن اضطررت إلى احتجازك هنا طوال الليل. هل مات جودفري؟

لم يستطع النظر في عينيَّ. كان يبدو كالمنوَّم مغناطيسيًّا. انتزعت الجواب من بين شفتيه بصعوبة. وكان جوابًا مفزعًا وصادمًا. إذ صاح قائلًا:

– يا ليته كان! ثم حرر نفسه من قبضتي وهرع بالخروج من الغرفة.

لعلك تفكر يا سيد هولمز أنني قد عدت إلى مقعدي وأنا في حالة يرثى لها. فقد بدت كلمات الرجل العجوز لا تحمل إلا تفسيرًا واحدًا فقط. من الواضح أن صديقي المسكين قد تورَّط في فعل جنائي أو على الأقل في أمر شائن مسَّ سمعة العائلة. لذلك أرسل ذلك العجوز الصارم ابنه بعيدًا وأخفاه عن الأعين لئلا يفتضح أمره. كان جودفري رجلًا طائشًا سهل التأثر بمن حوله. لا شك أنه وقع ضحية لبراثين الشر حتى ضل سبيله ووصل إلى التهلكة. إنه مثير للشفقة، لو كان هذا ما حدث بالفعل، لكن حتى في تلك الحالة سيظل من واجبي أن أبحث عنه وأرى إن كان بوسعي مساعدته. وبينما جلست أمعن التفكير في المسألة في قلق، رفعت بصري فرأيت جودفري إمزورث واقفًا أمامي.

صمت عميلي لبرهة من شدة انفعاله. فقلت له:

– أرجوك أن تُكمل، فقضيتك تتسم بغرابة شديدة.

كان يقف خارج النافذة يا سيد هولمز، ووجهه ملتصقًا بالزجاج. كنت قد أخبرتك أنني ألقيت نظرة على الحديقة ليلًا. حين فعلت ذلك، تركت الستائر مفتوحة جزئيًّا، وقد رأيت وجهه في تلك الفجوة بالتحديد، بل أنني رأيت جسده كاملًا نظرًا لأن النافذة كانت ممتدة إلى الأرض، لكن وجهه هو ما خطف بصري؛ فقد كان شاحبًا كالأموات... لم يسبق لي قط أن رأيت رجلًا بهذا الشحوب. أحسب أن الأشباح قد لا تختلف عنه أبدًا في هيئتها. لكن عيوننا تلاقت، كانت عيناه عينَيْ رجل حي. وعندما أدرك أنني أنظر إليه تراجع سريعًا واختفى في الظلام.

كان ثمة شيء مروع حول هذا الرجل يا سيد هولمز، ولم يكن هذا الشيء مجرد وجهه الشَبَحيّ المخيف الذي بَرَقَ في الظلام كقطعة من الجبن الأبيض، بل كان شيئًا أدق من ذلك، إنه شيء يتعلق بالانسلال والتخفي والشعور بالذنب، شيء مغاير تمامًا لطبيعة هذا الشاب الصريح الشجاع الذي قد عرفته. لقد ترك هذا المشهد شعورًا بالرعب والهلع في داخلي.

لكن عندما يمضي المرء عامًا أو عامين في الخدمة العسكرية كجندي يجابه البوير، فإنه يتعلم رباطة الجأش وسرعة التصرف. لم أكد أصل إلى النافذة حتى اختفى جودفري عن ناظري. كان مقبض النافذة صعب الفتح، فاستغرقت بعض الوقت في محاولة فتحه، ثم قفزت وأخذت أركض في الاتجاه الذي ظننت أنه ربما يكون قد سلكه.

كان المسار الذي سلكته في الحديقة طويلًا ولم تكن الإضاءة جيدة، ولكن بدا لي أن شيئًا ما كان يتحرك أمامي فركضت نحوه وناديت اسمه لكن دون جدوى. وعندما وصلت إلى نهاية المسار وجدت أمامي عدة مسارات أخرى متفرعة في اتجاهات مختلفة تؤدي إلى عدة مبانٍ خارجية تابعة للمنزل. وبينما كنت واقفًا مترددًا حول أي المسارات يجب أن أسلك سمعت صوتًا واضحًا لباب يوصد. لم يكن الصوت قادمًا من المنزل من خلفي بل من أمامي، من مكان ما في الظلام. وكان هذا كافيًا يا سيد هولمز ليؤكد لي أن ما رأيته لم يكن حلمًا، فقد فر مني جودفري هربًا وأوصد الباب خلفه. كنت متأكدًا من ذلك.

لم يكن هناك شيء آخر بوسعي أن أفعله، وقضيت مضطربًا أقلب الأمر في ذهني محاولًا إيجاد أي فرضية من شأنها أن تفسر ما حدث. وفي اليوم التالي وجدت الكولونيل أكثر مسالمة، ولما أشارت زوجته إلى وجود بعض المزارات المثيرة للاهتمام في الجوار، وجدت في ذلك فرصة لأسألها عما إذا كان بقائي لليلة أخرى سوف يزعجهما. وافق العجوز على طلبي مكرهًا إلى حد ما، وهكذا كان لدي يومٌ كاملٌ للمراقبة والملاحظة. كنت مقتنعًا تمامًا أن جودفري كان مختبئًا بالفعل في مكان ما بالقرب من هذا المنزل، لكن أين ولماذا؟ هذا ما لم أكن أعرفه.

كان المنزل كبيرًا جدًّا وشاسعًا حتى أن كتيبة كاملة قد تختبئ بداخله دون أن يدري بها أحد، وإن كان السر قابعًا بين جدرانه، فلن يكون كشفه أمرًا يسيرًا عليَّ. ولكن من المؤكد أن الباب الذي سمعته يوصَد لم يكن أحد أبواب المنزل، لذلك كان عليّ أن أستكشف الحديقة وأرى ما الذي قد ينتج عنه البحث. لم أجد صعوبة في كيفية بدء في عملية الاستكشاف، فقد كان العجوزان منشغلين بأمورهما الخاصة وتركاني وشأني.

كان هناك عدة مبانٍ خارجية صغيرة جدًّا في الحديقة، ولكن في نهايتها وجدت بناءً منعزلًا كبيرًا بعض الشيء، تكفي مساحته لإقامة بستانيٍّ أو حارس حيوانات. فهل يمكن أن يكون هذا البناء هو المصدر الذي انبعث منه صوت الباب الذي أوصِد ليلة أمس؟ اقتربت منه متظاهرًا باللامبالاة كما لو كنت أتنزه في الأرجاء بغير هدف، فإذ برجل مُلتحٍ ضئيل الحجم رشيق القوام يرتدي معطفًا أسود وقبعة مستديرة -لا يبدو كبستاني على الإطلاق- يخرج من الباب. ودهشت لما وجدته قد أغلق الباب وراءه ووضع المفتاح في جيبه. ثم نظر إليَّ بشيء من الدهشة. سألني قائلًا:

- هل أنت من زوار هذا المكان؟

فأجبت بأنني زائر وأوضحت أنني صديق جودفري. ثم تابعت قائلًا:

- يا للأسف إنه غائب في أسفاره؛ إذ كان سيرغب بشدة في رؤيتي.

فقال وقد بدا عليه شيء من الشعور بالذنب:

- بالضبط. معك حق لكن لا شك في أنك ستجدد زيارتك في وقت أكثر ملائمة.

ثم مضى في طريقه، ولكن عندما استدرت لاحظت أنه كان واقفًا يراقبني وقد توارى نصفه خلف أوراق الغار في آخر الحديقة.

ألقيت نظرة فاحصة على المنزل عندما مررت به، ولكن النوافذ كانت مغطاة بستائر ثقيلة، وبقدر ما استطعت أن أرى؛ بدا لي المنزل خاليًا. جال في خاطري أنني قد أُفسِد خطتي بل أنني قد أُطرد من المنتزه إذا تهورت وتماديت في الجرأة، فقد كنت مدركًا أنني لا أزال تحت المراقبة. لذلك عدت أدراجي إلى المنزل وانتظرت حلول الليل لكي أواصل بحثي. وعندما خيم الظلام والسكون على كل شيء، قفزت من نافذة غرفتي وشققت طريقي في هدوء بقدر الإمكان متجهًا إلى الكوخ الغامض.

لقد ذكرت أن نوافذه كانت مغطاة بستائر ثقيلة، لكنني في هذه المرة وجدتها مغلقة تمامًا. غير أني لمحت ضوءًا نافذًا عبر إحداها فلفت انتباهي. كنت محظوظًا؛ إذ لم يكن ستار النافذة مغلقًا تمامًا، وكان ثمة شق في مصراع النافذة والذي تمكنت من خلاله من النظر إلى داخل الغرفة. بدا لي المكان مبهجًا بدرجة كبيرة بما فيه من مصباح ساطع الضوء ونار متوهجة، وكان الرجل ضئيل الحجم الذي لاقيته صباحًا يجلس أمامها يدخل غليونه ويقرأ جريدة.

سألته قائلًا: «أيُّ جريدة؟». بدا لي أن عميلي قد انزعج من مقاطعتي لروايته. ثم تساءل قائلًا:

– وهل يهم ذلك؟

– إنه أمر ضروري للغاية.

– في الحقيقة لم ألحظ هذا.

– ربما تكون قد لاحظت ما إذا كانت صفحاتها عريضة أم كانت من ذلك النوع الأصغر الذي يشبه المجلات الأسبوعية.

– آه، تذكرت الآن، إنها لم تكن كبيرة. ربما كانت مجلة «ذا سبيكتور». لكني لم أركز كثيرًا على مثل هذه التفاصيل، فقد كان هناك رجلٌ آخر يجلس موليًا ظهره إلى النافذة وبوسعي أن أقسم إنه هذا الرجل كان جودفري. لم أتمكن من رؤية وجهه، لكني أعرف ميل كتفيه المألوف. كان مسندًا رأسه إلى مرفقه كالمهموم ومائلًا بجسده نحو نيران المدفأة. كنت مترددًا بشأن ما ينبغي لي فعله حين شعرت فجأة بنقرة حادة على كتفي، وإذا بالكولونيل إمزورث يقف بجانبي. وقال بصوت خافت: «من هنا يا سيدي!»

ثم سار في صمت إلى المنزل وتبعته إلى غرفتي. وكان قد التقط جدول مواعيد من الردهة ثم التفت إليَّ وقال: «هناك قطار متجه إلى لندن في الساعة الثامنة والنصف. ستجد العربة في انتظارك في الثامنة».

كان الرجل يستشيط غضبًا. وفي حقيقة الأمر، شعرت بأنني في موقف صعب للغاية حتى إنني لم أتمكن سوى من التلعثم ببضعة اعتذارات مفككة محاولًا أن ألتمس العذر لنفسي بدافع القلق على صديقي. لكنه قاطعني فجأة وقال:

– الأمر لا يحتمل النقاش. لقد انتهكت خصوصية عائلتنا انتهاكًا لعينًا. لقد جئت إلى هنا ضيفًا ثم أمسيت جاسوسًا. ليس لدي ما أقوله يا سيدي سوى أنني لا أتمنى أن أراك مجددًا أبدًا.

عندها فقدت أعصابي يا سيد هولمز، وتحدثت بشيء من الانفعال قائلًا:

– لقد رأيت ابنك، ولدي قناعة بأنك تخفيه عن العالم لسبب ما. ليس لدي أدنى فكرة عن دوافعك وراء عزله بهذه الطريقة. لكنني متأكد من أنه لم يعد حر التصرف. إنني أنذرك أيها الكولونيل إمزورث أنني لن أتوقف أبدًا عن المحاولة للتوصل إلى حقيقة هذا اللغز حتى أطمئن على سلامة صديقي وأمنه، ومن المؤكد أنني لن أسمح لأقوالك أو أفعالك أن تخيفني.

بدا العجوز يشتعل غيظًا، وظننت حقًّا أنه على وشك مهاجمتي. لقد ذكرت مسبقًا أنه ضخم البنية، عنيفًا، شرسًا، وعلى الرغم من أنني لست ضعيف البنية، إلا أنني ربما أواجه صعوبة بالغة في الصمود أمامه. ولكن بعد نظرة غضب طويلة، استدار فجأة وخرج من الغرفة. أما أنا فقد استقللت القطار المحدد في الصباح عازمًا كل العزم على المجيء إليك مباشرة لطلب نصيحتك ومساعدتك في الموعد الذي راسلتك طالبًا إياه.

كانت تلك هي القضية التي عرضها عليَّ ضيفي. التي طرحت، كما سيدرك القارئ الفَطِن بالفعل، بعض الصعوبات في حلها؛ فلم يكن أمامنا سوى عدد محدود للغاية من البدائل التي من الممكن لها أن تقودنا إلى حقيقة الأمر. ومع ذلك، وعلى الرغم من بساطتها، إلا أنها لم تخلُ من عنصرَيْ الإثارة والغرابة، وهو ما يبرر سبب تدويني لها. وهنا أخذت أحاول تضييق نطاق الحلول الممكنة مستخدمًا أسلوب التحليل المنطقي الخاص بي. سألت ضيفي قائلًا:

– الخدم.. كم كان عددهم في المنزل؟

– على حد علمي، لم يكن هناك سوى كبير الخدم العجوز وزوجته. وقد بدا لي أن نمط حياتهما كان من أبسط ما يكون.

– ألم يكن هناك خادم في المنزل المنعزل إذن؟

– لا، إلا إذا اعتبرنا أن الرجل الضئيل كان خادمًا. ولكنه بدا لي أرفع مكانة من ذلك.

– يبدو أن ذلك ينطوي على الكثير من الدلالات. هل تذكر أي شيء يوحي بأن الطعام كان يُنقل من أحد المنزلين إلى الآخر؟

– نعم، لقد ذكرتني بسؤالك الآن. لقد رأيت رالف بالفعل يسير في الحديقة حاملًا سلة ومتجهًا صوب هذا المنزل. ولكن لم تخطر في بالي فكرة أن يكون طعامًا إلا الآن.

– هل أجريت أي تحريات في الجوار؟

– أجل فعلت. فقد تحدثت إلى مدير المحطة وصاحب الحانة الموجودة في القرية. سألتهما ببساطة إذا ما كانا يعرفان أي شيء عن صديقي، جودفري إمزورث، لكنهما أكدا لي أنه قد ذهب في رحلة بحرية حول العالم، وأنه قد عاد إلى الديار ثم انطلق في أسفاره مرة أخرى. كان من الواضح أن قصة سفره حظيت بالقبول من الجميع.

– ألم تبح إليهما بشيء حول ما يساورك من شكوك؟

– لا.

– تصرف حكيم للغاية. من المؤكد أنها مسألة تتطلب تحقيقًا عميقًا لسبر أغوارها. سأعود معك إلى توكسبري أولد بارك.

– اليوم؟

تصادف أنني كنت في ذلك الوقت منشغلًا بالتحقيق في القضية التي أشار إليها صديقي واتسون بقضية مدرسة الرهبان، وهي القضية التي كان دوق جرايمينستر معنيًّا بها بشدة. هذا الإضافة إلى المهمة التي كلفني بها سلطان تركيا والتي كانت تتطلب اتخاذ إجراء فوري، فقد ينجم عن إهمالها عواقب سياسية من أخطر ما يكون. لذلك لم أتمكن من البدء في مأموريتي إلى مقاطعة بدفوردشير بصحبة السيد جيمس م. تود إلا مطلع الأسبوع التالي، حسبما تشير مذكراتي. وبينما نحن في طريقنا إلى يوستون اصطحبنا رجلًا وقورًا ومتحفظًا وقليل الكلام ومتشحًا بلون رمادي داكن، والذي كنت قد اتفقت معه على الترتيبات اللازمة. قلت لدود:

– هذا صديق قديم لي. ربما يكون وجوده معنا غير ضروري على الإطلاق، وقد يكون، على العكس من ذلك، جوهريًّا. ليس من الضروري أن نخوض في تلك المسألة في الوقت الحالي.

لا شك في أن القرّاء قد اعتادوا، من خلال مرويات واتسون، على حقيقة أنني لا أضيع الوقت في الحديث وأنني لا أفصح خططي أو أفكاري ما دامت القضية لا تزال قيد النظر. بدا دود متفاجئًا ولكنه لم يقل شيئًا، وواصل ثلاثتنا الرحلة معًا. وبينما نحن في القطار، سألت تود سؤالًا وددت أن يسمعه رفيقنا الثالث.

– تقول إنك رأيت وجه صديقك واضحًا تمامًا في النافذة، بالشكل الذي يجعلك متأكدًا من هويته؟

– ليس لدي أدنى شك من ذلك. لقد كان أنفه ملتصقًا بزجاج النافذة وكان ضوء المصباح مسلطًا بالكامل عليه.

– أليس من الممكن أن يكون شخصًا آخر يشبهه؟

– لا، لا، لقد كان هو بعينه.

– لكنك تقول إنه تغير، صحيح؟

– في لونه فقط. فقد كان وجهه... كيف عساي أن أصفه؟ باهت البياض. كان أمهق.

– وماذا عن بقية جسده؟ هل كان شاحبًا أيضًا؟

– لا أعتقد ذلك. لقد كان جبينه هو ما رأيته بوضوح شديد لالتصاقه في الزجاج.

– هل ناديته؟

– كلا، فقد اعتراني شعور بالذهول والذعر في حينها ما أفقدني النطق. لكنني حاولت اللحاق به بعدها، كما أخبرتك، ولكن لم أفلح.

كانت القضية بالنسبة إليَّ شبه مكتملة، لم يكن ينقصها سوى واقعة بسيطة لإنهائها. بعد رحلة طويلة، وصلنا إلى المنزل الغريب القديم المُترامِي الأطراف الذي وصفه عميلي. وهناك وجدنا رالف، كبير الخدم العجوز، في استقبالنا. طلبت بقاء العربة طوال اليوم وطلبت من صديقي المسن البقاء بداخلها ما

لم نستدعه. كان رالف، رجلًا عجوزًا ضئيل الحجم مجعد الوجه، يرتدي زي الخدم التقليدي المكوَّن من المعطف الأسود والبنطال الرمادي، ولم يتعارض مع هذا المظهر التقليدي سوى شيء واحد فقط غريب ولافت للنظر؛ إذ كان يرتدي زوجًا من القفازات الجلدية بنية اللون، اللتين خلعهما فورًا بمجرد أن رآنا ووضعهما على طاولة الردهة بينما كنا ندلف إلى الداخل. وكما قد يكون صديقي واتسون أشار إليكم من قبل، فإن حواسي تعمل بطريقة شديدة الدقة بدرجة غير عادية. ولهذا تمكنت من استشعار رائحة حادة لكنها خافتة. بدا لي أنها كانت منبعثة من مركز طاولة الردهة. فاستدرت ووضعت قبعتي هناك، وتعمدت إسقاطها وانحنيت لألتقطها واستطعت أن أدنو بأنفي على بعد قدم من القفازين. أجل، مما لا شك فيه أن هذين القفازين كانا هما مصدر تلك الرائحة الغريبة الشبيهة برائحة القطران. وبينما أنا في طريقي إلى غرفة المكتب كنت متأكدًا من أن خيوط قضيتي قد اكتملت. من المؤسف أنني أضطر إلى كشف أوراقي وأنا أقص روايتي! فقد كان إخفاء مثل هذه الحلقات المثيرة في سلسلة الأحداث هو ما مكّن واتسون من صياغة نهاياته البراقة.

لم يكن الكولونيل إمزورث في غرفته، لكنه جاء مسرعًا عندما أبلغه رالف بمجيئنا. سمعنا وقع خطواته السريعة الحادة في الممر، ثم انفتح الباب بعنف واندفع الرجل إلى داخل الغرفة بلحيته الشعثاء وملامحه الغاضبة. أحسب أنني لم أرَ قط عجوزًا أفظع منه هيئة. أمسك ببطاقتَيْ التعريف الخاصتين بنا ومزقهما وفرك فتاتهما بقدمه.

– ألم أحذرك أيها المتطفل اللعين من الاقتراب من هذا المنزل؟ لا تتجرأ على أن تريني وجهك اللعين هنا ثانيةً أبدًا. إن دخلت إلى هنا دون إذني مرة أخرى فسوف يكون من حقي أن أستخدم معك العنف. سأطلق النار عليك يا سيدي! أقسم لك إنني سأفعل!

ثم التفت إليَّ وقال:

– أما بالنسبة إليك أيها السيد، فإني أوجه إليك التحذير نفسه. فأنا أعرف مهنتك الوضيعة، وأنصحك بأن تستغل مواهبك المزعومة في مجال آخر. لا مكان لكما هنا.

قال عميلي بحزم:

– لا يمكنني المغادرة من هنا حتى يخبرني جودفري بلسانه أنه لا يخضع لأي قيود.

دق العجوز الجرس على الفور وقال:

– رالف، اتصل بشرطة المقاطعة واطلب من المفتش إرسال اثنين من رجال الشرطة إلى هنا. أخبره بأن ثمة لصين في المنزل.

فقلت:

– لحظة واحدة. عليك أن تدرك يا سيد دود أن الكولونيل إمزورث يمارس أحد حقوقه وأننا ليس لدينا وضع قانوني بوجودنا داخل منزله. ولكن من ناحية أخرى عليه أن يدرك أن تصرفك مدفوع بالكامل بقلقك على ابنه. ويحدوني الأمل في أنه قد يتيح لي الفرصة للحديث معه لمدة خمس دقائق. وأنا واثق من أنني قادر على تغيير نظرته بشأن هذه المسألة.

قال الجندي العجوز:

– نظرتي لا تتغير بمثل هذه السهولة. رالف، افعل ما أمرتك به. ما الذي تنتظره بحق الجحيم؟ اتصل بالشرطة!

فقلت له وقد أوصدت الباب بظهري:

– لن يحدث شيء من هذا. فأي تدخل من الشرطة سيؤدي إلى حدوث الكارثة نفسها التي تخشاها.

ثم أخرجت دفتر ملاحظاتي وكتبت كلمة واحدة على ورقة قطعتها منه، وناولتها للكولونيل إمزورث قائلًا:

– هذا هو ما جاء بنا إلى هنا.

حدّق الرجل إلى الورقة وقد اعترى وجهه الذهول التام. وإذا به يرتمي على مقعده وقال وهو يلهث أنفاسه:

– كيف عرفت بذلك؟

– إن وظيفتي هي معرفة الأمور. هذا هو عملي.

جلس الكولونيل مستغرقًا في تفكير عميق بينما أخذت يده الهزيلة تجذب لحيته الشعثاء، ثم أذعن للاستسلام.

– حسنًا، إن كنت ترغب في رؤية جودفري، فلك هذا. لم أكن أود ذلك، ولكنك أكرهتني. رالف، أبلغ السيد جودفري والسيد كينت أننا سنكون عندهم بعد خمس دقائق.

وبعد خمس دقائق بالضبط كنا قد قطعنا ممر الحديقة لنجد أنفسنا أخيرًا أمام المنزل الغامض. وكان رجلًا ملتحيًا ضئيل الحجم يقف عند الباب وقد اعترى وجهه ذهول شديد. قال:

– هذا تصرف مفاجئ جدًّا أيها الكولونيل. هذا من شأنه أن يفسد كل خططنا.

– ما بيدي حيلة يا سيد كينت. نحن مجبرون. هل يمكننا مقابلة السيد جودفري؟

– نعم، إنه ينتظر في الداخل.

استدار الرجل وقادنا إلى غرفة استقبال كبيرة بسيطة الأثاث. حيث كان ثمة رجل يقف موليًا ظهره لنيران المدفأة، وبمجرد أن رآه عميلي اندفع نحوه باسطًا ذراعيه وقال:

– يا إلهي! جودفري، صديقي العزيز، هذا رائع!

لكن الآخر لوَّح لعميلي بيديه لكي يبتعد قائلًا:

– لا تلمسني يا جيمي. فلتبق بعيدًا. نعم، ستحدق إليَّ بالطبع! فأنا لا أشبه الجندي الأول إمزورث الذي كان يخدم في سرية الخيالة (ب). صحيح؟

كان مظهره غريبًا بالطبع. فقد كان بوسع المرء أن يرى أنه كان بالفعل رجلًا وسيمًا من خلال ملامحه الواضحة التي قد لفحتها شمس إفريقيا وتسببت في اسمراره، ولكن كانت هناك بقع تعلو هذا الجلد الداكن. بقع غريبة ضاربة إلى البياض. بدت بشرته بسببها مبيضة وشاحبة. قال جودفري:

– لهذا السبب أنا لا أرحب بالزوار. لا أمانع وجودك أنت يا جيمي، ولكن كنت أفضل أن تأتي دون صديقك. أظن أن هناك سببًا وجيهًا لحضوره معك، ولكنك وضعتني في موقف ضعف.

– أردت أن أتأكد من أن كل شيء على ما يرام يا جودفري. رأيتك في تلك الليلة عندما نظرت إليَّ عبر نافذتي ولم أستطع أن أدع الأمر يمر مرور الكرام دون أن أستوضح حقيقته.

– أخبرني رالف العجوز بوجودك هنا ولم أستطع منع نفسي من أن ألقي عليك نظرة في خلسة. كنت آمل ألا تراني، واضطررت إلى الركض إلى مخبئي حين سمعت صوت فتح النافذة.

– ولكن أخبرني ما الأمر بحق السماء؟

فقال وهو يشعل سيجارة:

– حسنًا، إنها ليست بالقصة الطويلة. أتذكر صباح ذلك اليوم الذي نشبت فيه المعركة في بافلسبريت، خارج حدود مدينة بريتوريا، على خط السكة الحديدية الشرقي؟ لقد سمعتَ أني أُصِبت في ذلك اليوم، صحيح؟

– نعم، سمعت ذلك، ولكني لم أحصل على أيَّ تفاصيل.

– انفصل ثلاثة منا عن الآخرين. قد تذكر أنه كان بلدًا وعرًا للغاية. كنت أنا وسيمبسون –هذا الرفيق الذي كنا ندعوه بالدي سيمبسون– وأندرسون نطارد أحد رجال البوير، لكنه توارى عن أنظارنا واستطاع أن ينال من ثلاثتنا. قُتل الاثنان الآخران. أما أنا فقد أصبت برصاصة كبيرة في كتفي، ولكني تشبثت بحصاني الذي ظل يعدو بي عدة أميال حتى أغميَ عليّ وتدحرجت ساقطًا من فوق السرج.

ولما أفقت كان الظلام قد خيَّم. استجمعت قواي لأنهض، وأنا في غاية الوهن والإعياء. ولدهشتي، وجدت منزلًا على مقربة مني، منزل كبير نوعًا ما له شرفة واسعة والعديد من النوافذ. كان الجو قارس البرودة. تذكر تلك البرودة التي كانت تفقد المرء الاحساس بأطرافه في المساء، برودة مميتة تجلب المرض، مختلفة تمامًا عن الصقيع المنعش الصحي. حسنًا، كادت عظامي تتجمد من البرودة، وبدا لي أن أملي الوحيد يكمن في الوصول إلى هذا المنزل. فنهضت مترنحًا أجر قدماي خطوة بخطوة، كنت بالكاد أعي ما أفعل. لدي ذكرى ضبابية لصعودي الدرج ببطء ودخولي عبر باب مفتوح على مصراعيه، ودخولي إلى غرفة واسعة تحتوي على عدة أسرّة، وارتمائي على أحد تلك الأسرّة بزفرة رضا. لم يكن الفراش مرتبًا لكن هذا لم يزعجني إطلاقًا. وما كان مني إلا أن سحبت أغطية الفراش على جسدي المرتعش وغصت في نوم عميق على الفور.

وعندما استيقظت في الصباح التالي، وجدت نفسي بدلًا من أن أفيق على عالم من العقلانية، ولكن بدا لي أنني أفقت على كابوس شديد الغرابة. غمرت أشعة الشمس الإفريقية الغرفة من خلال النوافذ الكبيرة العارية وأبرزت كل تفاصيل هذا المهجع الواسع قليل الأثاث ذي الجدران البيضاء بوضوح شديد أمام عيني. ومن ثَم رأيت أمامي رجلًا ضئيل الحجم يشبه الأقزام في هيئته وله رأس ضخم منتفخ يرطن بانفعال بكلمات هولندية، ملوِّحًا بيديه الشنيعتين اللتين بدتا لي كالإسفنج البني، وقد وقف مجموعة من الأشخاص خلفه بدا عليهم الاستمتاع الشديد بالموقف. ولكن بمجرد أن رأيتهم سرت قشعريرة في بدني. لم يكن أي منهم يبدو كإنسان طبيعي. فكان كل واحد منهم إما مُعوَجًّا وإما مُتوَرِّمًا أو مشوّهًا بطريقة غريبة ما. وكانت ضحكات هذه المسوخ الغريبة مخيفة ومرعبة بالنسبة إليَّ.

بدا لي أن لا أحد منهم يتحدث الإنجليزية، لكن الموقف كان في حاجة إلى توضيح، إذ كان المخلوق ذو الرأس الكبير يزداد غضبًا، وراح يطلق صيحات شرسة ومسعورة وأخذ يمسك جسدي بكفيه المشوّهتين محاولًا سحبي بقوة إلى خارج الفراش، غير عابئ بالدم المتدفق من جرحي. وكان هذا الوحش الصغير قويًّا كالثيران، ولا أعلم ما الذي كان من الممكن أن يفعله بي لولا تدخل رجل مسن كان من الواضح أنه ذو سلطة في المكان، وقد هرع إلى الغرفة لما سمعه من ضجيج وجلبة، وقال بضع كلمات هولندية بأسلوب صارم فتراجع القزم منكمشًا، ثم التفت الرجل إليَّ محدقًا في ذهول شديد.

سألني متعجبًا: «كيف وصلت إلى هنا بحق السماء؟ انتظر قليلًا! أرى أنك منهك تمامًا وأن كتفك المصابة تحتاج إلى الاعتناء بها. أنا طبيب؛ وسأضمد جرحك حالًا». ولكن، يا إلهي! إن الخطر الذي يحيط بك هنا أشد بكثير من أي خطر قد واجهته في ميدان المعركة من قبل. أنت في مستشفى الجذام، ونمت في فراش أحد المصابين بالجذام.

هل تحتاج إلى أن أخبرك المزيد يا جيمي؟ يبدو أنه مع اقتراب المعركة، كان قد تم إجلاء كل هذه المخلوقات المسكينة في اليوم السابق. ومن ثَم أعادهم هذا المشرف الطبي إلى المستشفى عندما تقدمت القوات البريطانية. وقد أكد لي هذا الطبيب أنه ما كان ليجرؤ أبدًا على فعل ما فعلته، على الرغم من ثقته بأنه محصن ضد المرض. ووضعني الطبيب في غرفة خاصة وأحسن معاملتي، ثم نُقِلت إلى المستشفى العام في بريتوريا في غضون أسبوع أو نحو ذلك.

ها قد قصصت عليك مأساتي. ظللت متشبثًا بأمل كاذب في النجاة، ولكن ما إن وصلت إلى منزلي حتى ظهرت عليَّ تلك الأعراض الفظيعة التي تراها على وجهي لتخبرني أنني لم أنج. ماذا كان عساي أن أفعل؟ أقمت في هذا المنزل المنعزل ولدينا خادمان نثق بهما تمام الثقة توليا رعايتي. وحيث إنه يوجد منزل يمكنني العيش فيه؛ فقد أبدى السيد كينت، وهو طبيب جراح، استعداده للمكوث معي، وتعهد بإبقاء الأمر سرًّا. بدا الأمر بسيطًا بما يكفي على غرار هذه الترتيبات. فقد بدا البديل الآخر مريعًا، إذ كنت سأُعزل مدى الحياة وسط غرباء دون أمل في إطلاق سراحي أبدًا. ولكن السرية التامة كانت ضرورة لا بد منها، وإلا لكان هذا الريف الهادئ سيشهد احتجاجًا يقودني إلى قدري المروع. حتى أنت يا جيمي، كان لا بد من إخفاء الأمر عنك. لا يمكنني تصور السبب الذي دفع والدي للرضوخ.

أشار الكولونيل إمزورث إليَّ وقال:

– هذا السيد هو مَن أجبرني.

ثم كشف عن قصاصة الورق التي كتب عليها كلمة «الجذام» وتابع قائلًا:

– بدا لي أنه يعلم بالفعل قدرًا كبيرًا عن الأمر، فرأيت أنه من الأكثر أمانًا أن يعرف كل شيء.

فقلت:

– وهو كذلك يا سيدي. مَن يدري، لعل معرفتي بالأمر قد تأتي بالخير؟ مما فهمت أن السيد كينت هو الوحيد من رأى المريض. هل لي أن أسألك يا سيدي إن كنت متخصصًا في هذا النوع من الشكاوى المرضية والتي هي ذات طبيعة استوائية أو شبه استوائية، على حد فهمي؟

فأجاب بشيء من التحفظ والجمود:

– لدي المعرفة العادية كأي طبيب متعلم.

– ليس لدي شك يا سيدي في أنك مؤهل تمامًا، لكنني متأكد من أنك ستوافقني الرأي في أن طلب رأي ثانٍ في مثل هذه الحالات قد يكون ثمينًا. أتفهم أنك قد تجنبت هذا خوفًا من أن تتعرض لضغوط تدفعك إلى عزل المريض.

قال الكولونيل إمزورث:

– هذا الصحيح، إن الأمر كذلك فالفعل.

فأوضحت قائلًا:

– لقد توقعت هذا الموقف وأحضرت معي صديقًا يمكننا الوثوق تمامًا بشأن كتمانه للأمر. فقد أسديت له خدمة مهنية ذات مرة وهو على استعداد لتقديم المشورة كصديق وليس فقط كمتخصص. إنه يدعى السير جيمس سوندرز.

بدا على السيد كينت من العجب والسرور ما لا يقل قدرًا عما كان سيثيره إجراء مقابلة مع اللورد روبرتس[4]. تمتم السيد كينت قائلًا:

– يسرني ذلك بكل تأكيد.

– حسنًا، سأطلب من السير جيمس القدوم إذن. إنه في العربة عند الباب. وفي غضون ذلك، ربما يسعنا الاجتماع في مكتبك يا كولونيل إمزورث، حيث يمكنني تقديم التوضيحات اللازمة.

وهنا أجد نفسي أفتقد صديقي واتسون، فقد كان يتمكن بفضل أسئلته البارعة وتعبيراته المليئة بالدهشة والإعجاب من أن يرفع من قدر حرفتي البسيطة والتي ليست سوى إعمالًا منهجيًّا للحس المنطقي السليم، إلى كونها أعجوبة استثنائية. فحينما أقص روايتي بنفسي لا أحصل على معونة من هذا القبيل. ومع ذلك، سأشرح عملية التفكير التي قادتني إلى التوصل إلى حل القضية، تمامًا كما شرحتها لجمهوري المحدود داخل مكتب الكولونيل إمزورث، والذي كان يضم والدة جودفري أيضًا. تحدثت قائلًا:

– تبدأ تلك العملية من افتراض أنه بعد تنحية كل التصورات المستحيلة، فإن كل ما يتبقى، حتى وإن كان بعيد الاحتمال، ينطوي على الحقيقة بلا شك. غالبًا ما يجد المرء نفسه أمام عدة تفسيرات محتملة، وعندئذٍ يجب أن يجرب اختبارًا تلو اختبار حتى يتبين له أن هناك تفسيرًا أو آخر مدعومًا بقدر مقنع من الشواهد والأدلة. سنطبق هذا المبدأ الآن على قضيتنا الحالية.

حين طُرِحَت عليَّ المسألة لأول مرة، كان أمامي ثلاثة تفسيرات محتملة لانعزال هذا الشاب أو احتجازه في مبنى خارجي في قصر والده. أحد هذه التفسيرات أنه كان مختبئًا لارتكابه جريمة ما، أو أنه مجنون وتود عائلته تجنب إيداعه في مصحة للأمراض العقلية، أو أنه مصاب بمرض ما يستوجب عزله. لم أستطع التفكير في أي تفسيرات مناسبة أخرى. كان عليَّ بعد ذلك أن أغربل تلك الاحتمالات وأن أوازن بينها.

لم يكن هناك ما يبرر التحقيق في الاحتمال الجنائي، إذ لم يتم الإبلاغ عن وقوع أي جريمة غامضة لم يتم التوصل إلى مرتكبيها في تلك المقاطعة. كنت متأكدًا من ذلك. أما إن كانت جريمة لم تُكتشف بعد، فلا بد أنه سيكون من مصلحة العائلة أن تتخلص من المذنب بترحيله إلى خارج البلاد وليس بإخفائه في المنزل. لم أستطع أن أجد مبررًا لمثل هذا التصرف.

بدا احتمال الجنون أكثر معقولية. إذ كان وجود شخص ثانٍ في المبنى المنعزل يرجح أنه حارس. وحقيقة أنه قد أقفل الباب عقب خروجه عززت فكرة أنه كان محبوسًا. ولكن من ناحية أخرى، بدا أن هذا الحبس لم يكن مشددًا، وإلا لما استطاع الشاب أن يتحرر من محبسه ويخرج لاختلاس النظر إلى صديقه. وستتذكر يا سيد دود أنني كنت أتحسس بحثًا على أي علامات أستدل بها، إذ سألتك على سبيل المثال عما كان السيد كينت يقرؤه. فلو كانت «ذا لانست[5]» أو «المجلة الطبية البريطانية» لساعدني ذلك على تدعيم هذه الفرضية. غير أن إبقاء شخص مجنون داخل المنشآت الخاصة لا يعتبر غير قانوني، ما دام أنه بصحبة شخصٍ مؤهل للتعامل معه، وبما أنه تم إخطار السلطات على النحو الواجب. فما السبب إذن وراء هذه الرغبة المستميتة في إبقاء الأمر سرًّا؟ وهكذا عجزت مرة أخرى على جعل الفرضية تتلاءم مع الحقائق والوقائع.

لم يتبقَ سوى الاحتمال الثالث، الذي بدا، على الرغم من كونه احتمالًا نادرًا وبعيدًا، متفقًا مع كل الحقائق والوقائع؛ فالجذام من الأمراض الشائعة في جنوب إفريقيا، ومن الوارد أن يكون قد أُصيب به الشاب في مصادفة استثنائية ما. وهذا من شأنه أن يضع عائلته في موقف رهيب للغاية، فمن المؤكد أنهم سيرغبون في إنقاذ ابنهم من العزل، ولذلك فإن الأمر يستوجب السرية التامة لمنع انتشار الشائعات وما يترتب عليها من تدخل السلطات. ومن السهل العثور على طبيب مخلص ومتفان يقبل أن يكرس نفسه لتولّي مسؤولية المصاب مقابل أجر مادي مُجزٍ. وليس ثمة سبب يمنع المصاب من التجول بحُرية بعد حلول الظلام. كما أن شحوب الجلد وابيضاضه يُعد إحدى النتائج الشائعة لمرض الجذام. كانت الدلائل قوية، قوية لدرجة أنني قررت أن أتصرف وكأنها حقيقة مثبتة بالفعل. وعندما وصلت إلى هنا ولاحظت أن رالف، الذي يحمل الوجبات إلى البناء المنعزل، كان يرتدي قفازين مُشْرَبين بالمطهرات، أُزيلت أي شكوك لدي حول حقيقة الأمر. وقد تمكنت كلمة واحدة يا سيدي أن توضح لك أن سرك قد انكشف، وقد أخبرتك بها كتابة لا لفظًا، لكي أثبت لك أن بإمكانك الوثوق بي وأنني لن أفضح سرَّك.

كنت على وشك الانتهاء من هذا التحليل القصير للقضية حين فُتح الباب ودخل طبيب الأمراض الجلدية العظيم صاحب الهيئة الوقورة والملامح الصارمة. ولكن بدا لي أن ملامحه الحادة الصارمة قد تراخت على غير العادة، وبدت نظرات عينيه تفيض بالمشاعر الإنسانية الدافئة. أقبل نحو الكولونيل إزمورث مسرعًا وصافح يده قائلًا:

– إنه جزء لا يتجزأ من مهنتي أن أنقل الأنباء إلى أهل المصاب، وغالبًا ما تكون أنباء مؤلمة، أما الأخبار السارة فتكون فيما ندر. ولكن هذا الخبر هو الأجمل على الإطلاق. إنه ليس جذامًا.

– ماذا؟

– إنها حالة واضحة من الجذام الكاذب أو السُّماك، وهو مرض تتراكم فيه خلايا الجلد الميتة في قشور سميكة وجافة على سطح الجلد. إنه بشع المنظر، وعلاجه صعب لكنه ليس مستحيلًا. وهو غير معدٍ بكل تأكيد. أجل يا سيد هولمز، إنها تبدو مصادفة استثنائية. ولكن أهي بالفعل مصادفة؟ أليست هناك قوى خفية جبارة لا نعلم عنها إلا القليل؟ هل نحن على يقين من أن الهلع الذي لا شك في أن هذا الشاب قد عانى منه معاناة رهيبة منذ تعرضه لمسببات عدوى المرض لم ينتج عنه تأثير جسدي يحاكي المرض الذي يخشاه؟ على أي حال، إنني أتعهد بسمعتي المهنية.. ولكن السيدة أغمي عليها! أعتقد أنه من الأفضل أن يظل السيد كينت بجانبها حتى تتعافى من أثر هذه الصدمة السعيدة.

صليب فيكتوريا: هو أرفع وسام عسكري بريطاني، ويمنح لأفراد القوات المسلحة الذين يظهرون شجاعتهم في مواجهة قوات العدو.

اللورد فريدريك روبرتس هو أحد قادة الجيش البريطاني ويعتبر واحدًا من أكثر القادة نجاحًا في القرن التاسع عشر، وهو مَن قاد الجيش البريطاني للانتصار في حرب البوير الثانية.

مجلة ذا لانست (The Lancet) الدورية هي مجلة طبية عامة أسبوعية مراجعة، وتعد من أقدم المجلات الدورية الطبية وأشهرها في العالم وأكثرهم تميزًا.

قضية جوهرة مازارين

كان من دواعي سرور الدكتور واتسون أن يجد نفسه مرة أخرى في حجرة الطابق الأول غير المُرتبة في شارع بيكر، التي كانت نقطة الانطلاق للعديد من المغامرات الرائعة. نظر حوله إلى تلك الرسوم البيانية العلمية المعلقة على الحائط، وإلى منضدة المواد الكيميائية ذات السطح المتفحم بفعل الأحماض، وحقيبة الكمان المائلة على الحائط في الزاوية، وسطل الفحم الذي يحتوي على الغلايين القديمة والتبغ. وأخيرًا، وقعت عيناه على الوجه النضر المبتسم لبيلي الخادم الشاب ذاك اللبق شديد الذكاء رغم صغر سنه، الذي ساعد قليلًا في مَلءِ فجوة الوحدة والعزلة اللتين أحاطتا بشخصية المحقق العظيم متقلب المزاج.

– كل شيء يبدو كما هو تمامًا يا بيلي. أنت أيضًا لم تتغير، آمل أن يكون هو أيضًا كذلك؟

نظر بيلي بشيء من القلق تجاه باب غرفة النوم المغلق، وقال:

– أعتقد أنه نائم في سريره.

كانت الساعة السابعة من مساء يوم صيفي جميل، وقد اعتاد الدكتور واتسون بما فيه الكفاية على عدم انتظام مواقيت صديقه القديم، فلم يكن مندهشًا من نومه.

– على ما أعتقد إن هذا يعني أنه يعمل على قضية ما، صحيح؟

– أجل يا سيدي، إنه يبذل جهدًا كبيرًا في العمل عليها، إنني قلق على صحته، فهو يزداد نحافة وشحوبًا، ولا يقرب الطعام، وحين تسأله السيدة هدسون قائلة: «متى تود أن تتناول العشاء يا سيد هولمز؟». يرد قائلًا: «في السابعة والنصف من بعد الغد». من المؤكد أنك تعرف طريقته عندما يكون مهتمًا بقضية.

– نعم يا بيلي، أعرف.

– إنه يتتبع شخص ما. لقد خرج بالأمس متنكرًا في هيئة عامل يبحث عن عمل. واليوم كان متنكرًا في هيئة سيدة عجوز. لقد أذهلني بشكل كبير، لقد فعل ذلك حقًّا، يتعين عليَّ أن أعرف طرقه من الآن فصاعدًا.

ثم أشار بيلي إلى مظلة كبيرة كانت مستندة إلى الأريكة وعلى وجهه ابتسامة عريضة وقال:

– هذا جزء من أغراض السيدة العجوز.

– ولكن ماذا وراء كل هذا يا بيلي؟

خفض بيلي صوته كما لو كان يناقش أسرارًا عُظمى تخص الدولة وقال:

– لا مانع لدي في أن أخبرك بالأمر يا سيدي، لكنه يجب أن يظل سرًّا، إنها تلك القضية التي تتعلق بجوهرة التاج.

– ماذا! أتقصد قضية السطو على الجوهرة التي تبلغ قيمتها مائة ألف جنيه؟

– نعم يا سيدي. ويجب عليهم استعادتها. ولهذا السبب أتى إلى هنا رئيس الوزراء ووزير الداخلية، كانا يجلسان على تلك الأريكة بالتحديد. كان السيد هولمز في غاية اللطف معهما وطمأنهما بأنه سيفعل كل ما بوسعه. ولكن اللورد كانتلمير...

– آه!

– نعم يا سيدي، أنت تعرف ما الذي يعنيه ذلك. إنه يا سيدي شخص متكبر وجاف، إن جاز لي القول. بإمكاني أن أكون على وفاق مع رئيس الوزراء، وليس لدي أي مشكلة ضد وزير الداخلية الذي بدا رجلًا مهذبًا وطيب الخلق، ولكنني لا أطيق سيادة اللورد. والسيد هولمز لا يطيقه أيضًا يا سيدي. فهو غير مقتنع بالسيد هولمز وكان ضد الاستعانة به. إنه يتمنى أن يفشل في مسعاه.

– وهل السيد هولمز يعرف هذا؟

– السيد هولمز يعرف دائمًا كل ما يمكن معرفته.

– حسنًا، نأمل ألا يفشل، وأن يُحرج اللورد كانتلمير بنجاحه. لكن اسمع يا بيلي، ما الغرض من تلك الستارة التي تغطي النافذة؟

– وضعها السيد هولمز منذ ثلاثة أيام، وقد وضعنا شيئًا مُضحكًا وراءها.

تقدم بيلي وسحب الستارة التي تحجب محراب النافذة المقوسة. لم يستطع الدكتور واتسون أن يكتم صيحة الاندهاش، فقد رأى تمثالًا نسخة طبق الأصل من صديقه القديم، يرتدي ملابس البيت، وملتفتًا بثلاثة أرباع وجهه نحو النافذة ينظر إلى أسفل كما لو كان يقرأ كتابًا غير مرئي، بينما كان جسده غارقًا في الكرسي ذي الذراعين. فَصَل بيلي الرأس ورفعه في الهواء.

– يمكننا أن نغير زاويته حتى يبدو أكثر واقعية. لم أكن لأجرؤ على لمسه لو لم تكن تلك الستارة منسدلة، ولكن عندما تكون مرفوعة يستطيع مَن في الجانب الآخر من الطريق أن يراه.

– لقد استخدمنا شيئًا كهذا من قبل.

– قبل مجيئي!

سحب بيلي ستارتي النافذة ونظر إلى الشارع وقال:

– ثمة أشخاص يراقبوننا من هناك. يمكنني رؤية أحدهم الآن من النافذة. ألقِ نظرة بنفسك.

تقدم واتسون خطوة للأمام عندما فُتِحَ باب غرفة النوم، وظهر منه هولمز ببنيته الفارعة النحيلة، ووجهه الشاحب المتعب، غير أن خطواته ومشيته كانتا نشيطتين كعادته، وبوثبة واحدة كان أمام النافذة، سحب الستارة مرة أخرى وقال:

– كفى يا بيلي، أنت تعرض حياتك للخطر يا بني، وأنا لا يمكنني الاستغناء عنك الآن. حسنًا يا واتسون، تسرني رؤيتك في مسكنك القديم مرة أخرى. لقد جئت في لحظة حرجة.

– استنتجت هذا.

– يمكنك الذهاب يا بيلي. ذلك الفتى يمثل لي مشكلة يا واتسون. أيحق لي أن أعرّضه للخطر بوجوده بجانبي؟

– أي خطر يا هولمز؟

– الموت المفاجئ، إنني أتوقع حدوث شيءٍ ما، هذا المساء.

– ماذا تتوقع؟

– أن أُقتَل يا واتسون.

– لا، لا، أنت تمزح يا هولمز!

– حتى حس دعابتي المحدود يمكنه أن يخلق مزحة أفضل من تلك. ولكن يمكننا أن نسترخي حتى ذلك الحين، أليس كذلك؟ هل يمكننا أن نتناول الكحول؟ جهاز تحضير الصودا والسيجار موجودين في مكانهما القديم. دعني أراك مرة أخرى جالسًا في الكرسي المعتاد. إنك لم تتعلم، كما آمل، أن تحتقر تبغي وغليوني المؤسف، صحيح؟ فلا بد من وجوده في هذه الأيام.

– لكن لماذا لا تأكل؟

– لأن القوة العقلية تزداد حينما يجوع الجسد. عجبًا! بالطبع وبصفتك طبيبًا يا عزيزي يجب أن تعترف أن ما تجنيه عملية الهضم من إمدادات الدم هو بمنزلة خسارة للمخ إلى حد كبير. إنني عبارة عن مخ يا واتسون، وباقي جسدي ما هو إلا شيء زائد ملحق به. لذا فالمخ هو ما يجب أن أهتم به.

– ولكن ماذا عن هذا الخطر يا هولمز؟

– آه، نعم، في حالة حدوث ذلك، قد يكون من الأفضل أن ترهق ذاكرتك باسم القاتل وعنوانه، يمكنك إعطاؤهما لمركز شرطة سكوتلاند يارد، مع حبي ووداع أخير. «سيلفيوس» هو اسمه، الكونت نيجريتو سيلفيوس. دوّنه يا رجل، دوّنه! 136 مورسايد جاردنز، شمال غرب لندن. مفهوم؟

بدأ وجه واتسون البريء يصفعه القلق، فقد كان يعرف جيدًا حجم المخاطر الهائلة التي يخوضها هولمز، وأدرك تمامًا أن ما قاله هو على الأرجح تهوين وليس مبالغة. دائمًا ما كان واتسون رجلًا ذا همّة، وقد كان على قدر الحدث.

– اعتمد عليَّ يا هولمز. فأنا متفرغ ليوم أو يومين.

– إن أخلاقك لا تنصلح يا واتسون، فقد أضفتَ الكذب إلى رذائلك الأخرى. إنك تحمل كل علامات الطبيب المشغول، الذي يتلقى استدعاءات كل ساعة.

– إنها ليست في مثل هذه الأهمية. ولكن ألا يمكنك القبض على هذا الرجل؟

– بلى يا واتسون، يمكنني فعل ذلك. وهذا ما يقلقه للغاية.

– ولماذا لا تفعل إذًا؟

– لأنني لا أعرف مكان الجوهرة بعد.

– آه! لقد أخبرني بيلي بهذا الأمر، جوهرة التاج المفقودة!

– نعم، جوهرة مازارين الصفراء الكبيرة، لقد ألقيت شبكتي ولدي أسماكي، ولكنني لم أحصل على الجوهرة. فما فائدة الإمساك بهم؟ يمكننا أن نجعل العالم مكانًا أفضل بأن نأتي بهم مُكبّلِين بالأصفاد، ولكن ليس معي ما أسعى للحصول عليه. فالجوهرة هي ما أريد.

– وهل هذا المدعو الكونت سيلفيوس إحدى أسماكك؟

– نعم، وليس مجرد سمكة؛ إنه قرش فتّاك. أما الآخر فهو الملاكم سام ميرتون. وهو ليس رجلًا سيئًا، ولكن الكونت استغله. سام ليس سمكة قرش، إنه سمكة كبيرة بلهاء وعنيدة، إلا أنه يتخبط في شبكتي على أي حال.

– وأين هو الكونت سيلفيوس؟

– كنت على مقربة منه طوال الصباح. لقد رأيتني متنكرًا في هيئة سيدة عجوز من قبل يا واتسون. لكنني لم أكن قط مقنعًا أكثر من هذه المرة. في الواقع لقد حملَ المظلة من أجلي مرة، وقال: «بعد إذنك يا سيدتي». فهو نصف إيطالي له أسلوب أهل الجنوب المتسم بالكياسة عندما يكون في مزاج جيد. ولكنه يتحول إلى شيطان متجسد عندما يتعكر مزاجه. إن الحياة مليئة بالمجريات غريبة الأطوار يا واتسون.

– وربما كانت مأساة.

– حسنًا، ربما كانت كذلك. لقد تعقّبته حتى وصل إلى ورشة العجوز ستروبينزي في شارع مينوريز. والأمر حسبما أفهم أن ستروبينزي قد صنع له بندقية هوائية، ويا لها من قطعة رائعة متقنة الصنع! إنني أتخيل أنها في النافذة المقابلة في اللحظة الراهنة. هل رأيت التمثال؟ من المؤكد أن بيلي قد أراك إياه. حسنًا، من الممكن أن يصاب برصاصة في رأسه الجميل في أي لحظة. آه، بيلي ما هذا؟

عاد الصبي إلى الغرفة مرة أخرى يحمل صينية عليها بطاقة، فألقى هولمز عليها نظرة سريعة رافعًا حاجبيه وعلى وجهه ابتسامة مرحة.

– إنه الرجل نفسه. لم أكن أتوقع هذا. تماسك يا واتسون! من المحتمل أن يكون قد بلغك صيته كصائد للطرائد الكبيرة. وستكون بالفعل نهاية مظفرة لسجله الرياضي المتميز لو أضافني إلى جعبته. هذا دليل على أنه يشعر بأنني أتعقبه.

– استدعِ الشرطة.

– ربما سأفعل ذلك، ولكن لم يحن الوقت بعد. هل يمكنك إلقاء نظرة خاطفة من النافذة يا واتسون؟ ولكن كن حذرًا، وانظر ما إذا كان هناك شخص يتسكع في الشارع!

نظر واتسون بحذر من خلف طرف الستارة، ثم قال:

– نعم، هناك شخص فظ المظهر بالقرب من الباب.

– هذا هو السيد سام ميرتون، هو مخلص ولكنه أحمق. أين هذا السيد يا بيلي؟

– في غرفة الانتظار يا سيدي.

– رافقه لأعلى حين أدقُّ الجرس.

– حاضر يا سيدي.

– وإن لم أكن في الغرفة، أدخِله على أي حال.

– حسنًا يا سيدي.

انتظرَ واتسون حتى أُغلق الباب، ثم التفت إلى رفيقه بجدية وقال:

– انظر هنا يا هولمز، هذا مستحيل تمامًا، إنه رجل يائس ومتهور، وهو على استعداد لأن يفعل أي شيء من أجل تحقيق غايته. ربما قد جاء ليقتلك.

– لن يفاجئني ذلك.

– إنني مُصر على البقاء معك.

– ستُمثِّل عائقًا كبيرًا في الطريق.

– في طريقه؟

– لا يا صديقي العزيز، في طريقي أنا.

– حسنًا، لا يمكنني أن أتركك على أي حال.

– بل يمكنك يا واتسون. وستفعل ذلك لأنك لم تفشل قط في التصرُّف بحكمة، وأنا متأكد من أنك ستفعل ذلك حتى النهاية. لقد جاء هذا الرجل من أجل هدفه الخاص، لكنه قد يبقى من أجل هدفي أنا.

أخرج هولمز دفتر ملاحظاته وكتب بضعة أسطر، ثم قال:

– استقِل عربة إلى مركز شرطة سكوتلاند يارد وأعطِ هذه الورقة ليول في قسم المباحث الجنائية. وعُد مع الشرطة، ومِن ثم سيُقبَض على هذا الرجل.

– سأفعل ذلك بكل سرور.

– وقبل عودتك قد يكون لديَّ ما يكفي من الوقت لمعرفة مكان الجوهرة.

دقَّ الجرس وتابع قائلًا:

– أظن أننا سنخرج عبر غرفة النوم. إن هذا المخرج الثاني مفيد للغاية. أفضِّل أن أرى القرش الخاص بي قبل أن يراني، وكما تذكر، لدي طريقتي الخاصة للقيام بهذا الأمر.

ومن أجل هذا الغرض، أدخلَ بيلي بعد دقيقة إلى هذه الغرفة الخالية الكونت سيلفيوس. كان هذا الصياد والرياضي ورجل المجتمع الشهير رجلًا ضخمًا داكن البشرة له شارب مهيب فوق فمٍ قاسٍ رفيع الشفتين، ويعلوه أنف طويل معقوف مثل منقار النسر. يرتدي ملابس أنيقة، إلا أن ربطة عنقه والدبوس اللامع، والخواتم المتلألئة قد أعطته مظهرًا مبهرجًا. عندما أُغلق الباب خلفه أخذ ينظر حوله بنظرات حادة وشرسة، كمَن يشتبه بوجود فخ في كل خطوة. ثم انتفض انتفاضة عنيفة حينما رأى الرأس المتحجر وياقة الرداء المنزلي البارزين فوق الكرسي ذي الذراعين عند النافذة. في البداية كانت تعابير وجهه مليئة بالدهشة التامة، ومِن ثَم لمع بصيص أمل مروع في عينيه الداكنتين الإجراميتين. ألقى نظرة خاطفة حوله مرة أخرى ليتأكد من عدم وجود شهود، ثم تقدم على أطراف قدميه من هذا الجسد الساكن، ولما وصل إليه رفع عصاه السميكة لأعلى، وبينما كان يستعد ليضربه ويهرب أخيرًا، بادره صوت هادئ متهكم عند باب غرفة النوم المفتوح قائلًا:

– لا تكسره، أيها الكونت، لا تكسره.

فتراجع القاتل إلى الخلف والدهشةُ تعتري وجهه المضطرب. وللحظة رفع عصاه الثقيلة بعض الشيء مرة أخرى، وكأنه سيحول ضربته العنيفة من التمثال إلى الأصل، لكنّ ثمّة شيئًا ما في تلك العينين الرماديتين الثابتتين والابتسامة الساخرة جعل يده تسقط إلى جانبه. قال هولمز بينما يتقدم نحو التمثال:

– إنه شيء بسيط مُتقَن الصنع. أعدّه تافيرنييه صانع التماثيل الفرنسي. إنه بارع في صنع التماثيل الشمعية مثل براعة صديقك ستروبينزي في صناعة البنادق الهوائية.

– أي بنادق هوائية يا سيدي! ماذا تقصد؟

– ضع قبعتك وعصاك على الطاولة الجانبية. أشكرك! تفضل بالجلوس. هل تمانع في إخراج مسدسك أيضًا؟ آه، لا بأس إن كنت تفضل الجلوس عليه. لقد جاءت زيارتك في وقتها حقًّا، فقد كنت أود الحديث معك لبضع دقائق على نحو مُلِح.

عبس وجه الكونت بحاجبيه الثقيلين المتوعدين، وقال:

– أنا أيضًا أردت أن أتحدث معك يا هولمز. ولهذا السبب أنا هنا، ولا أنكر أنني كنت أنوي الاعتداء عليك للتو.

رفع هولمز قدميه على حافة الطاولة وبدأ يؤرجحهما وقال:

– لقد توقعت أن تكون في رأسك أفكارٌ من هذا النوع، ولكن لما هذا الاهتمام الشخصي؟

– لأنك بذلت قصارى جهدك لتزعجني، ولأنك جعلت تابعيك يقتفون أثري.

– تابعيَّ! أؤكد لك بأنني لم أفعل.

– هذا هراء! لقد قمتُ بتتبعهم. يمكنني أن أفعل الشيء نفسه يا هولمز.

– لا، إنها ليست بنقطة مُهمة يا كونت سيلفيوس، ولكن ربما من الأفضل أن تُلحق لقبًا باسمي عندما تخاطبني. فإنك تتفهم نمط عملي بالطبع، يمكنني أن أجد نفسي في أُلفة مع نصف المجرمين. وإنك ستوافقني الرأي أن الاستثناءات غير عادلة.

– حسنًا يا سيد هولمز، إذن.

– ممتاز! لكنني أؤكد لك بأنك مُخطئ بشأن تابعيَّ المزعومين.

ضحك الكونت سيلفيوس مستهزئًا وقال:

– يمكن لأناس آخرين أن يلاحظوا الأشياء مثلما تفعل. كان هناك رجل رياضي مسن، واليوم كانت هناك سيدة عجوز، وظلا يراقبانني طوال اليوم.

– إنك تطريني حقًّا يا سيدي، قال البارون العجوز داوسون في الليلة التي سبقت إعدامه شنقًا إن المكسب القانوني لي هو خسارة كبيرة لخشبة المسرح. وها أنت ذا الآن تثني ثناءً لطيفًا على تقمُّصي المتواضع للشخصيات!

– أكان ذلك أنت؟ بنفسك؟

هز هولمز كتفيه وقال:

– يمكنك أن ترى في هذه الزاوية المِظلّة التي ناولتها لي بأدب شديد في شارع مينوريز قبل أن تبدأ في الشك.

– لو كنت أعرف أنه أنت، لما كنت س...

– لما كنت سأرى هذا المنزل المتواضع مرة أخرى. أعلم هذا جيدًا. كل منا لديه فرص ضائعة يتحسر عليها. إنك لم تكن تعلم على أية حال، وها نحن هنا الآن.

عقدَ الكونت حاجبَيه أكثر فوق عينيه المتوعدتين وقال:

– إن ما تقوله يزيد الأمر سوءًا. فهم لم يكونوا أناسًا تابعين لك، بل كنت أنت بنفسك أيها الممثل الفضولي! أنت تعترف بأنك كنت تتبعني، فلماذا؟

– بربك أيها الكونت! لقد كنت تصطاد الأسود في الجزائر.

– حسنًا! وماذا في ذلك؟

– لماذا كنت تفعل ذلك؟

– لماذا؟ تسلية.. إثارة.. مخاطرة!

– ولأجل تخليص البلد من إحدى الآفات بلا شك؟

– بالضبط!

– وتلك هي أسبابي باختصار!

هبَّ الكونت واقفًا على قدميه. وعادت يده لا إراديًّا إلى جيب بنطاله.

– اجلس يا سيدي، اجلس! لا يزال هناك سبب آخر، وهو سبب عملي أكثر. أريد تلك الماسة الصفراء!

تراجع الكونت سيلفيوس في كرسيه وعلى وجهه ابتسامة شريرة وقال:

– يا للعجب!

– تعرف أنني كنت أتتبعك لهذا السبب. وإن السبب الحقيقي لوجودك الليلة هنا، هو معرفة مدى علمي بالمسألة، وإلى أي مدى يعتبر التخلص مني أمرًا ضروريًّا. حسنًا، عليَّ أن أقول ذلك، من وجهة نظرك؛ إنه أمر ضروري تمامًا، لأنني أعرف كل ما يتعلق بهذه المسألة، ما عدا شيئًا واحدًا فقط، أنت على وشك أن تخبرني به الآن.

– آه، حقًّا! أخبرني رجاءً، ما هذه المعلومة التي تنقصك؟

– أين توجد ماسة التاج الآن؟

نظر الكونت إلى جليسه نظرات حادة وقال:

– حسنًا، أهذا ما تود معرفته إذن؟ وكيف لي أن أخبرك بمكانها؟

– تستطيع أن تخبرني، وسوف تفعل ذلك.

– حقًّا؟!

حدق إليه هولمز وعيناه تضيقان وتلمعان حتى أصبحتا كنقطتين متوعدتين من الفولاذ وقال:

– لا يمكنك خداعي يا كونت سيلفيوس. إنك مجرد لوح من الزجاج ويمكنني أن أرى كل ما يدور في عقلك.

– إذن، فإنك ترى مكان الألماسة!

صفق هولمز بيديه في مرح، ثم أشار بإصبعه ساخرًا وقال:

– إذن أنت بالفعل تعرف مكانها. لقد اعترفت بهذا للتو!

– لا أعترف بأي شيء.

– والآن أيها الكونت، لو تحليت بالحكمة يمكننا أن نعقد صفقة. وإن لم تفعل، فسوف تتأذى.

راح الكونت ينظر بعينيه إلى السقف وهو يقول:

– وأنت مَن كنت تتحدث عن الخداع!

نظر هولمز إليه بتمعن وتفكر مثل لاعب الشطرنج البارع الذي يدرس حركته الحاسمة، ثم فتح درج الطاولة بسرعة وأخرج منه دفتر ملاحظات صغير.

– هل تعرف ما أحتفظ به في داخل هذا الدفتر؟

– لا يا سيدي، لا أعرف!

– أنت!

– أنا!

– نعم يا سيدي، أنت! كل ما يتعلق بك مدون هنا، كل ما فعلته في حياتك الفاسدة المليئة بالمخاطر.

فصاح الكونت وعيناه تشتعلان غضبًا وقال:

– تبًّا لك يا هولمز! هناك حدود لصبري!

– كل شيء مدوّن هنا أيها الكونت. الوقائع الحقيقية المتعلقة بموت السيدة هارولد العجوز، التي تركت لك عقار بلايمر والذي خسرته كله بالمقامرة.

– إنك تحلم!

– وتاريخ حياة الآنسة ميني واريندر كاملًا.

– اصمت، فإنك لن تجني شيئًا من ذلك!

– ما زال لدي الكثير هنا أيها الكونت. ها هنا السرقة التي وقعت في القطار الفاخر المتجه إلى الريفييرا في الثالث عشر من فبراير، عام 1892. وها هنا أيضًا شيك بنك كريدي ليوني المزور في العام نفسه.

– لا، أنت مخطئ في ذلك الأمر.

– إذن، فأنا محق في البقية! والآن أيها الكونت، إنك تجيد لعب الورق، فمن البديهي أنك تعلم أنه حينما يكون لدى منافسك كل الأوراق الرابحة، فإنك توفر الوقت عندما تُسقِط أوراقك.

– ما علاقة كلامك هذا بالجوهرة التي تحدثت عنها؟

– على مهلك أيها الكونت. اكبح جماح عقلك المُتلهف! اسمح لي أن أصل إلى تلك النقطة بأسلوبي الممل. إنني أملك كل هذه المعلومات ضدك، ولكن قبل كل شيء، فأنا لدي قضية واضحة ضدك أنت وتابعك المقاتل المتنمر، فيما يتعلق بأمر جوهرة التاج.

– حقًّا!

– عندي سائق العربة الذي أوصلك إلى وايتهول، والسائق الذي أعادك منه. ولدي الحاجب الذي رآك بالقرب من مكان الواقعة. بالإضافة إلى إيكيساندروز الذي رفض تقطيعها لك. لقد وشى إيكي بك وانتهت اللعبة.

برزت العروق في جبين الكونت. وتشنّجت يداه الداكنتان المشعرتان من محاولة كبت انفعاله. حاول أن يتكلم، ولكن الكلمات لم تسعفه. قال هولمز:

– هذه كل أوراقي التي ألعب بها، أضعها كلها على الطاولة. ولكن ثمة ورقة واحدة ناقصة، ورقة ملك الألماس، فأنا لا أعرف مكان وجود الجوهرة.

– ولن تعرف أبدًا.

– صحيح؟ تحلَّ بالحكمة أيها الكونت. أمعِن التفكير في الموقف. سوف تُسجَن لمدة عشرين عامًا، وكذلك سام ميرتون. فما الفائدة التي ستنالها من تلك الماسة؟ لا شيء على الإطلاق. ولكن إن سلمتها فسوف أتغاضى عن الجناية. نحن لا نريدك أنت ولا سام، وإنما نريد الجوهرة. سلمها، وفيما يتعلق بي، سأطلق سراحك ما دمت ستحسن التصرف في المستقبل. ولكن إذا ارتكبت أي خطأ آخر فعندئذ سيكون الأخير. لكن الآن مهمتي هي الحصول على الجوهرة وليس القبض عليك.

– وإذا رفضت؟

– واحسرتاه! سأضطر إذن إلى تسليمك أنت، وليس الجوهرة.

كان بيلي قد جاء إلى الغرفة استجابة للجرس.

– أعتقد أيها الكونت، أن صديقك سام كان يجب أن يحضر هذا النقاش. فلا بد لمصالحه أن يمثُل هنا على الرغم من كل شيء. بيلي، سترى سيدًا ضخمًا وقبيحًا يقف أمام الباب، اطلُبْ منه الصعود.

– ماذا لو رفض يا سيدي؟

– لا تستخدم العنف معه يا بيلي، ولا تعامله بقسوة. إن أخبرته بأن الكونت سيلفيوس يريده فسوف يأتي بالتأكيد.

وبينما ينصرف بيلي سأل الكونت قائلًا:

– ماذا ستفعل الآن؟

– كان صديقي واتسون معي قبل قليل، وقد قلت له بأن لدي سمكة قرش وسمكة أخرى صغيرة في شبكتي، وهأنذا الآن أسحب الشبكة ليظهرا معًا.

نهض الكونت من كرسيه ويده خلف ظهره. فأمسك هولمز بشيء ما كان بارزًا من جيب ثوبه.

– لن تموت بسلام في فراشك يا هولمز.

– كثيرًا ما كانت تراودني الفكرة نفسها. ولكن هل يهم هذا كثيرًا؟ على أي حال أيها الكونت، على الأرجح أنك ستخرج من هنا على قدميك وليس مستلقيًا على ظهرك. أما هذه التنبؤات حول المستقبل فإنها مروعة، لِمَ لا ندع أنفسنا نستسلم للاستمتاع بالوقت الحاضر بلا قيود؟

وفجأة انبثق في الظلام بريق قوي من عيني المجرم المحترف، فبدتا وكأنهما عينان لحيوان متوحش. وبدا هولمز في نظره وكأنه يزداد طولًا كلما ازداد توتره وتأهبه. قال هولمز بصوت هادئ:

– لا فائدة من تحسس مسدسك يا صديقي، فإنك تعلم جيدًا أنك لا تجرؤ على استخدامه، حتى لو أعطيتك الوقت لتخرجه. إن المسدسات ما هي إلا أشياء كريهة وصاخبة أيها الكونت! من الأفضل أن

تلجأ للبنادق الهوائية. صحيح! أظن أنني سمعت وقع أقدام شريكك المحترم. طاب يومك يا سيد ميرتون. إن الشارع يبدو مملًا نوعًا ما، أليس كذلك؟

ظهر الملاكم صاحب الجوائز العديدة، والذي كان شابًّا ضخم البنية له وجه غبي وعنيد مسطح الجانبين، يقف عند الباب مرتبكًا، ينظر حوله والحيرة تعتري وجهه. فقد كان أسلوب هولمز الدمث جديد عليه، وعلى الرغم من أنه أحسّ أن هذا الأسلوب ينطوي على عدائية بشكل غامض، إلا أنه لم يكن يعرف كيف يجابهه. فالتفت إلى رفيقه الأكثر فطنة لكي يساعده، وقال بصوت أجش منخفض:

– والآن، ما الذي يجري هنا أيها الكونت؟ ما الذي يريده هذا الرجل؟ ماذا يحدث؟

هز الكونت كتفيه، وكان هولمز هو من أجاب قائلًا:

– إن جاز لي أن أختصر الأمر يا سيد ميرتون، فيجب أن أقول إن كل شيء قد انتهى.

كان الملاكم لا يزال يوجه كلامه إلى شريكه قائلًا:

– أيحاول هذا الرجل أن يكون مضحكًا أم ماذا؟ إنني لست في مزاج جيد للمزاح.

قال هولمز:

– لا، لا أتوقع ذلك. أعتقد أنني أستطيع أن أعدك بأن شعورك بالمرح سيتناقص مع حلول المساء. والآن، اسمعني يا كونت سيلفيوس، فأنا رجل مشغول ولا أستطيع أن أهدر الوقت. سأدخل إلى غرفة النوم تلك. أرجو أن تعتبرا نفسيكما في بيتكما تمامًا في أثناء غيابي. يمكنك أن تشرح لصديقك الأمر دون أن تتقيدا بوجودي. سأجرب عزف مقطوعة الباركارول[6] من أوبرا حكايات هوفمان على كماني، وسأعود بعد خمس دقائق لأسمع ردكما النهائي. إنك تفهم البديل جيدًا، أليس كذلك؟ إما أن نقبض عليكما أو نحصل على الجوهرة!

انسحب هولمز والتقط كمانه من الزاوية في أثناء خروجه. وبعد لحظات قليلة، بدأت النغمات الخافتة لهذا اللحن الآسر تئن عبر باب غرفة النوم المغلق. سأل ميرتون بقلق حين التفت إليه رفيقه:

– ما الأمر إذن؟ أيعرف أمر الجوهرة؟

– إنه يعرف الكثير حول الأمر، في الواقع أنا لست واثقًا من أنه لا يعرف كل شيء عنه.

شحب وجه الملاكم وصاح قائلًا:

– يا إلهي!

– لقد وشى بنا إيكي ساندرز.

– أفعل ذلك حقًّا؟ سأبرحه ضربًا من أجل فعلته هذه، حتى لو أدى الأمر إلى شنقي.

– هذا لن يفيدنا كثيرًا. علينا أن نتخذ قرارًا بشأن ما سنفعله.

قال الملاكم وهو ينظر إلى باب غرفة النوم بارتياب:

– تمهّل لحظة، إنه رجل داهية مخادع، من المؤكد أنه يريد مراقبتنا. هل أفترض أنه لا يسمعنا الآن؟

– كيف يمكنه سماعنا وتلك الموسيقى تُعزف؟

– معك حق. ولكن ربما كان هناك شخص يقف خلف إحدى الستائر. يوجد العديد من الستائر في هذه الغرفة.

وبينما كان ينظر حوله رأى فجأة التمثال الموجود عند النافذة لأول مرة، فوقف يحدق إليه ويشير له، ولم يقدر على النطق بأي كلمة لفرط اندهاشه. قال الكونت:

– إنه مجرد تمثال.

– أي أنه ليس حقيقيًّا! فعلًا؟ لا أصدق! حتى مدام توسو لا تستطيع أن تصنع واحدًا مثله. إنه يبدو كنسخة حية منه، بثوبه وكل متعلقاته. لكن تلك الستائر أيها الكونت!

– دعك من هذه الستائر! نحن نهدر الوقت. يمكنه أن يلقي القبض علينا بسبب هذا الحجر.

– يا إلهي!

– لكنه سيدعنا نذهب لو أخبرناه بمكان الجوهرة المسروقة.

– ماذا! نسلمها؟ نسلم مائة ألف جنيه؟

– ليس أمامنا خيار ثالث.

حك ميرتون رأسه قصير الشعر، ثم قال:

– إنه وحده في الداخل، دعنا نقضي عليه، فليس لدينا ما نخشاه.

هز الكونت رأسه.

– إنه مُسلح ومُتأهّب. لو أطلقنا النار عليه فلن نتمكن من الهروب في مكان كهذا. وعلاوة على ذلك، أن من المُرجّح أن تكون الشرطة على علم بكل ما معه من أدلة. مهلًا! ما هذا؟

سمِعَا صوتًا غريبًا بدا أنه يأتي من النافذة. هبّ الرجلان يتفقدان المكان، ولكن الهدوء كان يعم المكان. وباستثناء ذلك التمثال الغريب الجالس على الكرسي، كانت الغرفة خالية بكل تأكيد. قال ميرتون:

– شيءٌ ما في الشارع. والآن انتبه لي أيها الزعيم، أنت صاحب العقل الحكيم، وبالتأكيد يمكنك أن تفكر في طريقة للخروج من هذا المأزق. وما دام ليس للضرب فائدة، فالقرار متروك لك إذن.

أجاب الكونت قائلًا:

– لقد سبق لي أن خدعت رجالًا أفضل منه. إن الجوهرة هنا في جيبي السري. لن أخاطر بتركها في الجوار. يمكنها أن تكون خارج إنجلترا الليلة، وأن تُقطع إلى أربعِ قطع في أمستردام قبل يوم الأحد. إنه لا يعرف شيئًا عن فان سيدار.

– ظننت أن فان سيدار سيُغادر الأسبوع القادم.

– كان سيفعل. ولكن الآن عليه أن يغادر على أول مركب يجده. يجب على أحدنا أن يأخذ الجوهرة ويتسلل إلى شارع لايم ويخبره.

– ولكن القاع السري للحقيبة ليس جاهزًا.

– حسنًا، عليه أن يجازف ويأخذها كما هي. ليست هناك ولو لحظة واحدة لنضيعها.

ومرة أخرى، وبحس الخطر الذي يصبح غريزيًّا لأي رياضي، توقف الُملاكم عن الكلام وأمعن النظر إلى النافذة وقال:

– نعم، من المؤكد أن ذلك الصوت الخافت قد أتى من الشارع.

ثم تابع قائلًا:

– وبالنسبة إلى هولمز، فيمكننا خداعه بسهولة بالقدر الكافي. فكما تعلم، هذا الأحمق اللعين لن يلقي القبض علينا إذا تمكن من الحصول على الجوهرة. إذن فسنعده بالحصول على الجوهرة. سنضلله بشأنها، وقبل أن يكشف الحقيقة ستكون الجوهرة في هولندا وسنكون نحن خارج البلاد.

صاح سام ميرتون بابتسامة عريضة وقال:

– تبدو فكرة جيدة بالنسبة إليَّ!

– اذهب وأخبِر الرجل الهولندي بأن يعجل بالخطوة التالية. أما أنا فسأتحدث مع هذا الأبله وأملأ رأسه باعتراف زائف. سأخبره بأن الجوهرة موجودة في ليفربول. إن تلك النغمات التي تشبه العويل بدأت تثير أعصابي! عندما يكتشف أن الجوهرة ليست في ليفربول ستكون الجوهرة قد قُطِّعت إلى أربعة أرباع وسنكون نحن في عرض البحر. تعال إلى هنا، بعيدًا عن ثقب الباب هذا. ها هي الجوهرة.

– أتعجب كيف جرؤت على حملها معك.

– وأين هو المكان الأكثر أمانًا الذي يمكنني تركها فيه؟ فإذا كنا قد تمكنا من إخراجها من وايتهول، فلا بد أن هناك شخصًا ما، يمكنه أن يخرجها من مسكني.

– دعنا نلقي نظرة عليها.

نظر الكونت سيلفيوس إلى شريكه نظرة ازدراء، وتجاهلَ اليد المتسخة الممدودة نحوه.

– ماذا... أتظن أنني سأنتزعها منك؟ اسمعني أيها السيد، لقد سئمت من أساليبك تلك.

– حسنًا، حسنًا، لا أقصد الإهانة يا سام. الوضع لا يحتمل شجارًا. تعال بقرب النافذة إذا كنت تريد أن ترى الجمال على نحو صحيح. ارفعها الآن في الضوء! هنا!

– شكرًا لك!

وبوثبة واحدة قام هولمز فجأة من كرسي التمثال الشمعي وأمسك بالجوهرة الثمينة. كان يمسكها بإحدى يديه، بينما يمسك في يده الأخرى مسدسًا صوبه إلى رأس الكونت. تراجع الشريران للخلف وهما في ذهول تام. وقبل أن يفيقا من ذهولهما كان هولمز قد دقَّ الجرس الكهربائي.

– من دون اللجوء للعنف أيها السادة.. دون عنف، أرجوكما! ضعا الأثاث في اعتباركما. يجب يكون من الواضح لكما أن موقفكما ميؤوس منه.

– الشرطة تنتظر بالأسفل.

تغلب ارتباك الكونت على غضبه وخوفه حيث قال لاهثًا:

– ولكن كيف بحق الجحيم...؟

– إن دهشتك أمر طبيعي للغاية. فأنت لا تدرك بأن هناك بابًا ثانيًا يؤدي من غرفة نومي إلى خلف تلك الستارة. تخيلت أنه من المؤكد أنك قد سمعتني عندما أزحت التمثال الشمعي، ولكن الحظ قد حالفني ومنحني فرصة لسماع حواركما المشوق والذي كان سيعوقه بشكل كبير علمكما بوجودي.

ظهرت على الكونت بوادر الاستسلام.

– نعترف أن لك الأفضلية يا هولمز. أعتقد بأنك الشيطان ذاته.

أجاب هولمز بابتسامة مهذبة:

– لا أختلف عنه كثيرًا على أي حال.

لم يدرك عقل ميرتون البطيء الموقف إلا بشكل تدريجي. وأخيرًا، عندما ظهر صوت وقع الخطوات الثقيلة على الدرج في الخارج خرج عن صمته وقال:

– أعترف بفعلتي! ولكن ماذا عن ذلك الكمان اللعين! ما زلت أسمع صوت نغماته حتى الآن.

– أوه! أنت محق تمامًا، دعه يعزف! إن أجهزة الجرامافون الحديثة هذه اختراع رائع.

تدفق رجال الشرطة إلى الغرفة ووضعوا الأصفاد في أيدي المجرمين واقتادوهما إلى العربة التي كانت تنتظر بالأسفل. وبقيَ واتسون مع هولمز يُهنّئه على هذا الإنجاز الجديد الذي أُضِيف إلى أمجاده. ومرة أخرى قاطع بيلي حديثهما بدخوله عليهما حاملًا صينية البطاقات الخاصة به.

– اللورد كانتلمير يا سيدي.

قال هولمز:

– دعه يصعد إلى هنا يا بيلي. إنه من الشخصيات المرموقة أصحاب المصالح العليا، رجل رائع ومخلص، ولكنه بالأحرى ينتمي إلى النظام القديم. فهل نستطيع أن نجعله أقل تشددًا؟ هل نجرؤ على المجازفة برفع الكلفة قليلًا؟ يمكننا أن نخمن أنه لا يعرف أي شيء مما حدث.

فُتح الباب ليدخل منه شخص نحيف متجهم، له وجه رفيع وملامح حادة وسوالف طويلة كسوالف الرجال في منتصف العصر الفيكتوري، سوادها لامع لا يتوافق مع ظهره المنحني ومشيته الواهنة. تقدم هولمز بودٍ وصافح يده غير المستجيبة.

– كيف حالك أيها اللورد كانتلمير؟ الجو بارد في هذا الوقت من العام، ولكنه دافئ نوعًا ما في الداخل. هل لي أن آخذ معطفك؟

– لا، أشكرك، لن أخلعه.

فوضع هولمز يده على كم المعطف بإصرار وقال:

– أرجوك أن تسمح لي! يمكن لصديقي واتسون أن يؤكد لك أن تقلبات درجات الحرارة هذه خدّاعة جدًّا.

انتفض اللورد محررًا نفسه بنفاد صبر، وقال:

– إنني مرتاح جدًّا يا سيدي، ليس لدي حاجة للبقاء طويلًا. جئت لأسأل كيف تسير الأمور في المَهمة التي كلفت نفسك بها.

– إنها صعبة، صعبة للغاية.

– كنت أخشى أن تجدها كذلك.

كان هناك استهزاء واضح في كلام وأسلوب رجل الحاشية الملكية العجوز.

– على كل رجل أن يعرف حدوده يا سيد هولمز، على الأقل هذا ما يحمينا من آفة الغرور.

– أجل يا سيدي، فأنا متحير للغاية.

– دون شك.

– إنني متحير حول نقطة واحدة بالأخص. ربما يمكنك مساعدتي بشأنها؟

– إنك تطلب نصيحتي في مرحلة متأخرة بعض الشيء. كنت أعتقد أن لديك ما يكفي من الوسائل. ومع ذلك، أنا مستعد لمساعدتك.

– في الواقع أيها اللورد كانتلمير، يمكننا بلا شك تلفيق قضية ضد اللصوص الفعليين.

– بعدما تكون قد قبضت عليهم.

– بالضبط. ولكن السؤال هو كيف سنقاضي مستلمي الجوهرة المسروقة؟

– أليس هذا السؤال سابقًا لأوانه بعض الشيء؟

– من الأفضل أن نعد خططنا لتكون جاهزة. ولكن ما الذي تعتبره دليلًا قطعيًّا ضد مستلمي الجوهرة المسروقة؟

– الحيازة الفعلية للجوهرة.

– هل ستُلقي القبض عليهم لهذا السبب؟

– دون أدنى شك.

نادرًا ما كان يضحك هولمز، ولكنه كاد يضحك في هذا الموقف حسبما يتذكره صديقه القديم واتسون.

– إذن يا سيدي العزيز، في هذه الحالة، سأكون مجبرًا بكل ألم أن أوجّه بضرورة اعتقالك.

انفجر اللورد كانتلمير غاضبًا واحمرّت وجنتاه الشاحبتان مشتعلتان بنار غضبه، وقال:

– إنك تتخطّى حدودك بشكل كبير يا سيد هولمز. فخلال خمسين عامًا من الحياة الرسمية، لا أذكر أنني قد مررت بموقف كهذا. إنني رجل مشغول يا سيدي، ومنهمك في شؤون مهمة، لا أملك الوقت ولا لدي الرغبة في تلك النكات السخيفة. يمكنني أن أخبرك بصراحة يا سيدي أنني لم أكن أؤمن بقدراتك مطلقًا، وأنني كنت دائمًا أرى أن المسألة ستكون أكثر أمانًا حينما تكون في أيدي قوات الشرطة النظامية، وسلوكك هذا يؤكد توقعاتي. يشرفني يا سيدي أن أتمنى لك مساء طيبًا.

غيّر هولمز موقعه بسرعة ووقف بين السيد النبيل والباب، وقال:

– لحظة واحدة يا سيدي. أن تغادر الآن وبحوزتك جوهرة المازارين يعتبر جريمة أخطر من أن يتم ضبطها في حوزتك بشكل مؤقت.

– سيدي، هذا لا يطاق، دعني أمر.

– ضع يدك في جيب معطفك الأيمن.

– ماذا تقصد يا سيدي؟

– هيا، هيا، نفِّذ ما طلبته منك.

وبعد لحظة كان السيد النبيل يقف مذهولًا، عيناه ترمشان ويتلعثم في الكلام، والجوهرة الصفراء الضخمة في كف يده المرتجفة.

– ماذا! ماذا! كيف حدث هذا يا سيد هولمز؟

صاح هولمز قائلًا:

– هذا مؤسف للغاية أيها اللورد كانتلمير، مؤسف للغاية! سيخبرك صديقي القديم هذا بأن لدي عادة شيطانية تتمثل في تدبير المقالب. كما أنني لا أستطيع أبدًا أن أقاوم أي موقف درامي. لذا فقد تجرأت بشدة وسمحت لنفسي –وأنا أعترف بذلك– بأن أضع الجوهرة في جيبك في بداية لقائنا.

انتقلت عينا السيد النبيل العجوز من التحديق إلى الجوهرة وإلى الوجه المبتسم أمامه.

– إنني في حيرة يا سيدي، ولكن –نعم– بالفعل، إنها جوهرة المازارين. نحن مدينون لك بالكثير يا سيد هولمز. قد يكون حس الدعابة لديك –على حد قولك– شاذًّا بعض الشيء، ويظهر في أوقات غير مناسبة بشكل ملحوظ، لكنني في النهاية أسحب أي ملاحظة أبديتها حول قدراتك المهنية المذهلة ولكن كيف...؟

– لم ننتهِ إلا من نصف القضية؛ يمكننا تأجيل الحديث حول التفاصيل. لا شك أيها اللورد كانتلمير أن سعادتك بهذه النتيجة المُرضية التي ستخبر بها الدائرة الرفيعة التي ستعود إليها، ستكون مثل تكفير صغير عن هذا المقلب. بيلي، رافق سيادة اللورد إلى الخارج، وأخبِر السيدة هدسون أنني سأكون مسرورًا إذا تفضلت بإرسال العشاء لشخصين في أسرع وقت ممكن.

الباركارول أو أغنية المهد هي مقطوعة موسيقية على طراز أغاني الجندول في مدينة البندقية. سمة اللحن الأساسية هي الإيقاع اللطيف الذي يوحي بتأرجح القارب.

قضية المنزل ذي الجمالونات الثلاثة

لا أعتقد أن أيًّا من مغامراتي مع السيد شيرلوك هولمز قد بدأت بداية مفاجئة للغاية وشديدة الدرامية أكثر من تلك المغامرة المتعلقة بمنزل الجمالونات[7] الثلاثة. لم أكن قد رأيت هولمز منذ عدة أيام، ولم يكن لدي فكرة عن المسار الجديد الذي اتخذَته أنشطته. لقد كان في مزاج رائق للثرثرة في ذلك الصباح، لذا طلب مني الجلوس على الكرسي الخفيض البالي ذي الذراعين، الموجود على أحد جانبَي المدفأة، في حين جلس هو مُكوّمًا في الكرسي المقابل، واضعًا غليونه في فمه حين وصل زائرنا. ولو أنني قلت إن ثورًا هائجًا قد دخل علينا آنذاك، لأعطى ذلك انطباعًا أوضح عما حدث.

فُتح الباب فجأة وإذ برجل ضخم أسود البشرة يندفع لداخل الحجرة. كان من الجائز أن يبدو كشخصية هزلية تدخل علينا، لولا أنه بدا مروعًا بحق، فقد كان يرتدي بدلة رمادية مبهرجة للغاية ذات نقوش مربعة مع ربطة عنق مُتهدّلة في لون السلمون. اندفع بوجهه العريض وأنفه المفلطح وأخذ يتجول بيننا فيما عيناه الداكنتان الغاضبتان تحدقان إلى كل منا بضغينة متأججة. سأل قائلًا:

– أي منكما هو السيد هولمز، أيها السيدان؟

رفع هولمز غليونه وابتسم له ابتسامة فاترة. فقال زائرنا وهو يخطو خطوة عند زاوية الطاولة:

– أوه! إنه أنت، أليس كذلك؟ أصغِ إليَّ يا سيد هولمز، لا تتدخل فيما لا يعنيك، واترك الآخرين ليديروا أمورهم بطريقتهم الخاصة. هل هذا مفهوم يا سيد هولمز؟

قال هولمز:

– استمِر في الحديث، لا بأس.

فزمجر الرجل الهمجي قائلًا:

– أوه! تقول لا بأس، أهذا صحيح؟ لن يظل الأمر كذلك لو اضطررت إلى أن أوسعك ضربًا، فقد تعاملتُ مع أناسٍ من أمثالك في السابق، ولم يبدُ لي أنهم على ما يرام حين انتهيت منهم. فلتضع هذا في حسبانك يا سيد هولمز!

ثم لوح بقبضته الضخمة ذات النتوءات أسفل أنف صديقي الذي أخذ يتفحصها من كثب باهتمام شديد، ثم سأله قائلًا:

– هل وُلدتَ هكذا؟ أم أنك أصبحتَ على هذا النحو مع الوقت؟

ربما بسبب ردة فعل صديقي شديدة البرودة، أو بسبب الضجة الخفيفة التي سببتُها حين التقطت قضيب المدفأة، على كلٍّ.. فقد صار سلوك زائرنا أقل حدة بعد سؤال هولمز، حيث قال:

– حسنًا، لقد أعطيتك تحذيرًا واضحًا، فلدي صديق مهتم بمسألة طريق هارو –أنت تعرف ما أعنيه– وهو لا يريد أن يكون لك أي تدخل في المسألة. هل فهمت؟ فأنت لا تمثل القانون، ولا أنا أيضًا، إن حاولت التدخل في الأمر فسأكون مستعدًّا تمامًا لأن أنال منك. تذكَّرْ هذا جيدًا.

قال هولمز:

– كنت أود مقابلتك منذ فترة. لن أطلب منك الجلوس، لأن رائحتك لا تروق لي، لكن ألست أنت ستيف ديكسي، الملاكم؟

– بلى، هذا اسمي يا سيد هولمز، ومن المؤكد أنك ستكون في مأزق كبير إن حدثتني بهذه الوقاحة.

قال هولمز وهو يحدق إلى فم زائرنا البشع:

– مِن المؤكد أنك لا تريد ذلك. فماذا تقول عن مقتل الشاب بيركنز خارج بار هولبورن...؟! ألن تذهب؟

تراجع الرجل ذو البشرة السوداء إلى الخلف وقد شحب وجهه، ثم قال:

– لن أستمع إلى مثل هذا الحديث. ما علاقتي أنا بذلك المدعو بيركنز يا سيد هولمز؟ لقد كنت أتدرب في منطقة بول رينج في برمنجهام حين وقع هذا الفتى في المتاعب.

قال هولمز:

– نعم، فلتخبر القاضي بذلك يا ستيف، فقد كنت أراقبك أنت وبارني ستوكديل...

– فليساعدني الرب! سيد هولمز...

– هذا يكفي. اخرج من هنا. سأمر عليك حين أحتاج إليك.

– طاب صباحك يا سيد هولمز. آمل ألا أكون قد ضايقتُك بهذه الزيارة.

– سأتجاوز عن ذلك إن أخبرتني مَن الذي أرسلك إلى هنا؟

– يا إلهي، هذا ليس سرًّا يا سيد هولمز. إنه السيد نفسه الذي ذكرت اسمه للتو.

– وما الذي دفعه إلى ذلك؟

– فليساعدني الرب! أنا لا أعلم يا سيد هولمز. فهو لم يقل لي إلا: «اذهب لمقابلة السيد هولمز يا ستيف، وأخبره أن حياته ستكون في خطر إن لم يذهب إلى طريق هارو». هذا كل ما في الأمر.

ودون انتظار أي سؤال آخر، اندفع الزائر هاربًا من الغرفة بسرعة كما دخل إليها. وأفرغ هولمز رماد غليونه وهو يضحك ضحكة خافتة.

– يسرني أنك لم تضطر إلى تحطيم رأسه الأجعد يا واتسون. فقد لاحظتُ مناورتك مع قضيب المدفأة. لكنه في حقيقة الأمر شخص غير مؤذٍ. إنه ليس إلا طفل ضخم مفتول العضلات، أحمق ومتبجح، لكن يمكن إخافته بسهولة كما رأيت. إنه أحد أفراد عصابة سبنسر جون، وقد شارك مؤخرًا في بعض الأعمال المشبوهة التي سأوضح أمرها عندما يتاح لي الوقت. أما زعيمه المباشر، بارني فهو شخص أكثر ذكاءً. وهم متخصصون في الاعتداء والترهيب وما شابه. ما أريد معرفته الآن هو مَن الذي يحرضهما في هذه الواقعة بالتحديد؟

– لكن لماذا يريدون ترهيبك؟

– إن الأمر يتعلق بقضية هارو ويلد، وهذا يدفعني لأن أتمعن في الأمر. فإذا كانت المسألة تستحق أن يواجه شخص كل هذا العناء من أجل إيقافي، فلا بد أن ثمة شيئًا بها.

– لكن ما هو؟

– كنت سأخبرك قبل أن يداهمنا هذا الفاصل الهزلي. ها هي رسالة السيدة مابيرلي. إن كنت تهتم بالمجيء معي، فسنرسل إليها برقية ونذهب في الحال.

قرأتُ، عزيزي السيد شيرلوك هولمز:

«لقد توالت عليَّ سلسلة من الأحداث الغريبة التي تتعلق بهذا المنزل، وأعتقد أنني في حاجة ماسة إلى مشورتك. ستجدني في المنزل في أي وقت غدًا. إن المنزل يقع على بُعد مسافة قصيرة من محطة ويلد. أعتقد أن زوجي الراحل، مورتيمر مابيرلي، كان أحد عملائك القدامى.

مع تحياتي،

ماري مابيرلي»

كان العنوان «منزل الجمالونات الثلاثة»، هارو ويلد.

قال هولمز:

– إذن، هذا ما في الأمر! والآن، إذا كان لديك متسع من الوقت يا واتسون، فلنمضِ في طريقنا.

وبعد رحلة قصيرة بالقطار، ورحلة أقصر منها بالعربة وصلنا إلى ذلك المنزل، كان عبارة عن فيلا مبنية من الطوب والخشب، وسط فدان من المروج العشبية القصيرة. وبدت النتوءات الثلاثة القصيرة فوق نوافذه العلوية في محاولة ضعيفة لتبرير اسمه. كان يوجد خلفه بستان من أشجار الصنوبر غير مكتملة النمو، وكان المظهر العام للمكان رديئًا وكئيبًا. ومع ذلك وجدنا المنزل مؤثثًا تأثيثًا جيدًا، وكانت السيدة التي استقبلتنا امرأة مسنة ذات شخصية شديدة الجاذبية، تحمل كل صفات الرقي والثقافة. قال هولمز:

– ما زلت أتذكر زوجك جيدًا يا سيدتي، مع أنه قد مرت عدة سنوات على استعانته بخدماتي في أحد الأمور البسيطة.

– ربما يكون اسم ابني دوجلاس مألوفًا لك أكثر.

نظر إليها هولمز باهتمام شديد وقال:

– يا إلهي! أنتِ والدة دوجلاس مابيرلي؟ إن معرفتي به محدودة، لكن لندن بأسرها كانت تعرفه بكل تأكيد. كم كان إنسانًا رائعًا! أين هو الآن؟

– لقد تُوفيَ يا سيد هولمز، تُوفيَ! لقد كان في روما، ومات بالتهاب رئوي في الشهر الماضي.

– تعازيَّ.. من الصعب تصوُّر وفاة رجل مثل ابنك، إنني لم أقابل في حياتي رجلًا مفعمًا بالحيوية والنشاط مثله. لقد عاش حياة حافلة؛ بكل ذرة من كيانه!

– حافلة جدًّا يا سيد هولمز؛ وهذا ما أودى بحياته. لا بد أنك تتذكر كيف كان رجلًا رائعًا ودمثًا، لكنك لم ترَ كيف أصبح شخصًا متقلب المزاج ونكديًّا وكئيبًا؛ فقد تحطم قلبه. وفي غضون شهر واحد رأيت ابني النبيل الهمام يتحول إلى رجل متشائم ومنهك القوى.

– أكان السبب في ذلك علاقة حب.. أي امرأة؟

– أو شيطانًا، حسنًا، لم أطلب منك أن تأتي إلى هنا لكي أتحدث عن فتاي المسكين يا سيد هولمز.

– أنا والدكتور واتسون في خدمتك.

– لقد توالت بعض الأحداث شديدة الغرابة. إنني أقيم في هذا المنزل منذ أكثر من عام. وبما أنني كنت أود أن أعيش حياةَ تقاعد هادئة؛ لم أختلط كثيرًا بجيراني. وقبل ثلاثة أيام زارني رجل قال إنه سمسار عقارات، وإن هذا المنزل يناسب أحد عملائه، وإنه مستعد ليعطيني ما أريد من المال إن كنت مستعدة للتخلي عنه. بدا الأمر غريبًا للغاية، نظرًا لوجود العديد من المنازل الخالية في السوق والتي تبدو على قدر متساوٍ من المميزات، لكن ما قاله قد أثار اهتمامي بطبيعة الحال؛ لذلك حددت سعرًا يزيد بخمسمئة جنيه على السعر الذي دفعته. وقد وافق على الفور، لكنه أضاف أن عميله يرغب في شراء الأثاث أيضًا، فكان عليَّ أن أحدد سعرًا له. وحيث إنني جئت ببعض هذا الأثاث من منزلي القديم، وهو كما ترى في حالة جيدة جدًّا، فقد حددت له مبلغًا كبيرًا، فوافق عليه في الحال أيضًا. دائمًا ما كنت أرغب في السفر، ولما كانت الصفقة مجزية لهذه الدرجة؛ فقد بدا لي حقًّا أنني سأصبح سيدة قراري فيما تبقى لي من العمر. وبالأمس أتى الرجل ومعه العقد مكتوبًا بالكامل. ولحسن حظي أنني عرضته على السيد سوترو، محاميَّ الخاص، الذي يعيش في هارو، فقال لي: «هذه وثيقة غريبة للغاية. هل تدركين أنكِ لو وقعتِ على هذه الوثيقة فلن تستطيعي قانونيًّا أن تأخذي أي شيءٍ من المنزل؛ ولا حتى أغراضك الخاصة؟» وعندما عاد الرجل إليَّ مرة أخرى في المساء، أشرتُ إلى هذا الأمر وأخبرته بأنني كنت أقصد بيع الأثاث فقط. فقال:

– لا، لا، كل شيء.

– لكن ماذا عن ملابسي؟ ومجوهراتي؟

– حسنًا، حسنًا، قد نتنازل بعض الشيء فيما يخص أمتعتك الشخصية. لكن لن يخرج أي شيء من المنزل دون فحصه. إن موكلي رجل متفتح للغاية، لكن لديه حيله وطريقته الخاصة في إنجاز الأمور. فهو إما أن يحصل على كل شيء وإما لا شيء.

فقلت له: «إذن، فلن يحصل على أي شيء». وقد انتهى الأمر عند هذا الحد، لكن المسألة برمتها بدت لي غريبة جدًّا، حتى إنني اعتقدتُ...

وهنا قُوطِع كلامها بطريقة شديدة الغرابة. فقد رفع هولمز يده طالبًا منها أن تصمت. ثم ذرع الغرفة، وفتح الباب بعنف، وأمسك بامرأة ضخمة وهزيلة من كتفيها. فدخلت إلى الغرفة وهي تقاوم مقاومة شديدة مثل دجاجة ضخمة خرقاء تصيح في أثناء إخراجها من القفص. صاحت السيدة قائلة:

– اتركني وشأني! ماذا تفعل؟

– يا إلهي، سوزان، ماذا هناك؟

– حسنًا يا سيدتي، لقد أتيت لأسأل عما إذا كان الضيوف سيمكثون حتى وقت الغداء حين انقض عليَّ هذا الرجل.

– كنت أسمعها طوال الدقائق الخمس الماضية، لكنني لم أرغب في مقاطعة روايتك الأكثر إثارة للاهتمام. إنك تصدرين صوت أزيز خافت حين تتنفسين يا سوزان، أليس كذلك؟ صوت تنفسك عالٍ بعض الشيء، ولا يتناسب مع مثل هذه التصرفات.

نظرت سوزان بوجه مدهوش –الذي بدا متجهمًا– إلى الرجل الذي أمسك بها، وقالت:

– مَن أنت؟ وبأي حق تمسك بي هكذا؟

– لقد أردت فقط أن أطرح سؤالًا في وجودكِ. هل أخبرتِ أي شخص يا سيدة مابيرلي أنك ستكتبين لي وتستشيرينني؟

– لا يا سيد هولمز، لم أفعل.

– ومَن الذي أرسل رسالتك بالبريد؟

– سوزان.

– بالضبط. والآن يا سوزان، مَن الذي كتبتِ إليه، أو أرسلتِ إليه رسالة لتخبريه أن سيدتك لجأت لطلب مشورتي؟

– هذا كذب. إنني لم أرسل أي رسالة.

– اسمعيني يا سوزان، إن الأشخاص الذين يصدرون صوتَ أزيز عند تنفسهم قد لا يعيشون طويلًا كما تعلمين. وإن الكذب من الآثام. مَن الذي أخبرتِه؟

صاحت سيدتها قائلة:

– سوزان! أعتقد أنك امرأة خائنة خبيثة. أتذكر الآن أنني رأيتك تتحدثين مع شخص ما عبر سياج الشجيرات.

قالت المرأة بغضب:

– هذا أمر يخصني وحدي.

قال هولمز:

– ماذا لو أخبرتكِ أن الرجل الذي كنتِ تتحدثين معه هو بارني ستوكديل!

– حسنًا، إن كنت تعرف فلماذا تسأل إذن؟

– لم أكن متأكدًا، ولكنني تأكدت الآن. حسنًا يا سوزان، سأعطيك عشرة جنيهات إن أخبرتني مَن الذي يحرض بارني.

– إنه شخص يمكنه أن يدفع ألف جنيه مقابل كل عشرة من العشرات التي لديك.

– إنه رجل ثري إذن؟ لا، لقد ابتسمتِ... امرأة ثرية؟ ها قد قطعنا شوطًا كبيرًا، فلتخبريني بالاسم وتحصلي على الجنيهات العشرة.

– سأراك في الجحيم أولًا.

– سوزان! انتبهي لألفاظك!

فقالت سوزان وهي تسير متعثرة نحو الباب:

– سأذهب من هنا، فقد سئمت منكم جميعًا. وسأرسل في طلب أمتعتي في الغد.

– وداعًا يا سوزان. عليكِ بصبغة الأفيون الكافوريَّة، فهي العلاج المناسب لحالتك.

ثم تابع هولمز قائلًا وقد تحول فجأة من الحماس إلى الجدية عندما أغلق الباب خلف السيدة التي كان وجهها قد استشاط غضبًا:

– إن هذه العصابة جادة فيما تحاول فعله. انظرا إلى السرعة التي يتخذون بها خطواتهم، فالوقت المسجل بختم البريد على خطابك كان العاشرة مساءً، ومع ذلك تمكنت سوزان من أن تنقل الخبر إلى بارني. وتمكن بارني من أن يجد وقتًا للذهاب إلى الشخص الذي كلفه بالعمل ليتلقى منه التعليمات، ووُضِعت الخطة، لذا فإنني أرجح مما فهمته من ابتسامة سوزان، حين ظنَّت أني أخطأت، أنها امرأة. وقد استدعَوا ستيف الأسود وطلبوا منه أن يحذرني في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. هذا أداء سريع للغاية!

– ولكن ماذا يريدون؟

– نعم، هذا هو السؤال. مَن كان يمتلك هذا المنزل قبلك؟

– قبطان متقاعد يُدعى فيرجسون.

– هل ثمة شيء يتعلق به جدير بالملاحظة؟

– ليس على حد علمي.

– كنت أتساءل عما إذا كان قد دفن فيه شيئًا ما. فبالطبع، صار الناس في هذه الأيام يدفنون كنوزهم إن وجدت في صناديق توفير البريد، لكن لا يزال هناك بعض المجانين الذين لا يقومون بذلك، وسيكون العالم مملًّا جدًّا دونهم. فكرت في البداية أنه قد يكون هناك أشياء ثمينة مدفونة هنا. لكن لماذا قد يرغبون في الحصول على الأثاث في هذه الحالة؟ هل تمتلكين لوحة عليها توقيع رافائيل، أو إحدى المخطوطات الأصلية لشكسبير دون أن تعلمي بذلك؟

– لا، لا أعتقد أنني أمتلك أي شيء نادر عدا طقم شاي كراون ديربي.

– من الصعب أن يكون كل ذلك الغموض لهذا السبب. وعلاوة على ذلك، لماذا لا يبوحون علانية بما يريدونه؟ لو كانوا يرغبون في طقم الشاي الخاص بك، فمن المؤكد أن بوسعهم دفع ثمنه من دون اللجوء إلى شراء المنزل بكامل محتوياته! حسبما أعتقد، ثمة شيء لا تعرفين أنك تمتلكينه، ولن تتنازلي عنه إن عرفتِ بأمره.

فقلت:

– وأنا أيضًا أعتقد ذلك.

– يتفق الدكتور واتسون معي في الرأي، هذا يحسم الأمر إذن.

– حسنًا يا سيد هولمز، ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟

– دعونا نرَ ما إذا كان بإمكاننا أن نصل إلى استنتاج أدق من خلال التحليل الذهني البحت. إنك تعيشين في هذا المنزل منذ عام، أهذا صحيح؟

– عامان تقريبًا.

– هذا أفضل، وخلال هذه المدة الطويلة لم يطلب أحد منك شيئًا. وفجأة في خلال ثلاثة أو أربعة أيام تلقيتِ عروضًا مُلحّة. فما الذي يمكنكما استنتاجه من ذلك؟

قلت:

– هذا لا يعني سوى أن هذا الشيء، أيًّا ما كان، قد دخل إلى المنزل منذ وقت قصير.

فقال هولمز:

– ها نحن نتفق في الرأي مرة أخرى. هل وصل شيء ما إلى المنزل مؤخرًا يا سيدة مابيرلي؟

– لا، لم أشترِ شيئًا جديدًا هذا العام.

– أحقًّا! هذا شيء جدير بالملاحظة. حسنًا، أعتقد أنه كان من الأفضل أن نترك الأمور تتطور أكثر قليلًا حتى يتسنى لنا الحصول على معلومات أوضح. هل محاميكِ الخاص رجل كفء؟

– السيد سوترو كفء بكل تأكيد.

– هل لديك خادمة أخرى، أم كانت سوزان الجميلة التي صفقت باب منزلك الرئيس للتو، بمفردها؟

– عندي فتاة صغيرة.

– حاولي أن تجعلي سوترو يقضي ليلة أو ليلتين في المنزل. فقد تحتاجين إلى الحماية.

– ممن؟

– مَن يدري؟ فالمسألة يحيط بها الغموض بلا شك. وما دمت لم أستطع معرفة ما الذي يسعون وراءه فلا بد أن أتعامل مع المسألة من الطرف الآخر، وأحاول الوصول إلى الزعيم. هل أعطاكِ سمسار العقارات أي عنوان؟

– لم يُرني إلا بطاقته، ولم يَرِد فيها سوى اسمه ومهنته: هينز جونسون، بائع بالمزادات ومثمِّن.

– لا أظن أننا سنجده في الدليل؛ فإن رجال الأعمال النزهاء لا يخفون مكان عملهم. حسنًا، فلتخبريني بأي تطورات جديدة. لقد توليت قضيتك، ويمكنك الاطمئنان إلى أنني سأصل إلى حلٍّ في النهاية.

وفي أثناء مرورنا بالردهة وقعت عينا هولمز، التي لا تغفل عن ملاحظة أي شيء، على عدة صناديق وحقائب مكدسة في إحدى الزوايا، وكان موضوعًا عليها ملصقات. «ميلانو». «لوسرن». إنها من إيطاليا.

– إنها أغراض دوجلاس المسكين.

– ألم تفرغي محتوياتها؟ منذ متى وهي لديك؟

– لقد وصلت الأسبوع الماضي.

– لكنك قلتِ… يا إلهي، لا بد أن هذه الأغراض هي الحلقة المفقودة. كيف لنا أن نعرف أنه لا يوجد شيء ثمين بداخلها؟

– لا يمكن أن يكون الأمر كذلك يا سيد هولمز. فلم يكن دوجلاس المسكين يملك سوى راتبه ومعاش سنوي زهيد. فما الذي يمكن أن يكون ذا قيمة داخل أغراضه.

استغرق هولمز في التفكير، ثم قال أخيرًا:

– لا تؤجلي الأمر أكثر يا سيدة مابيرلي. فلتجعلي أحدهم يصعد بهذه الأغراض إلى حجرة نومك في الطابق العلوي، وافحصيها بأسرع وقت ممكن؛ لتعرفي ما بداخلها. وسوف آتي إليك في الغد؛ لتخبريني بمحتوياتها.

كان من الواضح تمامًا أن منزل الجمالونات الثلاثة كان تحت مراقبة مشددة، لأنه عندما اقتربنا من السياج العالي الموجود في نهاية الممر وجدنا الملاكم المحترف أسود البشرة يقف هناك في الظل، لقد وجدناه أمامنا فجأة وبدا لنا متجهمًا ومتوعدًا في ذلك المكان الموحش. وعند رؤيته أخذ هولمز يربت بيده على جيبه.

– أتبحث عن مسدسك يا سيد هولمز؟

– لا، أبحث عن زجاجة العطر الخاصة بي يا ستيف.

– إنك تتمتع بحس فكاهي عالٍ يا سيد هولمز، أليس كذلك؟

– لن يكون الأمر فكاهيًّا إن لاحقتُك يا ستيف، وقد أعطيتك تحذيرًا واضحًا صباح اليوم.

– حسنًا يا سيد هولمز، لقد فكرت مليًّا فيما قلته، ولا أريد التحدث أكثر من ذلك عن موضوع السيد بيركنز. أعتقد أن باستطاعتي مساعدتك يا سيد هولمز، وسأفعل.

– حسنًا، فلتخبرني إذن، مَن الذي يحرضك على هذه المهمة؟

– ساعدني يا إلهي! لقد أخبرتك بالحقيقة من قبل يا سيد هولمز. إنني لا أعرف. فإن رئيسي بارني هو من يعطيني الأوامر، وهذا كل شيء.

– حسنًا، فلتضع في اعتبارك يا ستيف أن تلك السيدة في هذا المنزل، وكل ما يوجد تحت ذلك السقف تحت حمايتي. لا تنسَ ذلك أبدًا.

– حسنًا يا سيد هولمز، سأتذكر هذا.

ثم قال هولمز ونحن نستأنف المسير:

– لقد تمكنتُ من إخافته لأقصى درجة يا واتسون. وأظن أنه كان سيعترف باسم الشخص الذي استأجره لو كان يعرفه حقًّا، فقد حالفني الحظ فعرفت بعض المعلومات عن جماعة سبنسر جون، وعرفت أن ستيف كان ينتمي إليهم. أما الآن يا واتسون فإني ذاهب لمقابلة لانجديل بايك؛ فإن هذه القضية تعتبر في صلب اختصاصه، وربما حين أعود يكون الأمر قد صار أكثر وضوحًا لي.

لم أرَ هولمز بقية النهار، لكن بإمكاني أن أتخيل تمامًا كيف قضاه، فقد كان لانجديل بايك وكأنه كتابه المرجعي، كتاب مرجعي في صورة إنسان، لكل الأمور التي تتعلق بالفضائح الاجتماعية. كان هذا الشخص الكسول غريب الأطوار يقضي ساعات يقظته في نافذة بارزة لأحد الملاهي الموجودة في شارع سانت جيمس، وكان يبدو مثل محطة استقبال، وجهاز إرسال أيضًا لكل أحاديث النميمة في العاصمة. ويقال إنه كان يتقاضى دخلًا قيمته تتكون من أربعة أرقام مقابل الفقرات التي يسهم بكتابتها أسبوعيًّا في الصحف التافهة التي ترضي أذواق الجمهور الفضولي. فأي دوامات أو تيارات غريبة كانت تنشأ في

أعماق حياة لندن العكرة، كان مثل مؤشر بشري يشير إليها بدقة بالغة. وكان هولمز يساعد لانجديل خفية في الحصول على المعلومات، وكان في المقابل يتلقى منه المساعدة في بعض الأحيان.

وعندما التقيت بصديقي في حجرته في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، أدركت من أسلوبه أن كل شيء كان يمضي على ما يرام، لكن كانت هناك مفاجأة غير سارة في انتظارنا، تتمثل في البرقية التالية:

«برجاء الحضور فورًا؛ فقد تعرض منزل عميلتك للسطو في أثناء الليل، والشرطة تحكم السيطرة على المكان.

سوترو»

أطلق هولمز صافرة ثم قال:

– ها قد وصلَت الدراما لذروتها، وبأسرع مما توقعت. هنالك قوة محركة هائلة خلف هذا الأمر يا واتسون، وهذا لن يفاجئني بعد ما سمعته. إن سوترو هذا هو بالطبع محاميها الخاص، لكن أخشى أنني قد ارتكبت خطأً حينما لم أطلب منك أن تقضي الليلة في حراسة المنزل، فقد اتضح أن هذا الرجل لا يمكن الاعتماد عليه. حسنًا، لا مفر من الذهاب في رحلة أخرى إلى هارو ويلد.

وعندما وصلنا وجدنا منزل الجمالونات الثلاثة في حال مختلفة تمامًا عن ذلك المنزل المنظم الذي رأيناه في اليوم السابق، إذ تجمعت مجموعة صغيرة من المتسكعين عند بوابة الحديقة، في حين كان هناك اثنان من رجال الشرطة يتفحصان النوافذ وأحواض زهور إبرة الراعي. والتقينا داخل المنزل بسيد عجوز أشيب قدم بصفته المحامي، وكان معه محقق نشيط متورِّد الوجه حيًّا هولمز كأنه صديق قديم.

– حسنًا يا سيد هولمز، أخشى أنه قد لا يكون لك مكان في هذه القضية. فهي ليست إلا جريمة سطو عادية، وباستطاعة قوى الشرطة ذات الأساليب التقليدية القديمة أن تتولاها، ولا تحتاج إلى وجود خبراء.

فقال هولمز:

– أنا متأكد من أن القضية في أيدٍ أمينة جدًّا، أتقول إنها مجرد قضية سطو عادية؟

– نعم، فنحن نعرف جيدًا مَن هم الجناة، ونعرف أين نجدهم. إنها عصابة بارني ستوكديل، التي من بين أفرادها ذلك الرجل الضخم ذو البشرة السوداء، فقد شُوهدوا في الجوار.

– ممتاز! ما الذي أخذوه من المنزل؟

– حسنًا، لا يبدو أنهم قد أخذوا الكثير. فقد خُدِّرت السيدة مابيرلي وكان المنزل… آه! ها هي السيدة مابيرلي نفسها.

دخلت صديقة الأمس إلى الغرفة متكئة على خادمتها الصغيرة وقد بدت شاحبة وواهنة للغاية. وقالت وهي تبتسم ابتسامة حزينة:

– لقد كانت نصيحتك لي نصيحة سديدة يا سيد هولمز، لكنني مع الأسف لم أعمل بها! فلم أرغب في أن أزعج السيد سوترو، لذا ظللت بلا حماية.

أوضح المحامي قائلًا:

– لم أسمع بالأمر إلا هذا الصباح.

– لقد نصحني السيد هولمز بأن أبقي أحد أصدقائي في المنزل، غير أنني تجاهلت نصيحته، وها قد دفعت الثمن.

قال هولمز:

– تبدين متعبة للغاية، ربما لستِ مستعدة لتخبريني بما حدث.

فقال المحقق وهو يربت على دفتر ملاحظات ضخم:

– كل شيء مكتوب هنا.

– ومع ذلك إن لم تكن السيدة متعبة جدًّا فـ...

– ليس لدي الكثير لأقوله. وليس لدي أدنى شك في أن سوزان الخبيثة هي التي خططت لدخولهم هنا. فلا بد أنهم كانوا يعرفون كل تفاصيل المنزل. لم أكن واعية سوى للحظة واحدة بعد أن وضعوا قطعة القماش المشبعة بمخدر الكلوروفورم على فمي، لكن ليست لدي أدنى فكرة عن المدة التي لبثت فيها فاقدة الوعي. وعندما استيقظت وجدت رجلًا بجانب السرير، ورجلًا آخر ينهض وهو يحمل في يديه أوراقًا أخرجها من بين أمتعة ابني، فقد فتح عددًا منها، وتبعثرت على الأرض. لكنني نهضت مسرعة، وأمسكت به قبل أن يتمكن من الهرب.

قال المحقق:

– لقد كانت تلك مخاطرة كبيرة.

– لقد تشبثت به، مع ذلك تملص مني، فيما وجه إليَّ الرجل الآخر ضربة بطريقة ما، لأنني لا أستطيع تذكر أي شيء أكثر من هذا. سمعَت الخادمة ماري الجلبة فأخذَت تصرخ عبر النافذة؛ وهذا ما جلب الشرطة إلى هنا، لكن بعد أن فرَّ هؤلاء الأوغاد.

– ما الذي أخذوه؟

– حسنًا، لا أعتقد أنهم أخذوا أي شيء ذا قيمة، فأنا متأكدة من أن أمتعة ابني لم تكن تحتوي على شيء مهم.

– ألم يترك هؤلاء الرجال أثرًا وراءهم؟

– كانت هناك ورقة ربما أكون قد انتزعتها من يد الرجل الذي تشبثت به، لقد وجدتها مجعدة تمامًا وملقاه على الأرض، إنها مكتوبة بخط يد ابني.

قال المحقق:

– هذا يعني أنها ليست ذات فائدة كبيرة، وإلا لكانت في حوزة السارق...

قال هولمز:

– بالتأكيد، إنه منطق سليم، ومع ذلك فلدي فضول للاطلاع عليها.

أخرج المحقق ورقة مُسطّرة مطوية من دفتر ملاحظاته، وقال بشيء من التباهي:

– أنا لا أغفل عن أي شيء مهما بدا تافهًا، وأنصحك بهذا يا سيد هولمز، فقد تعلمت ذلك في أثناء عملي في هذا المجال طوال خمسة وعشرين عامًا، فهناك دائمًا احتمال وجود بصمات أصابع أو شيء من هذا

القبيل.

تفحص هولمز الورقة، ثم قال:

– ما هذه الورقة في رأيك أيها المحقق؟

– تبدو وكأنها نهاية رواية غريبة.

قال هولمز:

– قد تكون حقًّا نهاية رواية غريبة. فقد لاحظت الرقم الموجود في أعلى الصفحة، إنه مئتان وخمسة وأربعون. فأين توجد الصفحات المئتان والأربعة والأربعون الأخرى؟

– حسنًا، أظن أن اللصوص أخذوها. لا أعرف بماذا قد تنفعهم!

– يبدو أمرًا غريبًا أن يُقتحم منزل من أجل سرقة أوراق كهذه. ألا يشير هذا إلى أي شيء تراه أيها المحقق؟

– أجل يا سيدي، هذا يشير إلى أن هؤلاء الأوغاد كانوا في عجلة من أمرهم فأخذوا أول شيء وجدوه في طريقهم. أتمنى أن يهنئوا بما حصلوا عليه.

تساءلت السيدة مابيرلي قائلة:

– ولماذا يعبثون بأغراض ابني؟

– حسنًا، ربما لم يجدوا شيئًا ذا قيمة في الطابق السفلي، لذلك جربوا حظهم بالتفتيش في الطابق العلوي، هذا ما أعتقده، ما رأيك أنت يا سيد هولمز؟

– يجب أن أفكر في الأمر قليلًا أيها المحقق. تعال إلى النافذة يا واتسون.

وبينما نحن واقفان راح هولمز يقرأ المكتوب في قصاصة الورق، كان الكلام فيها يبدأ من منتصف جملة، على هذا النحو:

«... وجهه كان ينزف بغزارة إثر الجروح والضربات، لكنه لم يكن يقارن بنزيف قلبه حين رأى ذلك الوجه الجميل، الوجه الذي كان على استعداد لأن يضحي بحياته من أجله، وهو الوجه نفسه الذي يشاهد مكابدة آلامه وعذابه. ابتسمَت... نعم، بحق السماء! ابتسمَت عندما نظر إليها وكأنها شيطان قاسٍ عديم الرحمة. وفي تلك اللحظة تحديدًا مات الحب وولدت الكراهية. فلا بد للمرء أن يحيا من أجل شيء ما. وإن لم أكن سأعيش من أجل أن تضمني ذراعاكِ يا سيدتي، فسأعيش لأنال منكِ وآخذ بثأري كاملًا».

قال هولمز وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة وهو يعيد الورقة إلى المحقق:

– يا له من استخدام غريب لقواعد اللغة! هل لاحظت كيف تحول فجأة من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم؟ لقد انجرف الكاتب مع قصته لدرجة أنه تخيل نفسه البطل في ذروة الأحداث.

قال المحقق وهو يعيد الورقة إلى دفتر ملحوظاته:

– إنها تبدو لي قصة ضعيفة للغاية. حسنًا، ماذا! هل أنت ذاهب يا سيد هولمز؟

– لا أظن أن هناك أي شيء يمكن أن أقدمه الآن، فقد أصبحت القضية في أيدٍ أمينة. بالمناسبة يا سيدة مابيرلي، ألم تقولي إنك ترغبين في السفر؟

– لطالما كان هذا حلمي يا سيد هولمز.

– إلى أين تودين الذهاب... القاهرة، ماديرا، الريفيرا؟

– أوه، لو كنت أمتلك المال لسافرت حول العالم.

– أهكذا إذن؟ حول العالم. حسنًا، طاب صباحك يا سيدتي، ربما تتلقين مني برقية في المساء.

وعند مرورنا من أمام النافذة لمحت المحقق يبتسم ويهز رأسه. وقد بدا لي من ابتسامته أنه يقول:

– دائمًا ما يتسم هؤلاء الأشخاص الأذكياء بلمحة من الجنون.

قال هولمز عندما عدنا لصخب وسط لندن مرة ثانية:

– ها قد أصبحنا الآن في آخر مرحلة من رحلتنا القصيرة يا واتسون. أعتقد أنه من الأفضل أن نتبين حقيقة الأمر فورًا، وسيكون من الأفضل أن تأتي معي، فمن الأفضل أن يكون معي شاهد عند التعامل مع سيدة مثل إزادورار كلاين؛ فهذا أكثر أمنًا.

فاستقللنا عربة أجرة وذهبنا مسرعين إلى عنوان ما في ميدان جروفنير، وقد كان هولمز مستغرقًا في التفكير، لكنه انتبه فجأة وقال:

– بالمناسبة يا واتسون، أعتقد أنك تفهم كل ما يحدث بوضوح، أليس كذلك؟

– نعم، نعم يمكنني أن أقول ذلك. إن كل ما أفهمه هو أننا ذاهبان لرؤية السيدة التي تسببت في كل هذا الأذى.

– بالتأكيد! لكن ألا يذكرك اسم إزادورار كلاين بأي شيء؟ لقد كانت بالطبع جميلة الجميلات وكانت تتمتع بشهرة كبيرة، فلم تكن هناك أي امرأة من الممكن أن تضاهيها في حسنها. إنها إسبانية أصيلة، وتجري في شرايينها دماء الغزاة الإسبان، وقد ظل قومها قادة في ولاية بريناموكو لأجيال. وقد تزوجت من ملك السكر الألماني العجوز كلاين، وها قد أصبحت الآن أغنى وأجمل أرملة على وجه الأرض. ثم عاشت فترة من المغامرة؛ إشباعًا لرغباتها، إذ كان لديها العديد من العشاق، وكان دوجلاس مابيرلي –أحد أبرز الرجال في لندن– واحدًا منهم. وقد كان –بحسب جميع الروايات– أكثر من مجرد مغامرة لها. فهو لم يكن شخصًا عابثًا، إنما رجل قويٌّ معتدٌّ بنفسه، وقد كان يخلص في العطاء ويتوقع المثل. أما هي فامرأة فاتنة عديمة الرحمة كالتي تذكر في الروايات، وكانت تنهي المسألة حالما تشبع نزواتها. وإن لم يقبل الطرف الآخر بذلك، كانت تعرف جيدًا كيف تقنعه.

– كانت تلك قصته إذن...

– آه! ها قد بدأت تلملم شتات الأمر الآن. لقد سمعت أنها على وشك الزواج من دوق لوموند الشاب، الذي يكاد يكون في عمر ابنها تقريبًا، وقد تتغاضى والدة جلالته عن فرق السن، لكن الأمر سيختلف كثيرًا حين يتعلق الأمر بفضيحة كبيرة، لذا فمن الحتمي... آه! ها قد وصلنا.

كان أحد أفخم المنازل التي تقع في الزاوية بين شارعين في منطقة ويست إند. وهناك استقبلنا خادم يتصرف مثل الآلة، أخذ بطاقتَيْنا ثم عاد ليخبرنا بأن السيدة ليست في المنزل. فقال هولمز بنبرة مرحة:

– إذن سننتظرها حتى تعود.

صمت الخادم الآلي للحظة ثم قال:

– ليست في المنزل. يعني أنها ليست في المنزل لمقابلتك أنت.

أجاب هولمز قائلًا:

– جيد، هذا يعني أننا لن نضطر إلى الانتظار. أرجو أن تعطي هذه الرسالة إلى سيدتك.

كتب سريعًا على ورقة من دفتر ملاحظاته، ثم طواها وسلمها للرجل. سألْته قائلًا:

– ماذا كتبت فيها يا هولمز؟

– كتبت: «هل أترك الشرطة تتولى الأمر إذن؟» أعتقد بأن هذا كفيل بأن يجعلنا ندخل.

حقًّا، لقد كان ذلك ما حدث بسرعة مذهلة، فبعد دقيقة واحدة كنا في غرفة استقبال على غرار قصص ألف ليلة وليلة؛ فسيحة ومدهشة، شبه معتمة، يضيئها مصباح كهربائيورديٌّ صغير. وحينما رأيتُ السيدة شعرت بأنها كانت تبلغ من العمر ما يكفي لتتمتع به. نهضت من الأريكة عند دخولنا، فوجدتها ذات قوام فارع يليق بملكة، وجهها جميل لكنه يخلو من أي تعبير، ولها عينان إسبانيتان رائعتان كانتا تنظران إلينا بنظرات قاتلة. سألتنا وهي تُمسك بالورقة:

– ما هذا التطفل، وما هذه الرسالة المهينة؟

– لست بحاجة إلى الشرح يا سيدتي. فأنا واثق من أن ذكاءك يغنيني عن كل ذلك... وإنني أعترف بأن هذا الذكاء قد أخطأ لدرجة تدعو إلى الدهشة مؤخرًا.

– كيف هذا يا سيدي؟

– بافتراض أن فتواتك المأجورين يمكنهم أن يُخِيفوني ويدفعوني إلى التخلي عن عملي. فمن المؤكد أنه ما كان لرجل أن يختار هذه المهنة التي أمتهنها لو لم يكن ينجذب إلى ما فيها من أخطار. لقد كنتِ أنتِ إذن من دفعني لتحري قضية الشاب مابيرلي.

– ليست لدي أدنى فكرة عما تتحدث عنه. فماذا عساي أن أفعل بفتوات مأجورين؟

أشاح هولمز بوجهه ضجرًا ثم قال:

– أجل، لقد استهنتُ بذكائك. حسنًا، طاب مساؤك!

– انتظر! إلى أين أنت ذاهب؟

– إلى مركز شرطة سكوتلاند يارد.

ولم نكد نصل إلى منتصف الطريق حتى اعترضَت طريقنا وأمسكت بذراعه، وقد تحولَت فجأة من امرأة فولاذية إلى سيدة في غاية الرقة والنعومة. قالت:

– تفضلا بالجلوس أيها السادة. دعونا نناقش هذه المسألة. أشعر أن بإمكاني أن أكون صريحة معك يا سيد هولمز، فلديك مشاعر رجل نبيل، وما أسرع غريزة المرأة في اكتشاف ذلك! لذا سأعاملك كصديق

مقرب.

– لا أستطيع أن أعدك بالمثل يا سيدتي. إنني لا أمثل القانون، لكنني أمثل العدالة بالقدر الذي تسمح به قواي الواهنة. أنا مستعد للإصغاء، وسأخبرك بعد ذلك كيف سأتصرف.

– لا شك أنه كان من الحماقة أن أهدد رجلًا شجاعًا مثلك.

– ما كان حماقة بحق هو أنك وضعتِ نفسكِ في قبضة عصابة من الأوغاد الذين قد يبتزونك أو يَشُون بكِ.

– لا، لا! إنني لست بهذه السذاجة. وبما أنني وعدت بأن أكون صريحة، فيجب أن أقول إنه ليس لدى أحد منهم أدنى فكرة عمن أستأجرهم، عدا بارني ستوكديل وزوجته سوزان. أما عن بقيتهم.. حسنًا، هذه ليست أول...

ثم ابتسمت وأومأت برأسها بود وفتنة ودلال.

– فهمت.. لقد اختبرتِ ولاءهم من قبل.

– إنها كلاب صيد مطيعة تطارد فريستها في صمت.

– هذه الكلاب المطيعة قد تعض –عاجلًا أو آجلًا– اليد التي تطعمها. وسوف يُقبض عليهم بسبب جريمة السطو هذه، فالشرطة تلاحقهم بالتأكيد.

– إنهم يتقاضون أجرًا مقابل ذلك، ولن يرد اسمي في أوراق القضية.

– هذا إن لم أذكره أنا.

– لا، لا، لن تفعل ذلك، فأنت رجل نبيل، وهذا سر امرأة.

– يجب عليكِ أولًا أن تعيدي هذا المخطوط الكتابي.

وانفجرت في نوبة من الضحك وسارت متجهة إلى المدفأة، حيث كانت هناك كتلة متفحمة أخذت تفتتها بقضيب المدفأة، ثم تساءلت قائلة:

– هل سأعيد هذا؟

كم كانت تبدو في غاية المكر والدهاء، وهي تقف أمامنا وتبتسم ابتسامة تحدٍّ، حتى إنني شعرت بأنها من بين كل المجرمين الذين واجههم هولمز الأكثر صعوبة في مواجهتها. غير أن هولمز كان محصنًا ضد العاطفة. قال ببرود:

– هذا يحسم مصيرك. إنكِ متسرعة للغاية في تصرفاتك يا سيدتي، لكنك تجاوزتِ الحد هذه المرة.

وهنا ألقت بقضيب المدفأة على الأرض، فأصدر سقوطه صوت قرقعة حادة، ثم صاحت قائلة:

– كم أنت قاسٍ! هل لي أن أخبرك بالقصة كاملة؟

– أظن أنه بإمكاني أن أخبركِ بها بنفسي.

– لكن يجب أن تراها بعيني أنا يا سيد هولمز. يجب أن تعيها من وجهة نظر امرأة ترى طموح حياتها بأكمله على وشك أن يدمَّر في آخر لحظة. فهل يمكن إلقاء اللوم على هذه المرأة لو حاولَت حماية نفسها؟

– أنتِ من أخطأت منذ البداية.

– نعم، نعم! أعترف بهذا. لقد كان دوجلاس فتى محببًا وعزيزًا، لكن تصادف أنه لم يكن يتلاءم مع خططي؛ فقد أراد الزواج –الزواج يا سيد هولمز– أرادني أن أتزوج رجلًا مفلسًا من عامة الشعب. لم يكن ليرضى بأقل من هذا؛ ومن ثم أخذ يتحول لشخص لحوح متصلب الرأي. ولأنني كنت أمنحه نفسي اعتقد أن عليَّ أن أستمر في ذلك، وأن أكون مخلصة له وحده. كان هذا لا يطاق. وصار يتحتم عليَّ في النهاية أن أجعله يدرك ذلك.

– باستئجار مجرمين لكي يضربوه أسفل نافذتك.

– يبدو أنك تعرف كل شيء حقًّا. حسنًا، هذا صحيح. لقد أبعده بارني والفتيان عني، وأعترف بأنهم كانوا قساة بعض الشيء، لكن ما الذي فعله حينها! لم أكن أصدق أن رجلًا نبيلًا يمكن أن يقوم بهذا التصرف. لقد كتب كتابًا يسرد فيه قصته. وبالطبع كنت أنا الذئب وهو الحمل، لقد كتب كل شيء، لكنه استخدم أسماء مختلفة بطبيعة الحال، لكن من كان سيعجز عن فهم الأمر في لندن بأسرها؟ ما رأيك في هذا يا سيد هولمز؟

– حسنًا، هو لم يرتكب خطأً.

– بدا وكأن هواء إيطاليا قد تسلل إلى دمائه وجلب معه الروح الإيطالية القديمة القاسية، فقد كتب لي خطابًا وأرسل معه نسخة من كتابه؛ حتى أعاني من عذاب الترقب لما سيحدث. قال لي إن هناك نسختين، واحدة لي، والأخرى للناشر.

– وكيف عرفتِ أن نسخة الناشر لم تصل إليه؟

– كنت أعرف الناشر الذي يتعامل معه، فأنت تعلم أن هذه ليست روايته الوحيدة. ثم اكتشفتُ أنه لم يتلق شيئًا من إيطاليا. بعد ذلك جاءت وفاة دوجلاس المفاجئة. ولم أنعم بالأمان؛ لأن النسخة الأخرى كانت لا تزال موجودة في مكان ما من العالم. ولا شك أنها ستكون بين أغراضه التي ستعود إلى أمه؛ لهذا جعلتُ العصابة تباشر عملها. فدخلت واحدة منهم إلى المنزل بصفتها خادمة. أردت أن أنجز هذا الأمر بسِلميَّة، أردت ذلك حقًّا، كنتُ مستعدة لشراء المنزل بكل ما فيه، وكنتُ سأدفع أي مبلغ تطلبه والدته، ولم ألجأ إلى الطريقة الأخرى إلا بعد فشل كل المحاولات الأولى. والآن يا سيد هولمز أعترف بأنني كنت قاسية جدًّا مع دوجلاس –ويعلم الله كم أنا نادمة على هذا!– لكن ما الذي يمكنني فعله وأنا أرى مستقبلي على المحك؟

هز شيرلوك هولمز كتفيه، ثم قال:

– حسنًا، حسنًا، أعتقد أنني سأضطر إلى تسوية هذه الجناية كالمعتاد. كم يتكلف السفر في رحلة حول العالم في الدرجة الأولى؟

أخذت السيدة تحدّق في دهشة.

– هل من الممكن أن يتكلف هذا خمسة آلاف جنيه؟

– نعم، أعتقد ذلك!

– ممتاز، أعتقد أن عليكِ أن تحرري شيكًا بهذا المبلغ، وسأوصله إلى السيدة مابيرلي؛ فأنت مدينة لها بالقليل من تغيير الجو.

ثم رفع هولمز سبابته محذرًا وقال:

– وفي الوقت نفسه كوني حذرة يا سيدتي! كوني حذرة! فلا يمكن أن تستمري في اللعب بأدوات حادة من دون أن تصاب تلك اليدان الرقيقتان بأي أذى.

الجمالون هو الجزء الأعلى من المثلث، ويستخدم هذا المصطلح في الهندسة المعمارية لتعريف نوع من الأسقف للبيوت والمباني القرميدية.

قضية مصاصة دماء ساسكس

قرأ هولمز بإمعان رسالة من آخر بريد وصله، ثم، ومع ضحكته الساخرة التي كانت أقرب طرقه للضحك، قذفها لي وقال:

– إذا أردنا تكوين مزيج من العصر الحديث والعصور الوسطى وبين ما هو عملي وما هو مغرق في الخيال فستكون هذه هي النتيجة بكل تأكيد. ما رأيك في هذا يا واتسون؟

قرأت ما يلي:

(46 شارع أولد جيوري،

19 من شهر نوفمبر.

فيما يتعلق بموضوع مصاصي الدماء

سيدي المحترم:

«إن عميلنا السيد روبرت فيرجسون، صاحب شركة فيرجسون وميورهيد، سماسرة تجارة الشاي بشارع مينسينج لين، قد أرسل إلينا رسالة يستفسر فيها عن مصاصي الدماء. ونظرًا لأن شركتنا متخصصة فقط في تقييم الآلات وهذا الأمر ليس في نطاق اختصاصنا، لذلك أوصينا السيد فيرجسون بأن يزورك ويعرض الأمر عليك. فنحن لم ننسَ أداءك الناجح في قضية ماتيلدا بريجز.

وتفضل بقبول فائق الاحترام».

موريسون، وموريسون، ودود

من شركة إي. جي. سي).

قال هولمز بنبرة توحي بأنه قد تذكر شيئًا:

– إن ماتيلدا بريجز لم يكن اسم فتاة يا واتسون، بل كان اسم سفينة لها علاقة ما بفأر جزيرة سومطرة العملاق، إنها قصة لم يستعد لها العالم بعد، ولكن ما الذي نعرفه عن مصاصي الدماء؟ وهل يعتبر هذا ضمن اختصاصنا أيضًا؟ إن أي شيء أفضل من هذا الركود، ولكن يبدو أننا قد تحولنا بالفعل إلى قصة خيالية من حكايات جريم. امْدُدْ ذراعك يا واتسون وانظر إلى هذه القضية البادئة بحرف الراء.

تراجعت إلى الوراء وأنزلت المجلد الكبير الذي أشار إليه. فوضعه هولمز فوق ركبته، وأخذت عيناه تتحركان ببطء على سجل القضايا القديمة المليء بالمعلومات المجمعة على مدار حياته. قرأ هولمز العناوين الآتية:

– «رحلة جلوريا سكوت» كانت هذه قضية غامضة. أذكر أنك قد دونتها يا واتسون، ولكنني لم أتمكن من تهنئتك على النتيجة. «المزور فيكتور لينش»، «وحش جيلا أو السحلية السامة» إنها قضية استثنائية! «فيكتوريا؛ حسناء السيرك»، «فاندربيلت والمختلس»، «الأفاعي»، «السيد فيجور؛ أعجوبة منطقة هامرسميث» عجبًا! عجبًا! يا لها من قائمة رائعة للقضايا القديمة، لا يمكنك أن تأتي بنظير له، استمع لهذا يا واتسون: «مصاصو الدماء في هنجاريا»، وأيضًا «مصاصو الدماء في ترانسلفانيا».

كان يقلب الصفحات بحماس ولهفة، ولكن بعد فترة قصيرة من القراءة المتمعنة، ألقى المجلد الضخم بخيبة أمل، وقال:

– هراء يا واتسون، هراء! ما الذي يجب علينا فعله مع جثث تسير على أقدامها ولا يمكن السيطرة عليها إلا بطعنها بأوتاد في قلوبها ووضعها في قبورها؟ هذا جنون محض.

قلت:

– ولكن مصاص الدماء ليس بالضرورة أن يكون رجلًا ميتًا، أليس كذلك؟ فيمكن لشخص حي أن يفعل الشيء نفسه. فقد قرأت، على سبيل المثال، عن كبار السن الذين يمصون دم الصغار من أجل استعادة شبابهم.

– أنت محق يا واتسون، إن هذه الأسطورة مذكورة في أحد المراجع هنا. ولكن هل علينا أن نوليِّ اهتمامًا جادًّا لمثل هذه الأشياء؟ إن موقفنا واضح حيال هذا النوع من القضايا، ويجب أن نبقى كذلك. فالعالم كبير بما يكفي بالنسبة إلينا، ولا حاجة للأشباح فيه. أخشى أننا لن نستطيع أن نأخذ السيد روبرت فيرجسون على محمل الجد. من المحتمل أن هذه الرسالة كانت منه وربما تلقي بعض الضوء على ما يقلقه.

تناول هولمز رسالة أخرى كانت فوق الطاولة لم يلاحظها لأنه كان منهمكًا في قراءة الرسالة الأولى. أخذ يقرأها وعلى وجهه ابتسامة مرحة التي راحت تتلاشى تدريجيًّا لتتحول إلى تعابير اهتمام وتركيز شديدين. وعندما انتهى من قراءتها جلس لبعض الوقت مستغرقًا في التفكير والرسالة تتدلَّى بين أصابعه. ثم تحرك فجأة موقظًا نفسه من شروده وقال:

– منزل تشيزمان، في لامبيرلي. أين تقع لامبيرلي يا واتسون؟

– إنها في مقاطعة ساسكس، في جنوب مدينة هورشام.

– ليست بعيدة جدًّا، أليس كذلك؟ وماذا عن منزل تشيزمان؟

– أعرف هذه البلدة يا هولمز، إنها مليئة بالمنازل القديمة التي تحمل أسماء الرجال الذين بنوها منذ قرون. فهناك منزل أودلي، ومنزل هارفي، ومنزل كاريتن، لقد نُسي هؤلاء القوم لكنّ أسماءهم لا تزال تعيش في منازلهم.

قال هولمز ببرود:

– بالضبط.

كانت هذه واحدة من الخصال المميزة في طبيعته الهادئة المتحفظة المعتدة، ورغم قدرته على استيعاب أي معلومة جديدة بهدوء ودقة شديدين، لكنه كان من النادر أن يقدّم أيَّ شكرٍ أو اعترافٍ بالجميل لمن أمده بها. قال:

– أعتقد أننا يجب أن نعرف المزيد عن منزل تشيزمان في لامبيرلي قبل أن نخوض في الأمر. إن الرسالة من روبرت فيرجسون كما كنت آمل. وبالمناسبة، يدّعي أنه يعرفك معرفة شخصية.

– يعرفني أنا!

– من الأفضل أن تقرأها بنفسك.

أعطاني الرسالة، وكانت كالتالي:

عزيزي السيد هولمز:

لقد أوصاني محاميَّ باللجوء إليك، ولكن الأمر في الواقع حساس للغاية بشكل استثنائي لدرجة أنه من الصعب جدًّا مناقشته. إن الأمر يتعلق بصديق أعمل لصالحه. لقد تزوج هذا السيد منذ خمس سنوات تقريبًا من سيدة من جمهورية بيرو، وهي ابنة تاجر بيروفي كان قد التقى به من أجل استيراد سماد النترات. كانت السيدة جميلة جدًّا، ولكن دائمًا ما كانت حقيقة أصلها الأجنبي وديانتها الغريبة تتسبب في فصل الاهتمامات وبتر المشاعر بينها وبين زوجها، ولهذا ربما قد فَتَر حبه تجاهها بعد مُدة، وربما قد وصل به الأمر إلى اعتبار ارتباطهم غلطة. فقد أحس أن هناك جوانب من شخصيتها لن يستطيع أبدًا أن يكتشفها أو يفهمها. كان هذا أكثر الأشياء إيلامًا بالنسبة إليها لأنها تحب زوجها بدرجة كبيرة جدًّا، كما كانت -بحسب ما بدا من تصرفاتها- مخلصة تمامًا.

والآن بخصوص النقطة التي سأوضحها أكثر عندما نلتقي، فإن هذه الرسالة في واقع الأمر هدفها إعطاؤك فكرة عامة عن الموقف والتأكد مما إذا كنت ستوافق على أن تهتم بالقضية. بدأت تظهر على السيدة بعض الصفات الغريبة والمغايرة تمامًا لطبعها للمعتاد الذي يتسم باللطف والرقة. لقد سبق وتزوج هذا السيد مرتين ولديه ابن واحد من زوجته الأولى. هذا الفتى الآن في الخامسة عشرة من عمره، وهو شاب جذاب وحنون للغاية، ولكنه مع الأسف أُصيب بجرح إثر تعرُّضه لحادث في طفولته. وقد تم ضبط الزوجة مرتين وهي تعتدي على هذا الفتى المسكين دون أي مبرر أو سبب مفهوم. حتى إنها ضربته مرة بعصا تركت أثرًا كبيرًا على ذراعه. ولكن هذه تعتبر مسألة بسيطة إذا تمت مقارنتها بسلوكها تجاه ابنها هي، طفل صغير لم يكمل عامه الأول. في إحدى المرات منذ شهر تقريبًا تركته مرضعته لبضع دقائق، فتعالت صرخات الطفل الرضيع، وكأنها صرخات ألم، مما جعل المرضعة تعود مرة أخرى. وعندما دخلت الغرفة رأت ربة عملها، السيدة، منحنية فوق الرضيع تعض رقبته فيما يبدو. كان هناك جرح صغير في رقبته ينزف سيلًا من الدم. ارتعبت الممرضة وأرادت استدعاء الزوج، ولكن السيدة طلبت منها ألا تفعل ذلك وأعطتها خمسة جنيهات ثمنًا لسكوتها. ولم يتم تقديم أي تفسير على الإطلاق لما حدث، وتم التجاوز عن الأمر في ذلك الحين.

لكن الأمر قد ترك أثرًا مريعًا في ذهن المرضعة، ومنذ ذلك الوقت أخذت تراقب سيدتها من كثب وتُبقِي عينيها على الرضيع -الذي كانت تحبه كثيرًا- وتحاول حراسته. بدا لها أنها عندما كانت تراقب الأم، كانت الأم تراقبها أيضًا، وأنها في كل مرة اضطرت فيها إلى ترك الرضيع وحده كانت الأم تنتظر لتنال منه. كانت المرضعة تحمي الطفل الرضيع ليل نهار، بينما الأم الهادئة المترقبة الحذرة تبدو وكأنها ذئب يجلس متربصًا في انتظار حمل وديع. من المؤكد أن هذا سيبدو لك شيئًا لا يُصدق، ومع ذلك أتوسل إليك أن تأخذ الأمر على محمل الجد، لأن حياة طفل وسلامة عقل رجل قد يعتمدان على ذلك.

وفي النهاية جاء يوم رهيب، يوم لم يعد من الممكن بعده الاستمرار في إخفاء الحقيقة عن الزوج. لقد انهارت أعصاب المرضعة، فلم تعد قادرة على تحمل الضغط، واعترفت بكل شيء للرجل. ولكن الأمر بالنسبة إليه بدا كحكاية خيالية، كما قد يبدو لك الآن. فقد كان يعرف أن زوجته امرأة حنونٌ رقيقة الطبع، وباستثناء ضربها لابن زوجها، دائمًا ما كانت أمًّا حنونًا. فلماذا إذن قد تؤذي ابنها الصغير

العزيز؟ فقال للمرضعة إنها كانت تحلم، وإن شكوكها تلك ما هي إلا جنون محض، وإنه لن يتسامح مع مثل هذه الافتراءات على سيدتها. وبينما كانا يتحدثان سمعا صرخة ألم مفاجئة، فهرعت المرضعة والسيد معًا إلى حجرة نوم الرضيع. ولك أن تتخيل إحساسه يا سيد هولمز عندما رأى زوجته وهي تنهض من وضع ركوع بجانب سرير الطفل والدم على رقبته المكشوفة وعلى مُلاءة السرير. فصرخ برعب وهو يدير وجه زوجته إلى الضوء ورأى الدم حول شفتيها. كانت هي -دون أي شك- التي شربت دم الطفل الرضيع المسكين.

هذا ما وصل إليه الأمر، هي الآن محتجزة في حجرتها، ولا يوجد تفسير لما حدث. أما الزوج فأصبح الآن شبه مجنون، فلا هو ولا أنا نعرف عن مصاصي الدماء أكثر من الاسم. كنا نظن أنها حكاية خيالية من بلاد بعيدة. ولكن هنا في قلب مقاطعة ساسكس الإنجليزية نفسها! حسنًا، هذا يمكن أن أناقشه معك في الصباح، فهل ستقابلني؟ هل ستُسخّر قدراتك العظيمة في مساعدة رجل متحير؟ إذا كنت ستفعل، فتكرم بإرسال برقية إلى فيرجسون، في منزل تشيزمان، لامبيرلي، وسأكون في منزلك عند الساعة العاشرة صباحًا.

وتفضل بقبول فائق الاحترام.

روبرت فيرجسون.

ملحوظة: أعتقد أن صديقك واتسون كان يلعب الرجبي في فريق بلاكهيث عندما كنت ألعب في مركز الجناح مع فريق ريتشموند. هذا التعريف الشخصي الوحيد الذي يمكنني تقديمه عن نفسي.

فقلت وأنا أضع الرسالة:

- لقد تذكرته بالطبع. إنه بوب فيرجسون الضخم، أفضل جناح اتخذه فريق ريتشموند على الإطلاق. دائمًا ما كان رجلًا ودودًا حسن الطبع. وليس غريبًا عليه أن يكون قلقًا للغاية بشأن قضية صديق له.

نظر إليَّ هولمز وهز رأسه وقال:

- إنني لا أحيط بحدود قدراتك أبدًا يا واتسون. فما زال لديك قدرات غير مكتشفة. أرسل برقية إذن كصديق مخلص، وقل فيها: سأحقق في قضيتك بكل سرور.

- قضيتك!

- يجب ألا ندعه يظن أن هذا المنزل هو مقر لضعاف العقول. إنها قضيته بالتأكيد. أرسل إليه هذه البرقية ولنكف عن الحديث حول هذا الأمر حتى الصباح.

في تمام الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي دخل فيرسجون غرفتنا بخطوات واسعة. كنت أذكر أنه كان رجلًا طويلًا، ذا أطراف مرنة الحركة، وقدرة ممتازة على الجري السريع تمكنه من التفوق على العديد من مدافعي الفرق المنافسة. بالتأكيد لا يوجد في الحياة ما هو أشد ألمًا من مقابلة حطام لاعب رياضي ممتاز كان المرء قد عرفه وهو في أوج تألقه. فقد أصاب الوهن جسده القوي، وانحسر شعره الأشقر، وتقوس ظهره. أخشى أنني قد أثرت في نفسه مشاعر مماثلة. قال:

- مرحبًا يا واتسون.

وكان صوته لا يزال عميقًا ودودًا. ثم تابع قائلًا:

– إنك لا تبدو الرجل نفسه الذي كنته عندما رميتك إلى الجمهور من فوق الحبال في منتزه أولد دير. أتوقع أنني قد تغيرت قليلًا أيضًا. ولكن هذا اليوم أو اليومين الأخيرين هما ما أهرماني. لقد فهمت من برقيتك يا سيد هولمز أنه لا فائدة من التظاهر بأنني نائبٌ عن أي شخص آخر.

قال هولمز:

– من الأسهل أن يتم التعامل بطريقة مباشرة.

– بالطبع إنه كذلك. ولكن يمكنك أن تتخيل مدى صعوبة الأمر عندما تتحدث عن المرأة الوحيدة التي يجب عليك حمايتها ومساعدتها. ماذا يمكنني أن أفعل؟ كيف لي أن أذهب إلى الشرطة وأخبرهم بقصة كهذه؟ وعلاوة على ذلك يجب حماية الرضيع. هل هذا جنون يا سيد هولمز؟ هل مرت بك أي حالة مشابهة خلال تجاربك؟ بحق السماء، أعطني نصيحة، فإنني في حيرة كبيرة من أمري وليس بيدي أي حيلة.

– هذا طبيعي جدًّا يا سيد فيرجسون. الآن اجلس هنا وتمالك نفسك وأعطني بعض الإجابات الواضحة. ويمكنني أن أوكد لك بأنني بعيد كل البُعد عن الوقوع في الحيرة. وأنني أثق بأننا سنجد حلًّا. أولًا، أخبرني بالخطوات التي اتخذتها. هل لا تزال زوجتك قريبة من الولدين؟

– إننا في موقف مروع. إنها امرأة حنون للغاية يا سيد هولمز. ولو كانت هناك امرأة أحبت رجلًا من صميم قلبها وأعماق روحها لكانت هي في حبها لي. لقد انفطر قلبها لأنني اكتشفت هذا السر الرهيب الذي لا يصدقه عقل. إنها لم تتكلم حتى، لم تعطِ أي رد على لومي وتوبيخي لها، سوى أنها حدقت إلى وجهي بنظرة خوف واليأس في عينيها، ثم هرعت إلى غرفتها وحبست نفسها بالداخل. ومنذ ذلك الحين وهي ترفض رؤيتي، ولكن لديها خادمة كانت معها من قبل زواجها، اسمها دولوريس، وهي أقرب لصديقة من كونها خادمة، وهي مَن تحمل إليها طعامها.

– إذن فلا يوجد خطر مباشر على الطفل، أليس كذلك؟

– لقد أقسمت السيدة ميسن، المرضعة، أنها لن تتركه، وأنها ستظل تحرسه ليلًا ونهارًا، إنني أثق بها تمامًا، ولكنني قلق أكثر بشأن جاك المسكين الصغير، فكما أخبرتك في الرسالة قد تعرض للاعتداء من قبلها مرتين.

– لكنها لم تسبب له أي جروح، صحيح؟

– لا، ولكنها ضربته ضربًا مبرحًا، وهذا هو الأكثر فظاعة لأنه مُقعد مسكين مسالم.

رقت ملامح فيرجسون الكئيبة عندما تحدث عن ابنه:

– كنت ستعتقد أن حالة الفتى من شأنها أن تجعل قلب أي شخص يرق، لقد سقط وهو طفل صغير والتوى عموده الفقري يا سيد هولمز، لكنه يحمل قلبًا من أطيب وأحن ما يمكن.

كان هولمز قد التقط رسالة الأمس وأخذ يقرأها. قال:

– مَن يعيش في منزلك غير هؤلاء يا سيد فيرجسون؟

– اثنان من الخدم لم يمضِ على وجودهما معنا وقت طويل، وسائس يدعى مايكل وهو يبيت في المنزل. وأنا، وزوجتي، وابنَاي جاك، والرضيع، ودولوريس، والسيدة ميسن. هذا كل شيء.

– على حد علمي أنك لم تكن تعرف زوجتك جيدًا عندما تزوجتما، صحيح؟

– عرفتها قبل الزواج بأسابيع قليلة فقط.

– منذ متى وهذه الخادمة دولوريس ترافقها؟

– منذ بضع سنوات.

– إذن فإن دولوريس تعرف شخصية زوجتك أكثر منك، أليس كذلك؟

– بلى، يمكنك قول هذا.

دوّن هولمز ملحوظة، ثم قال:

– أتخيل أن وجودي في لامبرلي قد يكون أكثر نفعًا من وجودي هنا. إنها قضية غريبة ويجب أن أحقق فيها بنفسي. لو بقيت السيدة في حجرتها، فإن وجودنا لن يزعجها أو يضايقها، سنقيم في نُزل على أي حال.

– هذا ما كنت أتمناه يا سيد هولمز. هناك قطار ممتاز سينطلق في الساعة الثانية من محطة فيكتوريا إذا أمكنك القدوم.

– سنأتي بكل تأكيد. ثمة فترة ركود هذه الأيام، وبإمكاني أن أمنحك كل طاقتي وجهودي كاملة. وسيأتي واتسون معنا بالطبع. لكنّ ثمّة نقطةً أو نقطتَيْن أود التأكد منهما قبل أن أبدأ، من الواضح أن هذه السيدة التعيسة، كما فهمت، قد تعدّت على كلا الولدين، طفلها الرضيع وابنك الصغير، صحيح؟

– نعم، هذا صحيح.

– ولكن تلك الاعتداءات اتخذت أشكالًا مختلفة، أليس كذلك؟ فقد ضربت ابنك مرة بالعصا ومرة بعنف شديد بيديها. ألم توضح سببًا لضربها له؟

– لا شيء سوى أنها تكرهه. لقد قالت هذا مرارًا وتكرارًا.

– حسنًا، هذا ليس غريبًا على زوجات الآباء، يمكننا أن نقول إنها غيرة من الأيتام. هل هذه السيدة غيور بطبيعتها؟

– نعم، إنها غيور جدًّا، غيور بقدر حبها الناري الملتهب.

– ولكن الفتى يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، بحسب ما فهمت، وهو على الأرجح ناضج التفكير إلى حد كبير، نظرًا لكونه مقيد الحركة. ألم يقل لك أي سبب لهذه الاعتداءات؟

– لا، لقد صرّح بأنه لم يكن هناك سبب.

– هل كانت علاقتهما جيدة في أي وقت سابق؟

– لا، لم يكن بينهما أي حب على الإطلاق.

– ولكنك تقول بأن الفتى حنون مع ذلك؟

– لا يمكن أن يكون في هذا العالم ابن في حنانه وإخلاصه، فإن حياتي هي حياته، إنه يهتم كثيرًا بما

أقول وأفعل.

دوّن هولمز ملاحظة أخرى، وجلس لفترة غارقًا في التفكير، ثم قال:

– لا شك أنك أنت والفتى كنتما رفيقَيْن رائعَيْن قبل هذا الزواج الثاني. لقد كنتما مقربَيْن من بعضكما بعضًا للغاية، أليس كذلك؟

– بلى، لقد كنا شديدي القرب.

– ومن المؤكد أن الفتى ذا الطبع الحنون كان مخلصًا لذكرى والدته، صحيح؟

– غاية الإخلاص.

– بالطبع يبدو أنه فتى مثير جدًّا للاهتمام. لكنّ هناك نقطة أخرى أود معرفتها حول هذه الاعتداءات. هل كانت الاعتداءات الغريبة على الرضيع والاعتداءات على ابنك في الوقت نفسه؟

– في المرة الأولى كان الأمر كذلك، كان الأمر وكأن نوبة من الجنون قد سيطرت عليها، وراحت تصب غضبها على كل منهما. أما في المرة الثانية، فكان جاك وحده من تعرض للأذى، حيث إن السيدة ميسن لم تكن لديها أي شكوى بشأن الرضيع.

– إن ذلك يُعقِّد الأمور أكثر بالتأكيد.

– أنا لا أفهمك جيدًا يا سيد هولمز.

– ربما لا يكون الأمر كما يبدو عليه. فالمرء يبني تصورات مؤقتة وينتظر أن يكذبها الوقت أو المعرفة الأوفى. إنها عادة سيئة يا سيد فيرجسون، ولكن هذه طبيعة الإنسان؛ ضعيف. أخشى أن يكون صديقك القديم هنا قد أعطاك فكرة مبالغ فيها عن أساليبي العلمية. ومع ذلك، لن أقول في المرحلة الحالية سوى أن مشكلتك لا تبدو لي غير قابلة للحل، ويمكنك أن تتوقع وصولنا إلى محطة فيكتوريا في الساعة الثانية.

كان مساء يوم ضبابي غائم من أيام شهر نوفمبر، حينما تركنا حقائبنا في فندق تشيكرز في لامبيرلي، وسرنا بعربة فوق طين ساسكس في طريق ضيق متعرج وطويل إلى أن وصلنا أخيرًا إلى المنزل الريفي العتيق المنعزل الذي يسكنه فيرجسون. كان مبنى ضخمًا غريب التصميم، مركزه يبدو قديمًا جدًّا، أما أجنحة المنزل فكانت حديثة، مع مداخن شاهقة على الطراز التيودوري، وسقف شديد الانحدار مصنوع من أخشاب مدينة هورشم ومبقع بالأشنيات[8]. كانت عتبات الباب بالية لدرجة ظهور تعاريج وانحناءات عليها. وكان البلاط العتيق المرصوف في رواق المنزل موسومًا برسمٍ لقطعة جبن على هيئة المالك الأصلي للمنزل. أما في الداخل، فكان السقف مضلع بعوارض من خشب أشجار السنديان الثقيل، والأرضيات غير مستوية وبها منحنيات حادة، تنتشر رائحة العتاقة والبلى في جميع أرجاء المبنى المتداعي.

توجد غرفة كبيرة جدًّا في وسط المنزل، أخذنا فيرجسون إليها، بها مدفأة ضخمة قديمة الطراز لها حاجز حديدي محفور عليه عام «1670»، وتتوهج فيها نار باهرة.

رحت أحدق النظر إلى أنحاء الغرفة، فقد كانت مزيجًا فريدًا للغاية من العصور والأماكن. الجدران المغطاة بالألواح الخشبية حتى أنصافها تعود على الأرجح إلى أحد المزارعين الأصليين من مُلاك الأراضي

صغيرة المساحة في القرن السابع عشر، ورغم ذلك فإن أجزاءها السفلية مزخرفة بخطوط من الألوان المائية الحديثة المختارة بعناية، بينما في الأعلى، حيث كان الجص الأصفر يحل محل خشب السنديان، كانت هناك مجموعة فاخرة من الأواني والأسلحة من أمريكا الجنوبية، جلبتها السيدة البيروفية الموجودة في الطابق العلوي بلا شك. نهض هولمز، يحركه الفضول الذي انبثق سريعًا من عقله المتلهف الشغوف، وأخذ يفحصها بشيء من الحذر، وعاد وعيناه مليئتان بالأفكار، وصاح قائلًا: «مرحى! مرحى!».

كان هناك كلب صغير من نوع كوكر الإسباني يرقد في سلة في زاوية الغرفة، تقدم ببطء نحو سيده وهو يسير بصعوبة. كانت رجليه تتحركان بطريقة غير منتظمة وذيله يلمس الأرض، ثم أخذ يلعق يد فيرجسون. سأله هولمز:

– ما خطب الكلب؟

– هذا هو ما حير الطبيب البيطري، إنه نوع من الشلل. يعتقد أنه التهاب سحايا الحبل الشوكي، لكنه مؤقت، سيكون بخير قريبًا، صحيح يا كارلو؟

سرت رعشة في ذيل الكلب المتدلي دليلًا على الموافقة، وأخذت عيناه الحزينتان ترمقاننا واحدًا تلو الآخر. كان يعرف أننا نتناقش بشأن حالته. سأله هولمز مرة أخرى:

– هل حدث هذا له فجأة؟

– بين ليلة وضحاها.

– منذ متى؟

– منذ نحو أربعة أشهر.

– هذا جدير جدًّا بالملاحظة، ويوحي لي ببعض الأفكار.

– ما الذي تراه في هذا يا سيد هولمز؟

– تأكيدًا لما كنت أعتقده بالفعل.

– بحق السماء، أخبرني ما الذي تعتقده يا سيد هولمز؟ قد يكون الأمر بالنسبة إليك مجرد لغز يستلزم الذكاء والتفكير، ولكنه يعتبر مسألة حياة أو موت بالنسبة إليَّ! فإن زوجتي قد تصبح قاتلة، وطفلي في خطر دائم! لا تعبث بي يا سيد هولمز. إن الأمر جادٌّ وخَطِرٌ للغاية.

كان جسد لاعب الرجبي الضخم كله يرتجف، فوضع هولمز يده بلطف على ذراعه، وقال:

– أخشى أن الأمر قد يسبب لك شعورًا بالألم يا سيد فيرجسون، مهما كانت طبيعة حل القضية، فإنني سأفعل كل ما بوسعي لكي أجنبك الألم بقدر الإمكان. لا يمكنني قول المزيد الآن. ولكن قبل أن أغادر هذا المنزل، آمل أنني قد أستطيع الحصول على شيء حاسم.

– أدعو الله أن تحصل عليه! استميحكما عذرًا أيها السيدان، سأصعد إلى غرفة زوجتي وأرى إن كان هناك أي تغيير قد حدث.

غاب السيد فيرجسون لبضع دقائق، وفي هذه الأثناء استأنف هولمز فحص الأشياء المثيرة للفضول المعلقة على الجدار. وعندما عاد مضيفنا كان واضحًا على ملامح وجهه الحزينة أنه لم يحرز أي تقدم، ولكنه أحضر معه فتاة طويلة ونحيلة سمراء البشرة. قال فيرجسون:

– الشاي جاهز يا دولوريس، تأكدي أن سيدتك لديها كل ما تريده.

فصاحت الفتاة وهي ترمق سيدها بنظرات غاضبة وقالت:

– إنها مريضة للغاية، ولا تريد الطعام. إنها مريضة وتحتاج إلى طبيب. أخاف أن أبقى معها وحدي دون طبيب.

نظر إليَّ فيرجسون وفي عينيه سؤال. فقلتُ:

– سأكون سعيدًا جدًّا إذا استطعت المساعدة.

فأشار للفتاة:

– هل يمكن لسيدتكِ أن ترى الدكتور واتسون؟

فقالت:

– سأصطحبه إليها.

تبعتُ الفتاة التي كانت ترتجف من شدة انفعالها، صعدنا الدرج، ثم سرنا عبر رواق عتيق، وكان في آخره باب ضخم مغلق بإحكام بأقفال حديدية، لقد صدمني عندما رأيته، فإذا حاول فيرجسون اقتحامه ليصل إلى زوجته فلن يجد الأمر سهلًا. أخرجت الفتاة مفتاحًا من جيبها، فإذا بألواح السنديان الثقيلة تصدر صريرًا وهي تتحرك على مفصلاتها العتيقة القديمة. دخلتُ، وتبعتني الفتاة فورًا بالدخول وأحكمت إغلاق الباب خلفها.

وجدت المرأة مستلقية على السرير وكان من الواضح أنها تعاني حُمى شديدة، لم تكن في كامل وعيها، لكن ما إن دخلت حتى فتحت عينيها الجميلتين برغم خوفهما، وحدقت إليَّ بقلق وتوجس. ولما رأت أنني شخص غريب، بدت وكأنها اطمأنّت، فتنهدت ثم غاصت في الوسادة مرة ثانية. تقدمت نحوها وأخذت أُطمْئِنها ببعض الكلمات، فاستلقت ساكنة بينما كنت أقيس نبضها ودرجة حرارتها. كان كلاهما مرتفعًا، ولكنني ظننت أن شدة انفعالها هي السبب، وأن حالتها لم تكن ناتجة عن نوبة مرضية حقيقية.

قالت الفتاة:

– إنها ترقد هكذا منذ يوم أو يومين، أخشى أن تموت.

أدارت السيدة وجهها المتورد الجميل نحوي وقالت:

– أين زوجي؟

– إنه في الأسفل ويتمنى أن يراكِ.

– لن أراه، لن أراه.

ثم بدت وكأنها تهيم في هذيان الحمى وقالت:

– شيطان! شيطان! ماذا عساي أن أفعل مع إبليس كهذا؟

– هل أستطيع مساعدتك بأي طريقة؟

– لا. لا أحد يستطيع تقديم مساعدة، لقد انتهى الأمر، وانهدم كل شيء. ماذا أفعل؟ لقد دُمر كل شيء.

لا بد أن المرأة كان لديها نوع من التوهُّمات الغريبة، فأنا لم أستطع تصور الرجل الشريف بوب فيرجسون شيطانًا أو شريرًا. قلت:

– سيدتي، إن زوجك يحبك كثيرًا، وهو يشعر بحزن وأسى عميقين لحدوث هذا.

فأدارت عينيها الرائعتين نحوي مرة أخرى، وقالت:

– نعم. إنه يحبني. ولكن ألا أحبه أنا أيضًا؟ ألا أحبه لدرجة أن أضحي بنفسي لكيلا أكسر قلبه الغالي؟ ذلك مقدار حبي له، ومع ذلك استطاع أن يظن بي... استطاع أن يقول عني هذا.

– إنه في غاية الأسى، ولكنه لا يفهم الأمر.

– لا، لا يمكنه أن يفهم ولكن كان عليه أن يثق.

قلت مقترحًا:

– ألن تَرِيه؟

– لا، لا، فأنا لا أستطيع أن أنسى تلك الكلمات الفظيعة ولا تلك النظرة في عينيه. لن أراه. اذهب الآن، فلا يمكنك فعل أي شيء من أجلي. أخبره بشيء واحد فقط، أريد ابني. من حقي أن آخذ ابني. هذه هي الرسالة الوحيدة التي يمكنني أن أرسلها إليه.

ثم أدارت وجهها إلى الحائط ولم تقل أي شيء آخر. فعدت إلى الغرفة في الطابق السفلي، حيث كان فيرجسون وهولمز لا يزالان جالسين بجوار المدفأة. ومن ثم أخذ فيرجسون يستمع إليّ في كآبة وأنا أحكي ما حدث في لقائي بها. ثم قال:

– كيف يمكنني أن أرسل إليها الطفل؟ كيف لي أن أعرف أي اندفاع غريب قد يعتريها؟ كيف لي أن أنسى أنها قد نهضت من جانبه ودمه على شفتيها؟

ارتجف وهو يتذكر ما حدث، ثم تابع قائلًا:

– إن الطفل بأمان مع السيدة ميسن، ويجب أن يبقى معها.

أحضرت لنا خادمة حسنة المظهر –وكانت هي الشيء الوحيد ذات المظهر العصري الذي رأيناه في هذا المنزل– بعض الشاي. وعندما كانت تقدمه لنا، فُتح الباب ودخل شاب إلى الغرفة. كان فتى رائعًا، شاحب الوجه، أشقر الشعر، له عينان زرقاوان اتقدتا ببريق مفاجئ من العاطفة والفرح عندما رأى أباه. فاندفع نحوه وطوق رقبته بذراعيه بحماسة فتاة عاشقة، وصاح قائلًا:

– يا إلهي، لم أكن أعرف أنك كنت على وشك الوصول يا أبي. كان يجب عليَّ أن أكون هنا لأستقبلك. آه، كم أنا سعيد لرؤيتك!

حرر فيرجسون رقبته برفقٍ من عناق ابنه وقد بدا عليه قليل من الارتباك. ثم قال وهو يربت على شعره الأشقر بلمسات رقيقة:

– ولدي الغالي، لقد جئت مبكرًا لأن صديقيَّ، السيد هولمز والدكتور واتسون، قد وافقَا على زيارتنا وقضاء ليلة معنا.

– هل هذا هو السيد هولمز المُحقق؟

– نعم.

رمقنا الشاب بنظرات ثاقبة جدًّا، وبدت لي أنها غير ودود كذلك. سأل هولمز قائلًا:

– وماذا عن ابنك الآخر يا سيد فيرجسون؟ هل يمكننا أن نتعرف إلى الرضيع؟

قال فيرجسون:

– اطلب من السيدة ميسن أن تُحضر الرضيع.

فخرج الفتى متباطئًا في مشيته بشكل لافت للنظر، فأنبأت مشيته عيني الجراح بداخلي أنه كان يعاني ضعفًا في العمود الفقري. ثم عاد في الحال، ودخلت بعده مباشرة امرأة طويلة نحيلة، تحمل بين ذراعيها طفلًا في غاية الجمال، له عينان داكنتان، وشعر ذهبي، يمثل مزيجًا رائعًا للعرقَيْن اللاتيني والساكسوني. من الواضح أن فيرجسون كان شديد التعلق به، حيث حمله بين ذراعيه وأخذ يداعبه بحنان بالغ.

ثم تمتم وهو ينظر إلى أثر الجرح الصغير الملتهب فوق عنق الطفل الذي يبدو كالملاك البريء قائلًا:

– تخيَّلا أن أحدًا قد طاوعه قلبه على أن يؤذيه!

ألقيت نظرة على هولمز في هذه اللحظة وبدت لي تعبيرات وجهه شديدة الغرابة وكأنه ينوي فعل شيء استثنائي. فقد كان وجهه جامدًا وكأنما قد نُحِت من عاج عتيق، أما عيناه اللتان نظرتا إلى الأب وطفله للحظة، راحتا الآن تتركزان بفضول شديد على شيء ما في الجانب الآخر من الغرفة. ولما تبعت نظرته لم يسعني إلا أن أخمن أنه كان ينظر عبر النافذة إلى الحديقة الكئيبة التي تبللها قطرات المطر. صحيح أن أحد مصراعي النافذة كان مواربًا يعيق الرؤية، ولكن مع ذلك كان من المؤكد أن النافذة هي ما كان هولمز يصب عليها تركيز انتباهه. ومِن ثَم ابتسم وعادت عيناه مرة أخرى تنظران إلى الرضيع. حيث العلامة المتغضنة الصغيرة على رقبته الممتلئة، فأخذ يتفحصها بعناية دون أن ينطق بكلمة. وأخيرًا، صافح إحدى قبضتي الرضيع الصغيرة اللتين كانتا تلوحان أمامه، وقال:

– وداعًا أيها الرجل الصغير، لقد بدأت حياتك بطريقة غريبة. أيتها المرضعة، أرجو أن أتحدث معكِ على انفراد.

وقف هولمز مع المرضعة جانبًا وأخذ يتكلم بجدية لبضع دقائق. لم أتمكن من سماع سوى الكلمات الأخيرة، حيث قال: «آمل أن قلقك سيزول قريبًا». ومِن ثَم انصرفت المرأة –التي كان يبدو عليها أن لها شخصية حادة قليلة الكلام– ومعها الرضيع. تساءل هولمز قائلًا:

– أي نوع من النساء هي السيدة ميسن؟

– ليست ودودًا جدًّا ظاهريًّا، كما ترى، ولكنّ لها قلبًا من ذهب، وهي متعلقة بالطفل كثيرًا وتكرس نفسها لرعايته.

التفت هولمز فجأة إلى الفتى وسأله قائلًا:

– أتحبها يا جاك؟

فانطفأ وجهه المعبر الذي سريعًا ما تتغير تعبيراته مع تغيّر مشاعره، وهز رأسه. قال فيرجسون وهو يطوق الفتى بذراعه:

– إن جاك يبدي رأيه حول ما يحب وما يكره بقوة ووضوح بالغ. لحسن الحظ أنني واحد من الأشياء التي يحبها.

أخذ الفتى يتمتم بكلمات حب ورأسه مسنود إلى صدر أبيه. فتحرر فيرجسون منه بلطف، ثم قال:

– هيا، اذهب يا صغيري جاكي.

وراح يراقب ابنه بعيون تملؤها الحب إلى أن توارى. ثم تابع حديثه بعدما رحل الفتى وقال:

– والآن يا سيد هولمز، أشعر حقًّا أنني قد أضعت وقتك بجعلك تأتي إلى هنا، فما الذي عساك فعله سوى أن تتعاطف معي؟ لا بد أنها مسألة حساسة ومعقدة للغاية من وجهة نظرك.

فقال صديقي بابتسامة مرحة:

– إنها حساسة بلا شك، ولكنني لم أرَ تعقيدها بعد. لقد كانت قضية استنتاج عقلي، ولكن عندما يتم تأكيد كل نقطة من نقاط هذا الاستنتاج العقلي الأولي نقطة تلو الأخرى عن طريق عدد لا بأس به من الوقائع المستقلة، عندئذ يصبح الشيء الذاتي موضوعيًّا، ويمكننا القول بثقة إننا قد وصلنا إلى غايتنا. في الواقع، كنت قد وصلت إليها قبل أن نغادر شارع بيكر، والباقي لم يكن سوى ملاحظة وتأكيد.

وضع فيرجسون يده الضخمة على جبهته المليئة بالتجاعيد، وقال بصوت مبحوح:

– بحق السماء يا هولمز، لو كنت تعرف حقيقة هذا الأمر، فلا تبقِني في تلك الحالة من القلق والحيرة. كيف لي أن أتحمل؟ ماذا عساي أن أفعل؟ لا يهمني أي شيء يتعلق بكيفية وصولك إلى الحقيقة، ما دُمت حقًّا قد توصلت إليها.

– لا شك أنني أدين لك بتفسير، وستحصل عليه. ولكن هل ستسمح لي بأن أتعامل مع الأمر بطريقتي الخاصة؟ هل يمكن للسيدة أن تقابلنا يا واتسون؟

– إنها مريضة، ولكنها في كامل قواها العقلية.

– ممتاز. فلا يمكننا توضيح الأمر إلا في وجودها، دعونا نصعد إليها.

فصاح فيرجسون قائلًا:

– هي لا تريد رؤيتي.

قال هولمز:

– أوه، لا، ولكنها ستفعل.

وبسرعة كتب هولمز بعض السطور على ورقة، ثم أضاف:

– على الأقل أنت يا واتسون يمكنك الدخول، فهل تتكرم بإعطاء تلك الرسالة إلى السيدة؟

فصعدت ثانيةً وسلمت الرسالة إلى دولوريس التي فتحت لي الباب بحذر. وبعد دقيقة سمعت صرخة

من الداخل، صرخة بدت وكأنها قد امتزج فيها الفرح والاندهاش. ثم فتحت دولوريس الباب وقالت:

– ستقابلهما، ستسمح لهما.

فاستدعيت فيرجسون وهولمز وصعدا إلى الأعلى. وعندما دخلنا إلى الغرفة، خطا فيرجسون خطوة أو خطوتين تجاه زوجته التي اعتدلت في جلستها في السرير، ولكنها مدت يدها تصده بها، فانهار جالسًا على أحد الكراسي، بينما جلس هولمز بجانبه بعد أن انحنى ليحيي السيدة التي كانت تنظر إليه في دهشة بعينيها الواسعتين. قال هولمز:

– أعتقد أن لا حاجة لوجود دولوريس هنا الآن، يمكننا أن نعفوها من الحضور. آه، حسنًا يا سيدتي، إذا كنتِ تفضلين بقاءها فلا مانع من هذا. والآن يا سيد فيرجسون، إنني رجل مشغول ولدي الكثير من الاستدعاءات، فلا بد أن يكون أسلوبي مختصرًا ومباشرًا. إن الجراحة الأسرع هي الأقل إيلامًا. دعني أولًا أقول ما سيريح بالك: إن زوجتك امرأة طيبة للغاية، وحنونٌ جدًّا، ومظلومة جدًّا.

فاعتدل فيرجسون في جلسته وصاح من شدة فرحه وقال:

– أثبِت ذلك يا هولمز، وسأكون مدينًا لك إلى الأبد.

– سأفعل ذلك، ولكن حينما أفعل لا بد لي أن أتسبب لك في جرح عميق من ناحية أخرى.

– لا يهمني شيء ما دمت ستُبرِّئ زوجتي، إن كل شيء آخر يبدو تافهًا مقارنة بذلك.

– دعني أخبرك إذن بتسلسل الاستنتاجات التي مرت بعقلي حينما كنت في شارع بيكر. لقد كانت فكرة وجود مصاص دماء فكرة سخيفة بالنسبة إليَّ، فمثل هذه الأشياء لا تقع ضمن الممارسات الإجرامية في إنجلترا. ولكن على الرغم من ذلك فإن ما رأيته كان صحيحًا، لقد رأيت السيدة تنهض من جانب سرير الرضيع والدم على شفتيها.

– صحيح، هذا ما رأيته.

– ألم يخطر ببالك أن ثمّة سببًا آخر قد يتم مصّ الجرح النازف لأجله؟ ألم يحدث في التاريخ الإنجليزي أن مصت إحدى الملكات جرحًا مثل هذا من أجل سحب السم منه.

– السم!

– أسرة من أمريكا الجنوبية. لقد أخبرني حدسي بوجود تلك الأسلحة المعلقة على الحائط قبل أن تراها عيناي. كان من الممكن أن يكون سمًّا آخر، لكن هذا هو ما خطر ببالي. وعندما رأيت الجَعبَة الفاغرة الصغيرة بجوار عش العصافير الصغير، كان هذا ما توقعت رؤيته بالضبط. فلو رُمي الرضيع بواحد من تلك الأسهم ذات الرؤوس المسممة بسم الكوار أو أي مخدر لعين آخر، لكان هذا يعني الموت إذا لم يمتص منه السم.

والكلب! فلو أراد المرء استخدام مثل هذا السم، ألن يجربه أولًا ليرى إذا ما كان تأثيره لا يزال فعّالًا؟ إنني لم أتنبأ بوجود كلب، ولكنني على الأقل أفهم ما جرى له، وقد تناسب وجوده مع تصوري لما حدث.

أفهمت الآن ما جرى؟ لقد كانت زوجتك تخشى مثل هذا الاعتداء. لقد رأت ما حدث وأرادت أن تنقذ حياة الطفل، ومع ذلك امتنعت عن إخبارك بالحقيقة كاملة، لأنها تعرف مدى حبك للفتى فخشيت أن

يُكسر قلبك.

- جاكي!

- لقد راقبته بينما كنت تداعب الرضيع منذ قليل، فقد كان وجهه ينعكس بوضوح على زجاج النافذة الذي بدا كالمرآة. لقد رأيت غيرة وكراهية شديدة؛ نادرًا ما رأيت مثلهما في وجه إنسان.

- ابني جاكي!

- عليك أن تواجه حقيقة الأمر يا سيد فيرجسون. وإن ما يجعل حقيقة الأمر أشد ألمًا، أن ما دفعه لفعل ذلك هو حب مشوَّه، حب جنوني ومبالغ فيه لك أنت، وربما لأمه المتوفاة. إن روحه ممتلئة بالكراهية لهذا الطفل الرائع الذي تقع صحته وجماله على النقيض مع ضعفه هو.

- يا إلهي، إنه أمر لا يصدق!

- هل ما قلته حقيقي يا سيدتي؟

كانت السيدة تبكي ووجهها مدفون في الوسادة، ثم التفتت إلى زوجها وقالت:

- كيف كنت سأخبرك يا بوب؟ كنت أعرف كيف سيكون وقع الأمر صعبًا عليك. كان من الأفضل أن أنتظر وأن تنطق بالحقيقة شفتا أحد غيري. وعندما كتب هذا السيد -الذي يبدو وكأنه يمتلك قوى سحرية- في رسالته أنه يعرف كل شيء، فرحت وارتاح قلبي.

قال هولمز وهو ينهض من كرسيه:

- أعتقد أن نصيحتي بالنسبة إلى السيد جاكي أن يقضي عامًا بجوار البحر. ولكنّ ثمّة شيئًا واحدًا لا يزال غامضًا يا سيدتي، فيمكننا أن نتفهم تمامًا سبب اعتداءاتك على السيد جاكي، فهناك حدود لصبر الأم، ولكن كيف جرؤت على ترك الطفل في اليومين الماضيين؟

- لقد أخبرت السيدة ميسن، إنها تعرف الحقيقة.

- بالضبط. هذا ما تصورته.

كان فيرجسون يقف بجانب السرير لا يستطيع أخذ أنفاسه ويداه ممدودتان وترتجفان. همس هولمز قائلًا:

- أظن أن هذا هو وقت رحيلنا يا واتسون. إذا كنت ستأخذ بإحدى ذراعي دولوريس المخلصة، فسآخذ بالأخرى.

ثم أضاف وهو يغلق الباب خلفه قائلًا:

- هيا، أعتقد أننا من الأفضل أن نتركهما لتسوية الباقي فيما بينهما.

لدي تعليق أخير على هذه القضية. إنها الرسالة التي كتبها هولمز كرد نهائي على تلك الرسالة التي بدأ بها سرد هذه القصة. وكانت كالآتي:

شارع بيكر،

21 من نوفمبر،

فيما يتعلق بموضوع مصاصي الدماء

سيدي:

بالإشارة إلى رسالتك المؤرخة في التاسع عشر من الشهر الجاري، أود أن أخبرك بأنني نظرت في طلب عميلك، السيد روبرت فيرجسون، صاحب شركة فيرجسون وميروهيد، سماسرة تجارة الشاي بشارع مينسينج لين، وأنه قد تم التوصل إلى نتيجة مرضية. وأتقدم لك بالشكر على ترشيحي لهذه المَهمة.

مع خالص الاحترام والتقدير.

شيرلوك هولمز.

عبارة عن كائنات مكونة من فطر وطحلب (شريكين) يعيشان معيشة تكافلية.

قضية ثلاثة رجال يحملون
اللقب جاريديب

ربما تكون القصة كوميدية، أو تكون مأساوية؛ فقد كلّفَت رجلًا عقله، وكلفَتني إراقة الدماء، كما كلفَت رجلًا آخر عقوبات بموجب القانون. ومع ذلك فمن المؤكد أنها تنطوي على عنصر كوميدي. حسنًا، ستحكمون بأنفسكم.

أذكر التاريخ جيدًا؛ لأنه كان في الشهر نفسه الذي رفض فيه هولمز الحصول على وسام الفروسية لقاء خدماته الجليلة. إنني أشير إلى الأمر إشارة عابرة فقط؛ لأن وضعي بصفتي شريكه وكاتم أسراره يحتم عليَّ توخي الحذر؛ لكي أتجنب ارتكاب أي حماقة. ولكنني أكرر، على أي حال، بأن هذا ما جعلني قادرًا على تحديد التاريخ. فقد كان ذلك في نهاية شهر يونيو من عام (1902)، بعد فترة قصيرة من انتهاء حرب جنوب إفريقيا. قضى هولمز عدة أيام في الفراش، كما كانت عادته من وقت لآخر، لكنه خرج في ذلك الصباح وفي يده ورقة مُسطّرة طويلة، وكانت عيناه الرماديتان الحادتان تلمعان ببريق ينمُّ عن إحساسه بالمتعة والحماس. قال:

– ثمة فرصة لكسب بعض المال يا صديقي واتسون. هل سمعت باسم جاريديب من قبل؟

– أعترف بأنني لم أسمع به قط من قبل.

– حسنًا، إذا تمكنت من العثور على شخص يدعى جاريديب، فستكسب المال.

– ولكن لماذا؟

– آه إنها قصة طويلة، بل وغريبة أيضًا، ولا أظن أننا خلال كل استكشافاتنا لتعقيدات النفس البشرية قد صادفنا أي شيء أكثر تفردًا وغرابة. سيصل أحد الشهود إلى هنا عما قريب؛ لكي نقوم باستجوابه، لذا فلن أتحدث عن المسألة حتى يأتي، وحتى ذلك الحين.. هذا هو الاسم الذي نريده.

كان دليل الهاتف موضوعًا بجانبي على الطاولة، فأخذت أقلِّبُ فيه في محاولة ميؤوس منها بدرجة ما؛ لأجل إيجاد الاسم، لكن لدهشتي وجدتُ هذا الاسم الغريب في مكانه الصحيح؛ فأطلقت صيحة لشدة فرحي بهذا الانتصار.

– ها هو ذا يا هولمز، إنه موجود هنا.

أخذ هولمز دليل الهاتف من يدي، وقرأ قائلًا:

– جاريديب، (ن، 136 شارع ليتل رايدر، و).

– آسف لإحباطك يا عزيزي واتسون، لكنه هو الرجل نفسه، وهذا هو العنوان الموجود في رسالته. نحن نريد رجلًا آخر يحمل الاسم نفسه.

دخلت السيدة هدسون حاملة صينية وموضوعًا عليها بطاقة، فأخذتها وألقيت عليها نظرة سريعة. صحت في ذهول قائلًا:

– عجبًا! ها هو ذا! إن الاسم الأول مختلف في هذا التوقيع: جون جاريديب، مستشار قانوني، مورفيل، كانساس، الولايات المتحدة الأمريكية.

فابتسم هولمز وهو ينظر إلى البطاقة وقال:

– أخشى أنك تحتاج إلى بذل مجهود إضافي يا واتسون. إن هذا الرجل هو حقًّا جزءٌ من المؤامرة، ومع أنني لم أكن أتوقع رؤيته هذا الصباح بالتأكيد، إلا إنه في موقف يسمح له بأن يخبرنا بالكثير مما أريد معرفته.

بعد لحظة، دخل السيد جون جاريديب إلى الغرفة، كان المستشار القانوني رجلًا قصيرًا قويًّا ذا وجه مستدير وذقن حليقة، وهو المظهر الذي يميز الكثير من أصحاب الأعمال الأمريكيين. وكان يبدو بوجه عام ممتلئ الجسم وطفولي المظهر، مما أعطى انطباعًا بصغر سنه، خاصة مع تلك الابتسامة العريضة التي ارتسمت على وجهه. إلا أن عينيه كانتا لافتتين للنظر، فنادرًا ما رأيتُ عينَي إنسانٍ مفعمتين بهذا القدر من الحياة، فقد كانتا مشرقتين للغاية ويقظتين جدًّا ومتجاوبتين تمامًا مع كل تحوُّل في أفكاره. كانت لهجته أمريكية، غير أن طريقة كلامه لم تكن غريبة بأي صورة من الصور. سأل وهو ينظر إلى هولمز ويقارنه مع صورته:

– سيد هولمز؟ آه نعم! إنك لا تختلف عما تبدو في صورك يا سيدي. إن صح لي أن أقول ذلك، أعتقد أنك تلقيت رسالة من السيد ناثان جاريديب الذي يحمل نفس اسمي، أليس كذلك؟

قال شيرلوك هولمز:

– أرجوك تفضل بالجلوس، أعتقد أن لدينا الكثير لنتناقش فيه.

ثم تناول الورقة مُسطّرة وتابع قائلًا:

– من المؤكد أنك السيد جون جاريديب المذكور في هذه الوثيقة، ولكنك بالتأكيد كنت موجودًا في إنجلترا منذ فترة، هل هذا صحيح؟

– لِمَ تقول ذلك يا سيد هولمز؟

وبدا لي أنني قرأت شكوكًا مفاجئة في تلكما العينين المعبرتين.

– إن زيَّك إنجليزي بالكامل.

ضحك السيد جاريديب ضحكة متكلفة وقال:

– لقد قرأت عن حيلك يا سيد هولمز، لكنني لم أكن أتصور أن أتعرض لواحدة منها. كيف عرفت ذلك؟

– قَصَّة كتف معطفك، وشكل مقدمة حذائك. كيف لأي شخص أن يشك في ذلك؟

– حسنًا، حسنًا، لم يكن لدي أي فكرة عن أن مظهري يبدو بريطانيًّا بهذه الدرجة من الوضوح، غير أن عملي دفعني إلى القدوم هنا منذ فترة، ولهذا كما تقول فملابسي كلها من لندن، على أي حال، أظن أن وقتك ثمينٌ جدًّا، وأننا لم نلتقِ لكي نتحدَّث عن قَصَّة معطفي. لندخل في موضوع الورقة التي تحملها بين يديك.

كان هولمز قد أزعج ضيفنا بدرجة ما، إذ بدت تعبيرات وجهه الممتلئ أقل ودية على نحو واضح. فقال صديقي بصوت هادئ:

– صبرًا! صبرًا يا سيد جاريديب! سيخبرك الدكتور واتسون بأن استطراداتي الصغيرة هذه تثبت في النهاية أن لها علاقة بالأمر. ولكن لماذا لم يأتِ السيد ناثان جاريديب معك؟

سأل ضيفُنا وهو يشتعل بنار غضبٍ مفاجئةٍ:

– وما الذي يُقحمك في هذه المسألة من الأساس؟ ما علاقتك بهذا الأمر بحق السماء؟ كان هناك بعض المعاملات المهنية بين رجلين، وكان يتحتَّم على واحد منهما أن يستدعي محققًا! لقد رأيته هذا الصباح، وقد أخبرني بهذه الحيلة الغبية التي لعبها عليَّ، ولهذا جئتُ هنا. لكنني أشعر بالسوء الآن حيال ذلك.

– ليس للأمر علاقة بك يا سيد جاريديب، لقد كان مجرد حماس من جانبه لكي تبلُغا غايتكما، وتلك الغاية –على حد علمي– هي على نفس القدر من الأهمية لكل منكما. وكان يعلم أن لدي وسائل للحصول على المعلومات؛ لذا كان من الطبيعي جدًّا أن يلجأ إليَّ.

بدأ الغضب يتلاشى تدريجيًّا عن وجه الضيف، ثم إذا به يقول:

– حسنًا، هذا يجعل الوضع مختلفًا. عندما ذهبتُ لرؤيته هذا الصباح أخبرني بأنه قد أرسل إلى المحقق، فسألت عن عنوانك وجئتُ على الفور. لا أريد أن تتدخل الشرطة، حيث أعدُّ المسألة خاصة بعض الشيء، لكن إن كنت موافقًا فقط على مساعدتنا في العثور على الرجل فلا ضرر من ذلك.

قال هولمز:

– حسنًا، وهو كذلك. والآن يا سيدي، بما أنك هنا، فمن الأفضل أن نستمع إلى الموضوع منك أنت شخصيًّا وبوضوح تام، فصديقي هنا لا يعرف شيئًا عن التفاصيل.

تفحصني السيد جاريديب محدقًا إليَّ بنظرة غير ودود على الإطلاق، وسأل هولمز قائلًا:

– هل يحتاج إلى أن يعرف الأمر؟

– نحن نعمل معًا في العادة.

– حسنًا، لا يوجد سبب لإبقاء الأمر سرًّا. سأخبركما بالوقائع باختصار بقدر الإمكان. إذا كنتما من أهل ولاية كانساس، فما كنت لأحتاج إلى أن أشرح لكما مَن كان ألكسندر هاملتون جاريديب. لقد جنى ثروته من العمل في مجال العقارات، وبعد ذلك من سوق بيع وتبادل القمح بشيكاجو، لكنه أنفقها في شراء الكثير من الأراضي الواقعة على طول نهر أركنساس، غرب فورت دودج، والتي قد تساوي في مساحتها إحدى المقاطعات هنا في إنجلترا. ومنها أراضٍ رعوية، وأخرى غنية بالأخشاب والمعادن، وكل نوع من هذه الأراضي يجلب الكثير من الأموال لصاحبه.

لم يكن لديه أقارب ولا أصدقاء، وإن كان عكس ذلك.. فلم أسمع بهم من قبل، لكنه كان فخورًا نوعًا ما بغرابة اسمه، وهذا ما جمعنا معًا. فقد كنت أدرس القانون في توبيكا، وفي أحد الأيام زارني رجل عجوز وكان سعيدًا ومستمتعًا جدًّا بمقابلة رجل آخر يحمل نفس الاسم. كان ذلك هوسه المفضل، وكان مستميتًا لمعرفة ما إذا كان هناك المزيد ممن يحملون اسم جاريديب في العالم. قال: «جِد لي شخصًا آخر يحمل نفس الاسم!» فأخبرته بأنني رجل مشغول ولا أستطيع أن أقضي حياتي في السفر حول العالم؛ بحثًا عن أشخاص آخرين يحملون اسم جاريديب، ولكنه قال: «هذا تمامًا ما ستفعله إذا سارت الأمور

كما خططت لها» اعتقدتُ أنه يمزح، لكن سرعان ما اكتشفت أن كلماته كانت تحمل العديد من المقاصد الراسخة، فقد مات بعد سنة من كلامه هذا تاركًا وصية، وكانت تلك أغرب وصية وُجِدت في ولاية كانساس. قُسِّمت ممتلكاته إلى ثلاثة أجزاء، وكان من المفترض أن أحصل على جزء منها، لكن كان هناك شرط واحد وهو أن أجد اثنين آخرين ممن يحملون اسم جاريديب، حيث سيتشاركان الجزأين الباقيين من ممتلكاته. كان نصيب كل منا يقدر بخمسة ملايين دولار، غير أننا لا نستطيع الحصول عليها حتى يجتمع ثلاثتنا.

كانت هذه فرصة عظيمة للغاية، لدرجة أنني تركتُ جانبًا عملي في القانون، وبدأت في البحث عن اثنين ممن يحملون اسم جاريديب. لم أجد أي شخص يحمل هذا الاسم في الولايات المتحدة، وقد بحثت فيها جيدًا يا سيدي لكنني لم أجد ولو شخصًا واحدًا. ثم جربت البحث في هذا البلد القديم، وكنت متأكدًا من أنني سأجد شخصًا ما في دليل الهاتف الخاص بلندن، وقد كان.. فسعيت خلفه مدة يومين وشرحت له المسألة بأكملها، لكنني وجدته رجلًا وحيدًا مثلي، له بعض الأقارب من النساء، لكن ليس فيهم رجال على الإطلاق. ومن شروط الوصية أن يكون هناك ثلاثة رجال بالغين، وكما ترى.. لا يزال هناك شخص ناقص، وإذا كان بإمكانك مساعدتنا في الوصول إليه فسنكون على أتم الاستعداد لنقدك رسومك.

قال هولمز بابتسامة:

– حسنًا يا واتسون، لقد قلتُ لك إنها قصة غريبة، أليس كذلك؟ كان يجدر بي أن أفكر يا سيدي أن الطريقة البدهية التي لجأت إليها – هي الإعلان في أعمدة الشكاوى في الصحف.

– نعم، هذا ما فعلته يا سيد هولمز، لكنني لم أتلقَ أي ردود.

– يا إلهي، حسنًا! إنها مشكلة صغيرة غير أنها من أكثر المشكلات غرابة بكل تأكيد. ربما أُلقي عليها نظرة في وقت فراغي. بالمناسبة.. من الغريب أنك أتيت من توبيكا؛ فقد كنت أتراسل مع شخص ما هناك، ولكنه متوفّى الآن، إنه د. ليساندر ستار العجوز، وقد كان عمدة البلدة في عام (1890).

فقال ضيفنا:

– د. ستار العجوز الطيب! لا يزال اسمه موضع تقدير. حسنًا يا سيد هولمز، أظن أن كل ما يمكننا فعله هو أن نبلغك بأي جديد نتوصل إليه. أعتقد أنك ستسمع منا خبرًا في غضون يوم أو اثنين.

– وبهذا التأكيد انحنى ضيفنا الأمريكي مُحييًا قبل أن يغادرنا.

أشعل هولمز غليونه وجلس لبعض الوقت وعلى وجهه ابتسامة غريبة. سألته أخيرًا:

– حسنًا! ماذا سنفعل؟

– أنا أتعجب يا واتسون، أتعجب وأتساءل فقط.

– عن ماذا؟

– أتعجب حول السبب الذي يدفع هذا الرجل لإخبارنا بمثل هذا الهراء وهذه الأكاذيب. كنت على وشك أن أسأله عن ذلك بوضوح؛ لأن هناك أوقاتًا يكون فيها الهجوم المباشر هو أفضل وسيلة، إلا أنني قررت أنه من الأفضل لو نجعله يعتقد بأنه قد نجح في خداعنا، إذ كان أمامنا رجل يرتدي معطفًا إنجليزيًّا

باليًا من عند المرفقين، وبنطالًا استمر يرتديه لسنة كاملة حتى صار مهترئًا عند الركبتين. ومع ذلك.. فبحسب هذه الوثيقة والقصة التي رواها، من المفترض أنه رجل أمريكي قروي وصل إلى لندن مؤخرًا، ولم تكن هناك أي إعلانات في أعمدة الشكاوى كما زعم، فكما تعلم أنا لا أفوت أي شيء يكتب فيها، فدائمًا ما تفيدني هذه الإعلانات في قضاياي، وليس من المحتمل أن أكون قد غفلت عن إعلان غريب ولافت كهذا. وعلاوة على ذلك، فأنا لم أعرف الدكتور ليساندر ستار من توبيكا قط. إن هذا الرجل كاذب في كل ما ادعاه. أعتقد بأنه أمريكي فعلًا، غير أن لهجته صارت أبسط بعد سنوات قضاها في لندن. فما لعبته إذن؟ وما الدافع وراء هذا البحث غير المنطقي عمن يحملون اسم جاريديب؟ إنه أمر يستحق الاهتمام، فإذا كنا نقول إن هذا الرجل محتال، فهو بالتأكيد محتال بارع وذو شخصية مركبة. يجب علينا الآن أن نعرف ما إذا كان مراسلنا الآخر محتالًا أيضًا. اتصل به يا واتسون.

اتصلتُ به، وسمعت صوتًا رفيعًا مرتعشًا على الطرف الآخر من الخط يقول:

– نعم، نعم، أنا السيد ناثان جاريديب. هل أنت السيد هولمز؟ أود التحدث إلى السيد هولمز.

فأخذ صديقي الهاتف وسمعتُ نصف الحوار بلهجة صديقي المعتادة.

– نعم، أنا شيرلوك هولمز. أفهم من ذلك أنك لا تعرفه... كم من الوقت...؟ يومان فقط! نعم، نعم، بالطبع، هي فرصة جيدة بلا شك. هل ستكون في المنزل هذا المساء؟ أتصور أن سميَّكَ لن يكون موجودًا، أليس كذلك؟ جيد جدًّا، سنأتي إذن، لأنني أفضل أن أتحدث معك في غيابه.. سيأتي الدكتور واتسون معي.. نعم، أفهم من ملاحظاتك أنك لا تخرج كثيرًا.. حسنًا، سنكون عندك في نحو الساعة السادسة. لا داعي لذكر هذا للمحامي الأمريكي.. جيد جدًّا. مع السلامة!

في غروب تلك الأمسية الربيعية الجميلة، ذهبنا حتى شارع ليتل رايدر، وهو أحد الشوارع الصغيرة المتفرعة من طريق إدجوير، الذي يمتد عبر القالب الحجري لشجرة تيبرن[9] القديمة ذات الذكريات السيئة، التي بدت ذهبية ورائعة تحت أشعة الغروب المائلة. وكان المنزل الذي وُجهنا إليه ضخمًا وقديمًا على طراز العصر الجورجي المبكر، له واجهة من الطوب لا يقطعها سوى نافذتين كبيرتين وبارزتين في الطابق الأرضي، اتضح أنه الطابق الذي يعيش فيه عميلنا، وكانت النافذتان الكبيرتان المنخفضتان هما واجهة الغرفة الكبيرة التي كان يقضي فيها ساعات يقظته. وفي أثناء مرورنا أشار هولمز إلى اللافتة النحاسية الصغيرة التي تحمل الاسم الغريب، وقال:

– إنها قديمة يا واتسون.

قال ذلك مشيرًا إلى تغير لون سطح اللافتة، وأضاف:

– إنه اسمه الحقيقي على أي حال، وهذا شيء جدير بالملاحظة.

كان درج المنزل رديئًا، وثَمَّ عدد من الأسماء المكتوبة على حائط الردهة، بعضها يشير إلى مكاتب وبعضها لغرف خاصة. لم يكن المبنى يضم شققًا سكنية، بل مساكن عزَّاب بوهيميين. فتح عميلنا الباب بنفسه واعتذر موضحًا أن المرأة المسؤولة عن المنزل غادرت منذ الساعة الرابعة. كان السيد ناثان جارديب طويلًا جدًّا، رشيق الحركة، مقوس الظهر، هزيلًا وأصلع، في نحو الستين من عمره. كان وجهه شاحبًا وبشرته باهتة كالأموات، أو كبشرة شخص لم يمارس أي تمارين رياضية من قبل. وكان يرتدي

نظارة مستديرة كبيرة، وله لحية صغيرة بارزة مثل لحية الماعز، كل ذلك مع مظهره الأحدب، منحه مظهر شخص فضولي. لكنه بدا لي شخصًا ودودًا بوجه عام، مع أنه كان غريب الأطوار.

كانت الغرفة غريبة على قدر غرابة السيد ناثان نفسه، بدت كأنها متحف صغير، فقد كانت واسعة وقاتمة ومليئة بالخزانات والدواليب في جميع الجهات، التي امتلأت بالعينات الجيولوجية والتشريحية، وعلى جانبي المدخل وُضعَت صناديق مليئة بالعث والفراشات. في حين وقفَت طاولة كبيرة في منتصف الغرفة عليها جميع أنواع الركام، كما انتصب عليها أنبوب نحاسي طويل يخص مجهرًا ضخمًا. دهشتُ وأنا ألقي نظرة على الغرفة؛ لشدة تنوع اهتمامات هذا الرجل، فقد رأيت صندوقًا من العملات القديمة وخزانة تحوي أدوات حجرية أيضًا. وخلف تلك الطاولة التي تتمركز في وسط الغرفة كانت هناك خزانة كبيرة مليئة بالعظام الأحفورية، يعلوها رفٌّ عليه صف من الجماجم المصنوعة من الجبس وأسماء مثل «نياندرتال[10]»، و«إنسان هايدلبيرغ[11]»، و«كرومبانيون[12]» مكتوبة على بطاقات ملصقة تحتها، إذ صار من الواضح أنه يدرس العديد من الموضوعات. وبينما كان واقفًا أمامنا أمسك في يُمناه بقطعة من جلد الشامواه تلتمع فوقها عملة معدنية. وفي أثناء إمساكه بها رفعها إلى أعلى موضحًا:

– إنها تعود لأفضل فترات مدينة سرقوسة، لقد تلف الكثير منها مؤخرًا، أرى أن هذه العملات السرقوسية هي الأفضل والأكثر تميزًا على الإطلاق، غير أن البعض يُفضِّل المدرسة الإسكندرانية. ستجد كرسيًّا هنا يا سيد هولمز، لكن اسمح لي أن أزيل عنه هذه العظام. وأنت يا سيد... آه، أقصد يا دكتور واتسون، أستسمحك أن تضع هذه المزهرية اليابانية جانبًا. ما تريانه من حولكما هي اهتماماتي البسيطة في الحياة. دائمًا ما يخبرني طبيبي عن ضرورة خروجي من المنزل، لكن لماذا أخرج ولدي الكثير ليبقيني هنا؟ أستطيع أن أؤكد لكما أن عملية فهرسة وافية لخزانة واحدة من هذه الخزانات، قد تستغرق مني ثلاثة أشهر كاملة.

نظر هولمز حوله في فضول، وقال:

– إذن أنت تقول بأنك لا تخرج أبدًا، أليس كذلك؟

– أستقلُ عربة بين الحين والآخر للذهاب إلى دار مزادات سوذبيز أو كريتستيز، وغير ذلك فإنني نادرًا ما أغادر غرفتي؛ فأنا لست قوي البنية، وأبحاثي العلمية تستغرق الكثير من الوقت والمجهود. لكن لك أن تتخيل يا سيد هولمز كيف كانت صدمتي رهيبة –مفرحة نعم، ولكن رهيبة– عندما سمعتُ عن هذه الثروة الكبيرة التي لا نظير لها. لا يبقى سوى أن نعثر على شخص واحد آخر يحمل اسم جاريديب لإتمام الأمر، ومن المؤكد أننا نستطيع إيجاده. كان لي أخ، ولكنه توفي، والأقارب من النساء مستبعدات؛ لأنهن غير مستوفيات للشروط، لكن لا بد أنه يوجد آخرون في العالم ممن يحملون هذا الاسم. لقد سمعتُ أنك تولّيت قضايا غريبة؛ ولهذا السبب أرسلت في طلبك. هذا السيد الأمريكي محق تمامًا بالتأكيد، وكان عليَّ أن آخذ بنصيحته منذ البداية، لكنني تصرفت على هذا النحو لمصلحة الجميع.

قال هولمز:

– أعتقد أنك تصرفت بحكمة بالغة بالتأكيد. لكن هل أنت متلهف حقًّا من أجل امتلاك عقارات في أمريكا؟

– بالطبع لا يا سيدي، لا شيء يمكنه أن يجعلني أترك مجموعتي. لكن هذا السيد أكد لي أنه سيشتري حصتي من الأملاك بمجرد بلوغ مقصدنا. إن المبلغ المحدد لكل منا هو خمسة ملايين دولار. يوجد في السوق في الوقت الحالي العشرات من النماذج والعينات التي أحتاج إلى أن أضيفها إلى مجموعتي حتى أكمِّلَ النقص وأسدَّ الفجوات، ولا يمكنني شراؤها حتى أحصل على بضع مئات من الجنيهات، فما بالك بما يمكنني فعله بخمسة ملايين من الدولارات! يا إلهي، عندها أستطيع أن أكوِّن مجموعة وطنية كاملة، سأصبح هانز سلون العصري.

لمعت عيناه وراء نظارته الكبيرة. كان من الواضح جدًّا أن السيد ناثان جاريديب لن يرتاح قبل أن يعثر على الرجل الثالث الذي يحمل اسم جاريديب. قال هولمز:

– لقد جئت لكي أتعرف إليك فقط، ولا يوجد سبب لأن أعطِّلك الآن عن أبحاثك. أفضِّل أن أكون على اتصال شخصي مع الذين أعمل معهم، وهناك بعض الأسئلة التي أحتاج إلى طرحها عليك، إنني ملمٌّ ببعض الأشياء، وقد أكملت ما كان ينقصني حين زارني السيد الأمريكي. أظن أنك لم تعلم بوجوده قبل هذا الأسبوع، أليس كذلك؟

– نعم، لقد أتى يوم الثلاثاء الماضي.

– هل أخبرك عن زيارته لي اليوم؟

– نعم، لقد جاء بعد عودته من عندك مباشرة، كان غاضبًا جدًّا قبل هذه الزيارة.

– وما الذي جعله غاضبًا؟

– كان يعتقد أن استعانتي بمحقق خاص يبدو وكأنه تشكيك في نزاهته، لكنه بدا سعيدًا جدًّا كما كان في البداية، إثر عودته من زيارتك.

– هل اقترح أي خطة للعمل؟

– لا يا سيدي، لم يفعل ذلك.

– هل أخذ أو طلب منك مالًا؟

– لا، إطلاقًا يا سيدي!

– ألا ترى أن هناك أي هدف محتمل يرمي إليه؟

– لا شيء، باستثناء ما يقوله.

– هل أخبرته عن موعدنا الذي حددناه عبر الهاتف؟

– نعم يا سيدي، أخبرته.

استغرق هولمز في التفكير، وبدا لي أنه في حيرة من أمره.

– هل لديك أي أشياء قيمة في مجموعتك؟

– لا يا سيدي، فأنا لست رجلًا ثريًّا، إنها مجموعة جيدة، لكنها ليست قيمة.

– ألا تخشى اللصوص؟

– لا، إطلاقًا.

– منذ متى وأنت تعيش في هذا المكان؟

– قرابة خمس سنوات.

قاطع استجواب هولمز صوت طرقات مُلحة على الباب. وما إن فتح موكلنا الباب حتى اندفع المحامي الأمريكي إلى الغرفة بحماس شديد. صاح وهو يمسك بجريدة ويلوح بها عاليًا:

– ها أنت ذا! فكرت في أنني يجب أن أصل في الوقت المحدد؛ لأضمن وجودك. السيد ناثان جاريديب، تهانيَّ! لقد أصبحت رجلًا ثريًّا يا سيدي، وها قد انتهى مسعانا بنهاية سعيدة وكل شيء على ما يرام. أما عنك يا سيد هولمز، فلا يسعنا إلا أن نقول إننا نعتذر منك، إذا كنا قد سببنا لك أي متاعب لا طائل منها.

سلم الجريدة إلى عميلنا الذي وقف يحدق إلى إعلان وضع عليه الأمريكي علامةً واضحة، في حين انحنيتُ أنا وهولمز نقرأ ما كُتِب في الإعلان من فوق كتفيه. وهذا ما ورد فيه:

«هاورد جاريديب

مهندس آلات زراعية

آلات حرث وحصاد بخارية ويدوية، وحفارات، وجرافات، وعربات للمزارعين، وحناطير، وجميع الآلات والأدوات الأخرى.

حساب نسب الآبار الارتوازية.

العنوان: مباني جروفينور، أستون، برمنجهام».

شهق مضيفنا قائلًا:

– رائع! ها قد وجدنا ثالثنا.

فقال الأمريكي:

– لقد أجريتُ تحريات في برمنجهام، وأرسل إليّ عميلي هناك هذا الإعلان من الجريدة المحلية. يجب أن نسرع ونتمم الأمر. لقد راسلتُ هذا الرجل وأخبرته بأنك سوف تقابله في مكتبه غدًا بعد الظهر، في تمام الساعة الرابعة.

– هل تريدني أن أقابله؟

– ما رأيك يا سيد هولمز؟ ألا ترى أن ذهابه سيكون أكثر حكمة؟ فأولًا وأخيرًا أنا رجل أمريكي متجول يقص حكاية مدهشة وغريبة، فلماذا سيصدق ما سأقوله له، لكن أنت بريطاني ولك أصول عريقة، لذا فسيأخذ ما تقوله على محمل الجد. يمكنني أن آتي معك –إن كنت ترغب في ذلك– لكن يومي غدًا سيكون حافلًا بالأشغال؛ لذا سألحق بك في حال واجهتك أي متاعب.

– حسنًا، لكنني لم أقم برحلة مثل هذه منذ سنوات.

– إن الأمر بسيط يا سيد جاريديب، وقد رتبت لك كل ما ستحتاج إليه. ستغادر بالقطار في الثانية عشرة ظهرًا، وستصل إلى هناك بعد بقليل، كما يمكنك العودة في الليلة نفسها. كل ما عليك فعله هو أن تقابل الرجل وتوضح له الأمر، ثم تحصل منه على إفادة خطية تثبت أنه موجود على قيد الحياة.

ثم أضاف بلهجة حادة:

– يا إلهي! لو وضعنا في عين الاعتبار أني جئت من قلب أمريكا قاطعًا كل هذه المسافة، فمن المؤكد أن سفرك لمئة ميل لا يعدُّ شيئًا لو قارناه بما فعلته أنا لبلوغ غايتنا.

قال هولمز:

– هذا صحيح. أعتقد أن ما يقوله هذا الرجل صحيح تمامًا.

هز السيد ناثان جاريديب كتفيه بكآبة وقال:

– حسنًا، إذا كنتَ مُصِرًّا فعليَّ الذهاب إذن. من الصعب أن أرفض لك أي طلب؛ إذ أضع في عين الاعتبار هذا الأمل الكبير الذي جلبته إلى حياتي.

قال هولمز:

– إذن فقد تم الاتفاق. ومما لا شك فيه أنك ستبلغني بكل جديد في أقرب وقت.

قال الأمريكي:

– سأحرص على ذلك.

ثم أضاف وهو ينظر في ساعته:

– حسنًا، يجب عليَّ الذهاب. سآتي إليك في الغد يا سيد ناثان؛ حتى أوصلك إلى المحطة. أأنت ذاهب مثلي يا سيد هولمز؟ حسنًا، إلى اللقاء إذن، وقد يكون لدينا أخبار سارة لك غدًا.

لاحظت كيف صفا وجه صديقي حين غادر السيد الأمريكي، وأن نظرة الحيرة العميقة قد اختفت منه، قال:

– كنت أتمنى لو أنني أستطيع إلقاء نظرة على مجموعتك يا سيد جاريديب، ففي مهنتي تكون كل أشكال المعرفة الغريبة مفيدة بصورة ما، وغرفتك هذه هي مثل مستودع لتلك المعلومات.

أشرق وجه عميلنا بالسرور، ولمعت عيناه من وراء نظارته الكبيرة وهو يقول:

– لطالما سمعت يا سيدي أنك رجل ذكي جدًّا، يمكنني أن آخذك في جولة الآن إذا كان لديك الوقت.

– مع الأسف ليس لدي وقت، لكن هذه الأشياء في مجموعتك مرتبة، ومصنفة تصنيفًا دقيقًا لدرجة أنها لا تحتاج إلى توضيح. أظن أنك لن تعترض لو جئت غدًا لألقي نظرة سريعة عليها، أهذا صحيح؟

– ليس لدي مانع أبدًا، مرحبًا بك في أي وقت. سيكون المكان مغلقًا بالتأكيد لأنني لن أكون هنا، لكن السيدة سوندرز ستكون في البدروم حتى الساعة الرابعة وستدخلك بمفتاحها.

– حسنًا، لن أكون مشغولًا بعد ظهر غد. سأكون شاكرًا لو أبلغت السيدة سوندرز بأنني آتٍ. بالمناسبة، مَن هو سمسار تأجير العقارات الذي استأجرت منه هذا المكان؟

دُهش عملينا لهذا السؤال المفاجئ.

– مكتب هولواي وستيلي في طريق إدجوير. لكن لماذا تسأل هذا السؤال؟

فقال هولمز ضاحكًا:

– إنني أبدو كعالم آثار عندما يتعلق الأمر بالمنازل، كنت أتساءل أهذا المنزل يرجع إلى العصر الجورجي أم عصر الملكة آن؟

– الجورجي بلا شك.

– حقًّا؟ كنت أظنه أقدم قليلًا. على أي حال، ها قد تأكدت من الأمر بسهولة. حسنًا، إلى اللقاء يا سيد جاريديب، وأتمنى لك التوفيق في رحلتك إلى برمنجهام.

كان مكتب تأجير العقارات قريبًا، لكننا حين ذهبنا إليه وجدناه مغلقًا في هذا اليوم، لذلك عدنا إلى شارع بيكر. ولم يتحدث هولمز حول الأمر إلا بعد العشاء. قال:

– إن مشكلتنا الصغيرة على وشك أن تُحل. لا شك أنك قد كونت تصورًا عن الحل في ذهنك.

– أنا لا أعرف لهذا الأمر رأسًا من ذيل.

– إن الرأس واضح بما فيه الكفاية، أما الذيل فسنكتشفه في الغد. ألم تلاحظ شيئًا غريبًا في ذلك الإعلان؟

– لاحظت أن كلمة «جرافات» مكتوبة بطريقة خاطئة إملائيًّا.

– آه، لقد لاحظت ذلك، صحيح! إنك تتطور طوال الوقت يا واتسون. نعم، إنها مكتوبة بإملاء خاطئ عند البريطانيين، لكنها قواعد الإملاء الأمريكية الصحيحة. لقد قام عامل المطبعة بطباعة الإعلان تمامًا كما استلمه من صاحبه. ثم إن كلمة (buckboards: حناطير) هي كلمة أمريكية أيضًا. كما أن عبارة «الآبار الارتوازية» هي أكثر شيوعًا في أمريكا منها هنا. إنه إعلان أمريكي خالص، ومع ذلك فهو يزعم أنه من شركة إنجليزية، فما قولك في ذلك؟

– لا يسعني إلا أن أفترض أن هذا المحامي الأمريكي هو من وضع الإعلان بنفسه، لكنني لا أفهم الهدف من ذلك.

– حسنًا، توجد تفسيرات عدة، أولها أن هذا الأمريكي أراد أن يرسل الرجل العجوز الطيب إلى برمنجهام، هذا أمر واضح. كان من الممكن أن أخبره بأن رحلته ستكون بلا جدوى، لكن عندما فكَّرتُ ثانية، بدا لي من الأفضل أن أتركه يذهب. الغد يا واتسون.. حسنًا، الغد سيكشف عن خباياه.

استيقظ هولمز وخرج باكرًا في الصباح التالي، وعندما عاد في وقت الغداء، لاحظتُ أن وجهه كئيب للغاية. قال:

– إن الأمر أكثر خطورة مما كنت أتوقع يا واتسون. عليَّ أن أحذرك. مع أنني أعلم أن هذا سيكون سببًا إضافيًّا لأن تُقحم نفسكَ في المخاطر؛ فإنني بتُّ أعرفك جيدًا الآن، لكن الأمر محفوف بالمخاطر، ويجب أن تعرف ذلك.

– حسنًا. إنها ليست المرة الأولى التي نعمل فيها معًا يا هولمز، وأتمنى ألا تكون الأخيرة. فما الخطر المتوقع هذه المرة؟

– نحن أمام قضية صعبة للغاية. لقد اكتشفت أن السيد جون جاريديب، المستشار القانوني، ليس إلا المجرم القاتل إفانز المعروف بشرِّه ودمويته.

– أخشى أنني لم أفهم شيئًا.

– آه، إنه ليس من طبيعة مهنتك أن تحفظ نسخة من سجلات الجريمة في ذاكرتك. لقد ذهبت لرؤية صديقنا ليستراد في شرطة سكوتلاند يارد، ومع أن خيالهم ضيق وحدسهم ضعيف بعض الشيء، إلا أنهم سيأتون في صدارة العالم من حيث الدقة والمنهجية. وقد واتتني فكرة وهي أن أتحرى عن صديقنا الأمريكي في سجلاتهم. وكما توقعت، وجدت وجهه السمين يبتسم لي من بين صور المحتالين وقد كُتِب أسفل صورته: «جيمس وينتر، اسمه المستعار موركروفت، ومعروف بإيفانز القاتل».

سحب هولمز مظروفًا من جيبه وتابع قائلًا:

– لقد دونت بضع النقاط من ملفه: سِنه أربعة وأربعون عامًا، من مواليد شيكاغو، وعُرف بأنه أطلق النار على ثلاثة رجال في الولايات المتحدة، وهرب من السجن عن طريق نفوذه السياسي. وجاء إلى لندن عام (1893)، وأطلق النار على رجل في أثناء شجار على أوراق اللعب في ملهى ليلي على طريق واتراو في يناير عام (1895) مات الرجل، وثبت أن إيفانز هو مَن بدأ الشجار. وتبين أن القتيل كان رودجر بريسكوت، المشهور بتزوير، وتزييف العملات في شيكاغو. أُطلق سراح إيفانز القاتل في (1901)، وظل تحت مراقبة الشرطة منذ ذلك الحين، لكن المعروف عنه الآن أنه يعيش حياة شريفة. إنه رجل خَطِر جدًّا، عادة ما يحمل سلاحًا ويكون على أتم الاستعداد لاستخدامه. هذا هو خصمنا إذن، وهو خصم مسلٍّ، عليك الاعتراف بذلك.

– لكن ما هي خطته؟

– حسنًا، لقد بدأت معالم الخطة تنكشف، لقد ذهبت إلى مكتب تأجير العقارات، وتأكدت من كلام عميلنا من أنه بالفعل يعيش هناك منذ خمس سنوات، وقد ظل هذا المنزل غير مؤجر لمدة عام كامل قبل أن يسكنه. كان المستأجر السابق سيدًا محترمًا بوجه عام ويدعى والدرون. وكان من في المكتب يتذكرون مظهر السيد والدرون جيدًا. وقد اختفى فجأة ولم يُسمع عنه أي شيء مرة أخرى. كان رجلًا طويل القامة وله لحية وبشرة داكنة. وكان بريسكوت، الرجل الذي أطلق إيفانز القاتل عليه النار، وفقًا لسجلات شرطة سكوتلاند يارد، رجلًا طويل القامة أيضًا، وله لحية وبشرة داكنة. وبصورة مبدئية، أعتقد أنه بإمكاننا الافتراض أن المجرم الأمريكي بريسكوت كان يسكن في الغرفة نفسها التي يخصصها الآن صديقنا العجوز لمتحفه. وكما ترى، ها قد حصلنا على حلقة وصل!

– وماذا عن حلقة الوصل التالية؟

– حسنًا، علينا أن نذهب الآن لنبحث عنها.

أخذ هولمز مسدسًا من الدرج، وأعطاه لي ثم قال:

– معي مسدسي المفضل القديم. إذ علينا أن نكون مستعدين لو حاول صديقنا الأمريكي المتوحش أن يعود لممارساته القديمة.

سأمنحك ساعة من أجل القيلولة يا واتسون، وبعدها لا بد أن ننطلق في مغامرتنا في شارع رايدر.

كانت الساعة الرابعة بالضبط عندما وصلنا إلى منزل ناثان جاريديب الغريب، وكانت السيدة ساوندرز مشرفة المنزل على وشك المغادرة، لكنها لم تتردد في إدخالنا. ثم سمعنا قفلًا يُغلق، ووعد هولمز

بأنه سوف يتأكد من أن كل شيء على ما يرام قبل مغادرتنا. وبعد ذلك بوقت قصير، أُغلق الباب الخارجي، ورأينا قبعتها تمر بجوار النافذة، فعرفنا أننا أصبحنا وحدنا في الطابق السفلي من المنزل. قام هولمز بتفتيش المكان على نحو سريع. كانت هناك خزانة واحدة في ركن مظلم من الغرفة منتصبة بعيدًا قليلًا عن الحائط. جثمنا خلفها في النهاية في حين أفصح هولمز عن نواياه قائلًا:

– لقد أراد أن يُخرج صديقنا الودود من منزله؛ هذا واضح جدًّا، وبما أنه لا يخرج منه قط، فقد كان يلزمه بعض التخطيط؛ لإخراجه من المنزل. يبدو أن قصة وصية جاريديب الملفقة تلك لم تكن سوى سببٍ لدفع هذا العجوز إلى الخروج لبعض الوقت. لكن عليَّ أن أعترف يا واتسون بأن خطته تتسم بشيء من البراعة الشيطانية، حتى لو كان الاسم المميز والغريب للمستأجر قد منحه الفرصة التي لم يكن يتوقعها، فقد نسج أكاذيبه بمكر بارع واستثنائي.

– ولكن ما الذي يريده؟

– حسنًا، هذا ما نحن هنا لأجل اكتشافه، لكن ما يريده ليس له علاقة بعميلنا على الإطلاق، بحسب قراءتي للموقف. إنه شيء مرتبط بالرجل الذي قتله، الرجل الذي ربما كان شريكًا له في جرائمه. ثمة سر إجرامي في هذه الغرفة، أعتقد أن الأمر على هذا النحو. في البداية اعتقدتُ بأن صديقنا العجوز لديه شيء في مجموعته أكثر قيمة مما يدرك، شيء جدير بأن يجذب انتباه مجرم كبير. لكن حقيقة أن روجز بريسكوت ذا السمعة السيئة كان يسكن هذا المنزل – تُشير إلى سبب أعمق. حسنًا يا واتسون، ليس في وسعنا إلا الصبر وأن ننتظر حتى نرى ما قد تحمله لنا الساعة القادمة.

لم تمر تلك الساعة ببطء؛ فقد كان كل منا جاثمًا قرب الآخر في الظلام، لما سمعنا الباب الخارجي يُفتح ثم يُغلق من جديد. سمعنا صوت طقطقة معدنية حادة لمفتاح، وإذا بالرجل الأمريكي داخل الغرفة. أغلق الباب بهدوء خلفه، وألقى نظرة سريعة وثاقبة حوله؛ ليتأكد من أن كل شيء آمن كما يريد، ثم خلع معطفه ورماه، وسار باتجاه الطاولة الموجودة في منتصف الغرفة بخطوات سريعة لرجل يعرف تمامًا ما عليه أن يفعله وبأي طريقة سيفعله. أزاح الطاولة جانبًا، وحرَّك السجادة من الجزء الذي استقرت عليه، ثم سحب عتلة صغيرة من جيبه الداخلي وجثا على ركبتيه، وشرع يفعل شيئًا ما في الأرضية. سمعنا صوتَ ألواح تُزحزح، وبعد لحظات، انفتحَت حفرة مربعة في الأرضية. أشعل إيفانز القاتل عود ثقاب وأضاء شمعة واختفى عن أنظارنا.

كان من الواضح أن وقت تدخلنا قد حان. لمس هولمز معصمي كإشارة لذلك، وسرنا معًا بهدوء صوب الحفرة، ومع أننا كنا نتحرك بهدوء شديد إلا أن خشب الأرضية القديمة صار يئز تحت أقدامنا، لا بد أن المجرم الأمريكي سمع صوتنا، إذ إنه أدار وجهه وحدق حوله بقلق شديد بحثًا عن مصدر الصوت، ولما أخرج رأسه من فتحة الحفرة ورآنا وجهًا لوجه، ظهرت عليه ملامح الغضب والحيرة، اللذين تحولا تدريجيًّا لابتسامة خزي حين أدرك أن هناك مسدسين مصوبين نحو رأسه. قال ببرود فيما يخرج من الحفرة:

– حسنًا، حسنًا! أظن أنك تغلبت عليَّ يا سيد هولمز، لقد كشفت لعبتي، كنت مغفلًا في نظرك منذ البداية. حسنًا يا سيدي، أعترف بتفوقك، لقد غلبتني و...

وفي لمح البصر أخرج من جيبه مسدسًا وأطلق رصاصتين. شعرت بحرقة شديدة مفاجئة كما لو أن سيخًا حديديًّا ملتهبًا قد رُشِق في فخذي. ثم سمعت صوت ارتطام حيث رأيت مسدس هولمز يهبط مصطدمًا برأس إيفانز، الذي وقع ممددًا على الأرض والدم يسيل على وجهه، في حين أخذ هولمز يفتشه بحثًا عما إذا كان معه أي سلاح آخر. ثم حاوطتني ذراعا صديقي النحيلتان القويتان، وراح يقودني إلى كرسي.

– بحق السماء يا واتسون أخبرني بأنك لم تتأذَّ!

كان الأمر يستحق جرحًا، بل الكثير من الجروح؛ لمعرفة مدى عمق الولاء والمحبة الكامنة خلف ذلك القناع ذي التعابير الباردة في وجهه. فقد رأيت للحظة دموعًا في عينيه الحادتين، كما رأيت شفتيه الحازمتين ترتجفان. فكانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة التي أشهد فيها لمحة تبين أن له قلبًا طيبًا مثلما له عقل عظيم. شعرت بأن تلك اللحظة الكاشفة هي كمكافأة على كل سنواتي التي أفنيتها بإخلاص في عملي المتواضع.

– ليس بالأمر الكبير يا هولمز، إنه مجرد خدش.

مزق بنطالي بسكين صغير أخرجه من جيبه، ثم صاح بارتياح شديد:

– إنك محق، إنه جرح سطحي للغاية.

ثم التفت بوجه متجمد كالحجر وهو ينظر بسخط إلى سجيننا الذي جلس ينظر إلينا في ذهول، ثم قال:

– والله إنه لمن حسن حظك، فلو كنت قتلت واتسون لما كنت ستخرج من هذه الغرفة حيًّا. والآن يا سيدي، ماذا لديك لكي تقوله دفاعًا عن نفسك؟

لم يكن لديه شيء ليقوله، إنما ظل جالسًا وعابسًا أمامنا فحسب. اتكأت على ذراع هولمز ونظرنا معًا إلى أسفل الحفرة الصغيرة في الأرضية. كانت لا تزال مضاءة بنور الشمعة التي أخذها إيفانز معه إلى الأسفل. وقعت أعيننا على مقدار كبير من الآلات الصدئة، ولفائف ضخمة من الورق، وكمية كبيرة من القناني المبعثرة، وعدد من الحزم الصغيرة الأنيقة مرتبة بدقة فوق طاولة صغيرة. قال هولمز:

– آلة طباعةِ الأوراقِ النقديةِ المزيفة!

قال سجيننا وهو يترنح ببطء وينهار على الكرسي:

– أجل يا سيدي، أعظم مزور شهدته لندن على الإطلاق. هذه آلة بريسكوت، وتلك الحزم على الطاولة هي ألفا ورقة من نقود بريسكوت قيمة كل منها مئة جنيه، وهي جيدة بما يكفي ليتم التعامل بها وقبولها في أي مكان. تفضلا يا سادة، أطلقا سراحي ودعونا نعقد صفقة معًا.

ضحك هولمز وقال:

– نحن لا نفعل أشياء من هذا القبيل يا سيد إيفانز، ولا يوجد مفر لك من هذه البلاد. كنت أنت من أطلقتَ النار على بريسكوت، أليس كذلك؟

– بلى، يا سيدي، وسُجنت خمس سنوات بسبب ذلك، مع أنه كان هو من أشهر سلاحه في وجهي أولًا. قضيت خمس سنوات في السجن، في حين كان يجب أن أحصل على ميدالية في حجم طبق حساء. فلا يوجد رجل على وجه الأرض يمكنه أن يميز نقود بريسكوت المزورة من نقود بنك إنجلترا. ولو لم أقتله لكان قد غمر لندن بها. أنا الرجل الوحيد في هذا العالم الذي يعرف أين كان يصنع بيرسكوت نقوده، فهل تتعجبان من أنني أردت الوصول إلى المكان؟ وأنني عندما وجدت ذلك الرجل المجنون المعتوه صائد الحشرات الذي لا يبرح غرفته أبدًا، واسمه الغريب هذا معلق على الباب، لم أفعل ما بوسعي لأخرجه منها؟ ربما كان من الأكثر حكمة أن أقتله. كان من الممكن أن يكون الأمر أكثر سهولة، غير أنني رجل طيب القلب ولا أستطيع أن أبادر بإطلاق النار ما لم يكن الرجل الذي يقف أمامي يحمل مسدسًا هو الآخر. لكن أخبرني يا سيد هولمز، ما الخطأ الذي ارتكبته؟ على أي حال، أنا لم أستخدم هذه الآلة الموجودة في الأسفل ولم أؤذِ الرجل العجوز، فما الذي تدينني به؟

قال هولمز:

– مجرد الشروع في القتل على ما أعتقد، لكنه ليس من اختصاصنا. ستنظر الشرطة في ذلك.. كل ما نرغب فيه الآن هو القبض عليك فحسب. من فضلك يا واتسون اتصل بالشرطة، لن تكون مكالمة غير متوقعة لهم.

هذه هي كل الحقائق عن القاتل إيفانز وقصته الملفقة حول الثلاثة الرجال الذين يحملون لقب جاريديب. بالإضافة إلى أننا سمعنا لاحقًا بأن صديقنا العجوز المسكين لم يكن قادرًا على تخطي صدمة تبدد أحلامه، فعندما انهارت قلاع الأحلام، دُفن هو تحت أنقاضها. وكان آخر ما سمعناه عنه أنه قد نُقل إلى إحدى دور رعاية المسنين في بريكستون.

كان يومًا سعيدًا في سكوتلاند يارد حين اكتُشف مكان آلة بريسكوت. فمع أنهم كانوا يعلمون بوجودها، لم يتمكنوا قط من معرفة مكانها بعد موت الرجل، فقد قدم إيفانز خدمة عظيمة، وكان السبب في أن ينام العديد من رجال الشرطة المهمين في قسم التحقيق الجنائي نومًا هنيئًا. حيث كان ذاك المزور تهديدًا للأمن العام، فكانوا على استعداد لأن يقدموا لإيفانز عن طيب خاطر تلك الميدالية في حجم طبق الحساء التي تحدث عنها، غير أن القاضي كانت له وجهة نظر أقل تعاطفًا، حيث أرسل القاتل مرة أخرى إلى السجن الذي خرج منه لتوه.

لم تكن شجرة حقًّا، بل كان المكان الرئيس لإعدام مجرمي لندن والخونة المدانين أمام الحشود في الماضي، وقد أُنشئت عام 1108م.

أنواع مختلفة من البشر البدائيين.

أنواع مختلفة من البشر البدائيين.

أنواع مختلفة من البشر البدائيين.

قضية جسر ثُور

في رُقعةٍ ما داخل سراديب مصرف كوكس آند كو، عند تقاطُع تشارينج ثمة صندوق حديدي عتيق أبلته كثرة التنقلات، نُقِش اسمي على غطائه: جون ه. واتسون، طبيب سابق في جيش الهند البريطاني. لقد كان مكتظًّا بالأوراق، وأغلب هذه الأوراق عبارة عن أمثلة تُوضِّح القضايا الحرجة التي حقق فيها السيد شيرلوك هولمز في مختلف القضايا.

بعض هذه القضايا –ولستُ أقول أقلَّها أهمية– فشلت تمامًا، ولهذا فإنها لا تستحق أن تُروى على الإطلاق، إذ لم تُحل من الأساس. والقضية التي لا يتوصل فيها إلى حلٍّ حاسم قد تُثير اهتمام الباحثين، لكنها ستُزعج القارئ غير المتخصص دون شك. من بين هذه القضايا غير المكتملة قصة السيد جيمس فيليمور، الذي خطا عائدًا إلى منزله لكي يأخذ مظلَّته، ومنذ ذلك الوقت لم يُرَ ثانيةً على وجه الأرض. لا تقل غرابةً عنها قصةُ السفينة «أليجيا»، التي أبحَرتْ صباح يوم من أيام فصل الربيع عبر كُتلة صغيرة من الضباب الخفيف، فلم تخرج منها قط إلى اليوم، ولم يُعرف عنها ولا عن أفراد طاقمها أي شيء منذ ذلك الحين. هناك أيضًا قصة ثالثة يجدر بي أن أشُير إليها، وهي قصة إيزادورا بيرزانو الصحافي والمُناهض المعروف، الذي وُجِد في حالةٍ من الجنون التام وأمامه علبة أعواد ثقاب فيها دودة غريبة، قيل إنها غير مدرجة في أبحاث العلماء. بعيدًا عن هذه القضايا الغامضة، فإن هناك قضايا تنطوي على أسرار بعض العائلات، لو قُدِّر أنها قد تعرف طريقها إلى الصحف لكان الذعر قد تفشَّى بين الأوساط الرفيعة. لكنني لستُ في حاجةٍ إلى أن أقول إنه من غير الممكن أن يحدث شيء من هذا القبيل، وإن هذه المعلومات تُنحى جانبًا، ومن ثم يُجرى التخلُّص منها حالما يمكن ذلك، حيث إن صديقي لديه من الوقت ما يَسمحُ له بتركيز جهوده في هذا الأمر. مع ذلك تبقى حِفنة لا بأس بها من القضايا التي قد تزيد أهميتُها على هذه أو تقل، والتي ربما كنتُ سأنشرها من قبل، لولا خوفي من تزويد جمهور القراء بما قد يُؤثِّر سلبًا على سمعة الرجل الذي أقدِّره قبل كل شيءٍ آخر. لقد كنتُ أنا نفسي مشتركًا في بعضها، لذا أستطيع سردها كمَن رآها رؤى العين، في حين لم أشاهد البعض الآخر أو لم أقم فيه إلا بدَورٍ صغيرٍ جدًّا بحيث لا يمكنني حكيها إلا بصيغة الغائب. أمَّا هذه القصة فإني أحكيها من واقع تجربة شخصية.

كان صباحًا عاصفًا من صباحات شهر أكتوبر، وكنت قد انتبهت وأنا أرتدي ملابسي كيف كانت الرياح تزيل آخرَ ما تبقَّى من أوراقِ شجرة الدُّلب الوحيدة التي تُزيِّن الفِناء خلف منزلنا، وكيف كانت تدور بها في دوامات. نزلتُ لكي أتناول الإفطار في الطابق السفلي، وأنا أتوقع رؤية رفيقي في حالةٍ مزاجية سيئة، لأنه –كجميع الفنانين العظماء– كان يتأثر بالبيئة المحيطة بكل سهولة، لكنني –وعلى عكس ما ظننت– وجدته وقد قارب على الانتهاء من تناول وجبته، ووجدته سعيدًا ومبتهجًا سعادة واضحة، غير أنه بدا في حالةٍ من المرح المشوب بالترقُّب، وهي الحالة التي تُميِّز أوقات خُلوِّه من الهموم. لذا بادرته قائلًا:

– ألديك قضية يا هولمز؟

فأجابني قائلًا:

– لا بُد أنَّ القدرة على الاستنتاج تنتشر عن طريق العدوى يا واتسون؛ فقد مكَّنَتك من سبر أغواري. نعم، إن لديَّ قضية. بعد شهر من الخوض في التفاهات والتعرُّض للبلادة عادت عجلاتُ عقلي للدوران

من جديد.

– هل لكَ أن تُطلعني عليها؟

– ليس هناك الكثير لأطلعك عليه، لكن بإمكاننا أن نتدارسها بعدما تلتهم البيضتَين المسلوقتَين اللتَين تفضَّلَ بهما علينا طاهينا الجديد. ربما تكون حالتُهما غير ذاتِ صلةٍ بنسخةِ مجلة «فاميلي هيرالد» التي رأيتُها أمسِ فوقَ منضدة الرَّدهة؛ فحتى أشد الأمور تفاهةً –مثل سلق بيضة– يستلزم انتباهًا ويقظة لمرور الوقت، بخلاف قصص الحب التي في هذه المجلة الرائعة.

بعد مرور ربع الساعة كانت المنضدة قد نُظِّفت وجلسنا أنا وهو وجهًا لوجه. وهنا أخرجَ هولمز رسالةً من جيبه. قال:

– هل سمعتَ عن نيل جيبسون، المُلقَّب بصاحب الذهب؟

– أتقصد عضو مجلس الشيوخ الأمريكي؟

– في الواقع، لقد كان عضوًا سابقًا في المجلس عن إحدى الولايات الغربية في أمريكا لكنه بات الآن يشتهر أكثر بكونه أعظمَ قطبٍ بين أقطاب التنقيب عن الذهب على مستوى العالم.

– نعم، أعرف من يكون. لا شكَّ أنه يعيش في إنجلترا منذ فترة من الزمان. إن اسمه مألوفٌ جدًّا.

– نعم، لقد اشترى ضيعةً كبيرةً في مقاطعةِ هامبشير منذ ما يقرب من خمس سنوات. لعلك سمعتَ عن النهاية المأساوية لزوجته، أليس كذلك؟

– بلى، لقد تذكَّرتُها الآن. هذا هو السبب وراء كون الاسم مألوفًا لديَّ. لكنني في الواقع لا أعرف شيئًا عن التفاصيل.

أشار هولمز بيده إلى الأوراق الموضوعة فوق الكرسي قائلًا:

– لم أكن أتوقع أن القضية ستُسند إليَّ، وإلَّا لكنتُ قد حضَّرت معلوماتٍ عنها. والحقيقة أن هذه القضية مع حساسيتها الكبيرة، فلا يبدو أنها بهذه الصعوبة. إن شخصيةَ المتهمةِ المثيرة للاهتمام لا تقلل من سطوع الدليل. كان هذا هو الرأي الذي تبنته هيئة المحلفين، وهو ما أقره كذلك مَحضرُ المحكمة. ولقد أحيلت القضية الآن إلى المحكمة الجنائية في مقاطعة وينشستر. أخشى أنها ستكون مهمةً صعبة. بإمكاني أن أكتشف الحقائق بالطبع يا واتسون، غير أنني لا أستطيع تغييرها. وإذا لم يتكشَّف منها ما هو جديدٌ وغير مُنتظر بالمرة، فلستُ أدري ما يرجوه مني موكِّلي.

– موكلك؟

– آه، لقد نسيتُ أن أخبرك. إنني أمارس طريقتكَ المعقَّدة يا واتسون في سرد القصة من آخرها. كان يجدُر بك أن تقرأ هذا منذ البداية.

كان نصُّ الرسالة التي أعطاني إياها، التي كانت مكتوبةً بخطٍّ مُتقَنٍ واضحٍ كالتالي:

«فندق كلاريدج

الثالث من شهر أكتوبر

عزيزي السيد شيرلوك هولمز،

ليس بإمكاني أن أرى أجمل امرأةٍ خلقها الله تلقى حتفها دون أن أبذل كلَّ ما بوسعي لإنقاذها. أنا لا أستطيع تفسيرَ ما جرى، ولا يمكنني حتى أن أحاول القيام بذلك، لكنني متأكد بما لا يدع مجالًا للشك أن السيدة دنبار بريئة. إنك تعرف الأحداث، ومن الذي لا يعرفها؟ إنها موضع ثرثرة البلاد بأسرها. لكن لم يرتفع أيُّ صوتٍ قَط للدفاع عنها! إنَّ ما يُفقدني صوابي هو ذلك الظلم البيِّن الذي يغلف القضية برمتها. إن لهذه المرأة قلبًا لا يسمح لها بقتل ذبابة.

حسنًا، سآتي لزيارتكَ غدًا في الساعة الحادية عشرة؛ لأرى إن كان باستطاعتك تسليط بعض الضوء على عتمةِ هذه القضية. وربما يكون معي مفتاحٌ لحلها دون أن أعرف. على كل حال، فإن كلَّ ما أعرفه وكل ما أمتلكه -بل أنا نفسي- تحتَ إمرتك إن كان باستطاعتك إنقاذها. وإن رغبتَ يومًا في إظهار أقصى ما لديكَ من خبرات في حل القضايا، فليكن في هذه القضية بالتحديد.

تحياتي

جاي نيل جيبسون»

قال شيرلوك هولمز وهو ينفض رماد التبغ من غليونه الذي يُدخِّنه بعد الإفطار ويعيد ملأه بكسل:

- ها أنتَ ذا قد قرأت الرسالة. وهذا هو الرجل الذي أنتظره. أما عن تفاصيل القصة، فإنك لا تكاد تملك الوقتَ للإحاطة بكل ما في هذه الأوراق من معلومات، لذا عليَّ أن أُلخِّصها لك لو كنتَ تنوي أداءَ دورٍ فاعل في القضية. إن هذا الرجل يُمثل أعظمَ قوةٍ مالية في العالم، وهو رجلٌ في حدود علمي ذو شخصيةٍ عنيفة ومرعبة للغاية. لقد كان متزوجًا من السيدة ضحية هذه المأساة، لا أعلمُ عنها الكثير سوى أنها في خريف العمر، الأمرُ الذي أراه من أوضح العلامات على سوء حظها، فقد كانت تُشرف على تعليم طفلَيهما الصغيرَين مربيةٌ جميلة للغاية، هؤلاء هم أطراف القضية الثلاثة. أما عن مسرح الأحداث فهو قصرٌ كبير قديم في ضيعة يملكها الرجل، في قلب إحدى المقاطعات الإنجليزية التاريخية. وبشأن الفاجعة التي حدثت، فقد عُثر على الزوجة داخلَ المساحةِ المحيطةِ بالقصر والتابعةِ له على بُعدِ حوالي نصف ميل منه. كان ذلك في وقتٍ متأخر من الليل، وكانت ترتدي فستانًا رسميًّا وشالًا حول كتفَيها، وقد اخترقتْ رأسَها رصاصةُ مسدس. لم يُعثر على السلاح بالقرب منها، ولم يكن ثَمَّة ما يُستدلُّ به على كيفية وقوع الجريمة. لا سلاح بجوارها يا واتسون، انتبه لهذا! يبدو أن الجريمة ارتُكبت في وقت متأخر من الليل، وقد وجدَ الجثةَ أحدُ حُراس الطرائد نحو الساعة الحادية عشرة، عندئذ عاينَتها الشرطةُ وفحصَها طبيبٌ شرعي، ثم حُملت إلى القصر. هل ما قُلته مُختصَر أكثر مما ينبغي، أم إنك تستطيع فهمه بوضوح؟

- الأمر كله شديد الوضوح. لكن لماذا اشتُبه في المربية؟

- حسنًا، أولًا، يُوجد دليلٌ مباشرٌ جدًّا، فقد عُثر في خِزانة ملابسها على مسدسٍ لم يطلق من خزينته سوى طلقة واحدة فقط، كما أن مقاس ماسورته الداخلية تناسب مقاس الرصاصة التي وُجدَت في رأس المجني عليها.

كانت عينا هولمز ثابتتين حين أعاد هذه الكلمات بصوت متهدج:

- في... خزانة... ملابسها.

ثم لاذ بالصمت وبدا من عينيه أن ثمة سلسلةً من الأفكار أَخذَت تموج بداخل رأسه، ورأيتُ أنني سأصبح مغفلًا لو أنني قاطعتُ أفكاره، ثم انتفض فجأةً من مكانه وعاد سريعًا لنشاطه المعهود. وقال:

– نعم يا واتسون، لقد عُثر عليه. إنه دليلٌ قوي للإدانة، أليس كذلك؟ هكذا اعتَقدَت هيئة المحلَّفِين. أمَّا السبب الثاني، فلقد عُثر على رسالةٍ فوق جسد القتيلة تُحدِّد موعدَ لقاء في المكان نفسه، وكانت تحمل توقيع المُربية. ما رأيك في هذين السببين؟ وأخيرًا، لنتكلم عن الدوافع. إن السيناتور جيبسون رجلٌ جذاب. وفي حالِ ماتت زوجته، فمَن التي يُتوقع لها أن تحُل محلَّها أكثر من السيدة الشابة التي –بحسبِ ما يقال عنه– قد حظِيَت بملاطفاتٍ مُلحَّة من ربِّ عملها؟ الحب، والثروة، والقوة، كل هذا مرهونٌ بالتخلُّص من شخصٍ في منتصف العمر، إنه شيءٌ بشع يا واتسون! في غاية البشاعة!

– نعم، إنه كذلك بالفعل يا هولمز.

– ولم تستطع كذلك أن تُثبِت غيابَها عن مسرح الجريمة لحظةَ وقوعِها. وعلى العكس من ذلك، فقد كان عليها أن تعترف بأنها كانت قريبةً من جسر ثُور –أي مكان وقوع المأساة– في تلك الساعة تقريبًا. لم تكن لتستطيع إنكار ذلك؛ فقد رآها أحد سكان القرية في أثناء مروره من هناك.

– يبدو الأمر محسومًا حقًّا.

– وأكثر يا واتسون، وأكثر! إن هذا الجسر –الذي هو عبارة عن جسرٍ حجري واسع قائم على دعامتَين اثنتَين، وعلى جانبَيه حاجزان مُزخرفان بأعمدةٍ صغيرة– يُستخدم لمرور السيارات فوق الجزء الأضيق من مسطحٍ مائي طويل وعميق يُطوِّقه القصب. يُسمى هذا المسطح بحيرة ثُور. وقد وُجِدت القتيلةُ مُمددةً عند مدخل هذا الجسر. تلك هي الأحداث الرئيسة التي وقعَت. لكن –إذا لم أكن مخطئًا– ها هو ذا عميلنا، لقد جاء مبكرًا جدًّا عن الموعد.

فتح بيلي الباب، لكن الاسم الذي أعلن حضوره لم يكن مُتوقَّعًا. كان السيد مارلو بيتس غريبًا على كلٍّ منا. كان رجلًا نحيلًا واهنًا مضطربًا، وكانت عيناه مذعورتَين، وحركاته متشنجةً ومترددة، وما كانت عين الطبيبِ لديَّ لِتُشخصه إلا كرجلٍ على حافة انهيارٍ عصبيٍّ كامل. قال هولمز:

– تبدو قلِقًا يا سيد بيتس. تفضَّل بالجلوس أرجوك. أخشى أنني لا أستطيع أن أمنحك سوى القليل من وقتي؛ فأنا مرتبطٌ بموعدٍ في الحادية عشرة.

قال ضيفُنا لاهثًا مُطلِقًا جُملًا قصيرةً كمَن يلهث لالتقاط أنفاسه:

– أعلم أن عندك موعدًا، السيد جيبسون في طريقه إليك. أنا أعمل لدى السيد جيبسون. أنا مدير ضَيعَته. إنه نذلٌ يا سيد هولمز، نذلٌ لعين.

– هذا كلامٌ قاسٍ يا سيد بيتس.

– يجب أن أكون حاسمًا يا سيد هولمز؛ فالوقت ضيق جدًّا، ولا أريد أن يجدني هنا لأي سببٍ كان. إنه على وشك الوصول في التو واللحظة، لكنني في وضعٍ حرجٍ جدًّا جعلني لا أستطيع المجيء قبل الآن. ولم يُخبرني سكرتيره، السيد فيرجسون، عن موعده معك إلا هذا الصباح.

– وهل أنت مدير ضَيعته؟

– لقد أعلمته بما سأفعل، فبعد أسبوعَين من الآن سأكون قد تخلَّصتُ من استعباده البغيض. إنه رجلٌ قاسٍ يا سيد هولمز، قاسٍ في كل شيء. وما تلك الأعمال الخيرية المُعلَنة إلا ستارًا يسترُ به خطاياه الخفية. لقد كان مُتحجِّرَ القلب معها.. نعم يا سيدي، كان مُتحجِّرَ القلب! أمَّا عن كيفية وفاتها فإني لا أعرفها، غير أني على يقين من أنه أحال حياتها إلى جحيم. لقد كانت من سكان المنطقة الحارَّة، حيث وُلدت في البرازيل، كما تعلم بالتأكيد.

– لا، لقد فاتتني هذه المعلومة.

– كانت زوجته استوائية المولد والطِّباع؛ من أبناء الشمس والعاطفة. لقد أحبَّته تمامًا بقدرِ ما تستطيع امرأةٌ أن تُحِب، لكن عندما شاخت وتلاشى جمالها الجسدي –وقد سمعتُ أنه كان جمالًا نادرًا من قبل– لم يَعُد لديها ما يأسِره. لقد كنَّا جميعًا نُحبها ونُشفق عليها، كما كُنَّا نكرهه للطريقة التي كان يُعامِلها بها. لا تُسلِّم له بما يدَّعيه، فإن ما يُخفيه أعظم مما يُظهره. سوف أذهب الآن. أرجوك، لا تؤخِّرني! لقد أوشك على الحضور.

نظر ضيفُنا الغريب إلى ساعة الحائط نظرةً قلقة، ثم جرى بسرعة ناحية الباب واختفى عن أعيُننا. قال هولمز بعد صمت طويل:

– حسنًا! حسنًا! يبدو أن خدم السيد جيبسون مُهذَّبون وأوفياء. لكنه تحذيرٌ مفيد، والآن لا يمكننا إلا أن ننتظر ريثما يظهر الرجل نفسه.

في تمام الحادية عشرة سمعنا وَقعَ أقدامٍ ثقيلة على درجات السلم، وبعدها أُدخلَ بيلي المليونير الشهير إلى الغرفة. عندما نظرتُ إليه لم أدرك فقط سببَ الخوف والبغض اللذَين يُبديهما مديرُ ضَيعته، وإنما فطنتُ كذلك إلى كمِّ اللعنات التي انهالت على رأسه من مُنافِسيه الكثيرين في مجالِ عمله. ولو أنني نحَّاتٌ يريد تجسيدَ صورةٍ مثالية لرجلِ الأعمال الناجح ذي الأعصاب الحديدية والضمير المُتبلِّد، لكان جديرًا بي أن أختار السيد نيل جيبسون كمرجعٍ لهذا التمثال. كانت قامته الطويلةُ الضامرةُ الحادةُ تنمُّ عن شيءٍ من التطلُّع والجشع. إنَّ تخيُّلَ نسخةً من أبراهام لينكولن مليئة بالدناءة عوضًا عن الشرف، ربما يُقرِّب صورة الرجل قليلًا إلى الذهن. أمَّا عن وجهه فكأنما نُحِتَ من الجرانيت، فقد كان صارمًا خشِنَ الملامح منزوعَ الرحمة، ذا خطوطٍ غائرةٍ حفرَتها فيه آثارُ جراح الكثير من الأزمات. كانت له عينان رماديَّتان فاترتان، تنظران بدهاءٍ من تحت حاجبَين خَشِنَي الشعر منتصبَين، فراحتا تتفحصاننا واحدًا تلو الآخر. انحنى الرجلُ بفتور حين قدَّمني له هولمز، ثم سحب كرسيًّا بطريقة تنمُّ عن الثقة ورباطة الجأش، ووضَعه بالقرب من رفيقي وجلس عليه، واضعًا رُكبتيه الناتئتين بحيث تكادان تلمسان هولمز. استهل حديثه قائلًا:

– اسمح لي يا سيد هولمز أن أقول أولًا إن المال ليس مشكلةً من وجهة نظري في هذه القضية. يمكنك أن تُشعِل به النار لو كان لذلك أي فائدةٍ في إضاءةِ طريق الحقيقة بين يدَيك. هذه المرأة لم تُذنب ومن الواجب أن تُبرَّأ من هذه التهمة، وعليكَ أنت أن تفعل هذا. حدِّد المبلغ الذي تريده!

قال هولمز بفتور:

– قيمة أتعابي ثابتة، ولا أُغيِّرها إلا حين أعفو العميل منها كليَّةً.

– حسنًا، إذا كان لا يعنيك المال ففكِّر في الشهرة. إذا نجحتَ في إنجاز هذه المهمة سيَذيع صِيتُك في كل صحيفةٍ في بريطانيا وأمريكا. سوف تُصبِح حديث الناس في قارتَين.

– أشكرك يا سيد جيبسون، لا أظنني محتاجًا إلى الشهرة. وربما ستفاجأ لو علمتَ أنني أُفضِّل العمل دون أن يعرف أحد هُويَّتي، وأن نوع القضية نفسه هو الذي يستهويني.

– لكننا نُضيِّع الوقت الآن. فلنلتفِتْ إلى مناقشةِ حقائق القضية.

– أعتقد أنك ستجد جميع حقائقها الرئيسة في تقارير الصحف. ولا أظن أن بإمكاني إضافةَ ما من شأنه أن يساعدك. لكن إذا كان هناك شيء ما تُريد إلقاء مزيدٍ من الضوء عليه، فلا بأس؛ فنحن هنا من أجل ذلك. ثمة مسألةٌ واحدة فقط.

– ما هي؟

– ما نوع العلاقة التي ربطت بينك وبين السيدة دنبار على وجه التحديد؟

وثب صاحب الذهب وثبة عنيفة، وهبَّ واقفًا عن كرسيه نصفَ وقفة، ثُم ما لبث أن عاد لهدوئه من جديد. وقال:

– أفترِض أنك تستخدم حقَّك –بل ربما تقوم بواجبك– بتوجيه مثل هذا السؤال يا سيد هولمز.

قال هولمز:

– نتفق تمامًا على افتراضِك.

– إذَن، فإنني أؤكد لك أن علاقتنا ظلَّتْ في مُجمَلها علاقة صاحبِ عملٍ بامرأة شابة، لم يتحدث معها قَط، ولم يَرَها قط إلا وهي برفقة أبنائه.

وهنا نهَض هولمز عن كرسيه وقال:

– أنا رجل مشغول نوعًا ما يا سيد جيبسون، وليس لديَّ وقتٌ للمحادثات التي لا طائل من ورائها، كما أنني لا أميل إليها أيضًا. طابَ صباحُك.

قام ضيفنا من مكانه هو الآخر، فعلَتْ قامته الطويلةُ قامةَ هولمز. كان ثمة غضب فائر ينساب من تحت حاجبيه، ومسحةٌ خفيفة من التوهج تسري في وجنتَيه الشاحبتَين وقال:

– ما الذي تعنيه بهذا يا سيد هولمز، هل ترفض التحقيق في قضيَّتي؟

– حسنًا يا سيد جيبسون، على الأقل أنا أرفض وجودك أنت. أظن أن كلامي واضح.

– إنه واضح بما يكفي، لكن ما الذي تعنيه من ورائه؟ أتريد رفعَ قيمة أتعابك، أم أنك خائفٌ من تولِّي القضية، أم ماذا؟ من حقي أن أحصل على إجابة مباشرة.

قال هولمز:

– حسنًا، ربما يكون هذا حقك، سوف أُعطيك إجابةً صريحة. بدايةً، هذه القضية معقدةٌ بما فيه الكفاية بحيث لا تحتاج إلى إضافة عقبةٍ جديدة من المعلومات المغلوطة كي تزيدها تعقيدًا.

– أهذا يعني أنني أكذب؟

– في الواقع، لقد كنتُ أحاول تلطيف كلامي بقَدر ما أستطيع، لكن إذا كنتَ تصرُّ على هذه الصياغة فلن أعارضك.

هنا انتفضتُ واقفًا على قدمَيَّ؛ فقد بلغتْ حدَّةُ تعابيرِ وجه المليونير مَبلغًا شديدَ الفظاعة، حتى إنه رفع قبضته الضخمة عاليًا. لكن هولمز ابتسمَ ابتسامةً غيرَ مبالية ومدَّ يده ليتناول غليونه، وقال:

– لا تُحدِث جلبة يا سيد جيبسون. إنني أنزعج بعد تناوُل الإفطار حتى من أيسرِ النقاشات. أرى أن نزهةً في هواءِ الصباح وشيئًا من التفكير الهادئ سينفعانك جدًّا.

كبَح صاحب الذهب حنقه بجهدٍ كبير. لم أملك إلا الإعجابَ به، فقد استطاع أن يتحول في لحظةٍ – وبقدرٍ فائقٍ من ضبط النفس– من شُعلةٍ متَّقدةٍ من الغضبِ إلى حالةٍ مُغرِقةٍ في اللامبالاة وبرود الأعصاب. وقال:

– حسنًا، كما تشاء. أظن أنك تعرفُ كيف تُدير عملك. وأنا لا أستطيع دفعك إلى تولِّي القضية رغمًا عنك. لكنك لم تُسدِ إلى نفسِكَ معروفًا هذا الصباح يا سيد هولمز، لأنني قد هزمت مَن هم أقوى منك من قبل. وما من رجلٍ تحدَّاني قَط وتفوَّق عليَّ.

قال هولمز مبتسمًا:

– كثيرون جدًّا قالوا مثل هذا الكلام، ورغم ذلك فها أنا ذا. حسنًا، طاب يومك يا سيد جيبسون. لا يزال أمامك الكثير لتتعلَّمه.

خرج ضيفُنا مُحدِثًا جلبةً كبيرة، لكنَّ هولمز ركَّز عينَيه الحالمتَين إلى السقف وراح يُدخِّن غليونه في سكونٍ وثبات. ثم سأل في النهاية:

– ما رأيك في الأمر يا واتسون؟

– في الواقع يا هولمز، عليَّ الاعترافُ بأنني عندما آخذُ في عين الاعتبار أن هذا رجلٌ من النوع الذي لن يتردَّد لحظةً في الإطاحة بأي عقبةٍ تقف في طريقه، وعندما أتذكَّر أن زوجته ربما كانت تُشكِّل عقبةً ما، وربما كان يبغضها أيضًا كما صرَّح لنا هذا الرجل بيتس، عندما أفكر في كل هذا فإنه يبدو لي أن...

– أجل، هكذا يبدو لي أنا الآخر.

– لكنْ ما نوع العلاقة التي كانت بينه وبين المربية؟ وكيف اكتشفتَها أنت؟

– عن طريق الحيلة يا واتسون، الحيلة! لأنني حين تأملتُ أسلوبَ رسالته العاطفي البعيد عن الرسمية والعملية، وقارنته بطريقة الرجل ومظهره المُتحفظَيْن، بدا لي واضحًا أن ثمة عاطفةً عميقة تنبعث ناحيةَ المتهمة لا الضحية. وإذا كنا ننشُد الوصول إلى حقيقة الأمر فإنه يجدُر بنا أن نفهم حقيقةَ العلاقة بين أولئك الثلاثة. لقد رأيتَ الهجومَ المباشر الذي شننته عليه، وكيف تلقَّاه بهدوء. ثم خدعته عندما أوهمته بأنني كنتُ واثقًا تمامًا من كلامي، في حين لم يكن عندي في الحقيقة إلا شبهةٌ قوية جدًّا.

– ربما سيعود مرةً أخرى، أليس كذلك؟

– لا شك أنه سيعود ثانيةً. لا بد أن يعود، فهو لا يستطيع ترك الأمر على حالته هذه. ها! أليس هذا جرس الباب؟ بلى، وها هو ذا وقع أقدامه.. حسنًا يا سيد جيبسون، لقد كنتُ لتوِّي أخبر الدكتور

واتسون أنك تأخرتَ بعض الشيء عن وقتِ عودتك.

عاد صاحب الذهب إلى الغرفة بمزاجٍ أقل حدة من ذاك الذي غادرها به. ومع أن كرامته الجريحة كانت لا تزال واضحة في عينَيه المُتعضتَين، فقد هداه حُسنُ تمييزه إلى أنه لا بد له من الإذعان لو أراد تحقيق غايته. قال السيد جيبسون:

– لقد فكرتُ في الأمر يا سيد هولمز، وأرى أنني تسرَّعتُ حين أبديتُ استيائي من كلامك. إنك مُحقٌّ في مناقشةِ حقائق القضية، أيًّا كانت، وإنني لأراك من أكفأ الناس للقيام بهذا. لكنني مع ذلك أؤكِّد لك أن علاقتي بالسيدة دنبار لا تأثير لها في الحقيقة على هذه القضية.

– أنا من يُقرِّر هذا، أليس كذلك؟

– بلى، أعتقد أنه كذلك، فأنت مثل الطبيب الذي يريد معرفةَ كل أعراض المرض قبل أن يتسنَّى له النطق بتشخيصه.

– بالضبط. هكذا هو الأمر. وما من مريضٍ يسعى لإخفاء حقيقة حالته إلا إذا كانت له غايةٌ ما من وراء خداع الطبيب.

– ربما يكون ذلك صحيحًا، لكنك ستُوافقني القول يا سيد هولمز، بأن معظم الرجال سيشعرون بشيءٍ من الخجل عندما يُسألون بطريقةٍ مباشرةٍ عن طبيعة علاقتهم بامرأةٍ ما، لا سيما إذا كانت الحالة تنطوي على عاطفةٍ حقيقية حقًّا. أعتقد أن لدى معظم الرجال سرًّا شخصيًّا صغيرًا يحتفظون به في ركن ما من نفوسهم، ولا يسمحون لأحد بالتطفُّل عليه، وأنتَ اقتحمته فجأةً، لكنَّ غايتَك تشفع لك، حيث كنتَ تحاول إنقاذها. حسنًا، ها هي ذي الحواجز قد سقطتْ، وها هو ذا مستودع الأسرار قد فُتح، وتستطيع أن تستكشف فيه كما تشاء. ما الذي تريده؟

– الحقيقة.

توقَّف صاحب الذهب عن الكلام قليلًا وكأنما كان يُنظِّم أفكاره. وأصبح وجهه المتجهم ذو الخطوط الغائرة أكثرَ إغراقًا في الحزن وأشدَّ رزانة. وقال أخيرًا:

– أستطيع أن أخبرك بها في كلماتٍ قليلة جدًّا يا سيد هولمز. غير أن بعض الأشياء يكون ذِكرُها مؤلمًا وشاقًّا على النفس؛ لذلك لن أوغِلَ في الكلام أكثر من القدر الضروري. لقد قابلتُ زوجتي عندما كنتُ أنقِّب عن الذهب في البرازيل. كانت «ماريا بينتو» ابنةَ أحد المسؤولين الحكوميين في مدينة ماناوس، وكانت فائقة الجمال. كنتُ أنا في تلك الأيام شابًّا مُلتهبَ العاطفة، لكنني حتى في هذه اللحظة، عندما أنظر خلفي بعاطفة أقل تأججًا وعينٍ أكثر ميلًا إلى النقد، فإنني لا أزال أرى أنها كانت تتمتع بجمالٍ نادرٍ ومدهش. لقد كانت شخصيتُها علاوةً على ذلك شخصيةً فياضةً شديدةَ الإخلاص، وكانت تتمتع بعاطفة متَّقدة ومشاعر صادقة كأبناء المناطق الحارَّة الذين تتحكم فيهم عواطفهم. لقد كانت مختلفة تمامًا عن النساء الأمريكيات اللواتي عرفتُهن من قبل. حسنًا، باختصار، لقد أحببتُها وتزوجتُها. لكنني لم أدرك أنَّ أحدَنا لم يكن يُشبه الآخر في شيء –في أي شيءٍ على الإطلاق– إلا عندما انتهى ذلك التعلُّق المؤقت، الذي ظل يُقاوِم الموت لسنوات. لقد خَبَتْ حرارةُ حبي، ولو أن حُبها فقدَ حرارته هو الآخر لصار الأمر هيِّنًا علينا، لكنك تعرف طبيعة النساء العجيبة! ومهما كان ما فعلته، لم أستطع صرفها عني. وإن

كنتُ قاسيًا معها، أو حتى متحجر القلب كما يقول البعض، فلم يكن ذلك إلا بسبب ظني بأنني لو استطعتُ قتل حبها، أو أن أحوِّله إلى البُغض التام، لأراح ذلك كلَينا، لكن لم يُغيِّرها أي شيء. لقد ظلتْ مُولعةً بي ونحن في تلك الغابة الإنجليزية الصغيرة نفس الولَع الذي حدث لها قبل عشرين سنة على ضفاف نهر الأمازون. وبرغم ما فعلته معها فقد بقِيَت على إخلاصها الذي لا يتحول.

ثم جاءت السيدة جريس دنبار. لقد ردَّت على الإعلان الذي نشرناه، ومن ثَمَّ صارت مربية طفلَينا. ولعلك رأيتَ صورتَها في الصُّحف. لقد صرَّح الجميعُ بأنها هي الأخرى بارعة الجمال. حسنًا، لن أزعم بأنني أتحلى بالأخلاق أكثرَ من سائر الناس، وأعترف لك أنني لم أكن أستطيع العيشَ تحت سقفٍ واحد مع امرأة مثل هذه وأن يكون بيني وبينها تواصل يومي دون أن أشعر بعاطفة نحوها. أتلومني على هذا يا سيد هولمز؟

– أنا لا ألومك على مشاعرك، لكنني سألومك لو أنك أفصحتَ عنها؛ حيث إن هذه السيدة كانت بطريقةٍ ما في كنفك.

– على أي حال، ربما تكون على حق.

هذا ما قاله المليونير، مع أن التوبيخ قد أعاد إلى عينَيه ذلك التوهج الغاضب للحظات، ثم أردف قائلًا:

– أنا لن أدَّعي لنفسي أي فضيلة لا أملكها. أظن أنني بقيت طوال عمري رجُلًا يحصل على كل ما يريده، وأنا لم أرغب في شيءٍ قط قدر رغبتي في حب هذه المرأة والظفر بها، وقد أخبرتُها بهذا.

– أوه، فَعلتَها إذن! أليس كذلك؟

كان هولمز كثيرًا ما يبدو فظًّا للغاية حين تُستثار مشاعره.

– قلتُ لها إنني لو كنتُ أستطيع أن أتزوَّجها لفعلت، لكنَّ الأمرَ لم يكن بيدي، وأخبرتُها أن المال لا يُشكِّل أي عائق أمامي، وأنني سأفعل كلَّ ما أستطيعه؛ لكي أجعلها سعيدةً ومنعَّمة.

قال هولمز بسخرية:

– كان عرضًا سخيًّا للغاية بلا أدنى شك.

– اسمع يا سيد هولمز. لقد أتيتُ إليك لتُحقِّق في القضية، لا لتُعلِّمني الفضيلة. أنا لا أريد الاستماع إلى انتقاداتك.

قال هولمز بحزم:

– وأنا لن أتعامل مع قضيتك البتَّة إلا من أجل هذه السيدة، فأنا لا أرى أن تُهمتها، مهما كانت، أسوأ مما اعترفتَ به أنت؛ فقد كنتَ تسعى إلى إفساد سيدة عاجزة عن حمايةِ نفسها وهي في كنفك. بعضكم أيها الأثرياء يحتاج إلى أن يتعلَّم أنه لا يستطيع أن يرشو الجميع حتى يتغاضوا عن خطاياه.

صُعِقتُ لشدة الهدوء الذي استمع به الرجل الثري لهذا الكلام. قال:

– هذا هو ما أشعُر به الآن تجاه الأمر. وإنني لأحمد الله أن خُططَي السابقة لم تَمضِ كما أردتُ لها. فقد رفضَتْها كليَّةً وأرادَتْ أن تغادر المنزل على الفور.

– ولماذا لم تغادر إذن؟

– حسنًا، لأنه في المقام الأول كان هناك مَن تُعيلهم، ولم يكن من اليسير عليها أن تخذلهم جميعًا بتركها مصدر رزقها. ثُم إنها وافقتْ على البقاء عندما أقسمتُ لها إنني لن أضايقها ثانيةً أبدًا. لكنْ كان ثمة سبب آخر، لقد كانت تُدرِك جيدًا ما تملكه من السيطرة عليَّ، وأن ما لديها كان يفوق أي قوة أخرى؛ لذا أرادتْ تسخيرها للعطاء.

– كيف؟

– في الواقع، لقد عرفَتْ بعضَ الأشياء عن أعمالي التجارية. إنها أعمالٌ ضخمةٌ يا سيد هولمز، أضخم مما يتخيَّله الرجل العادي. إنني قادرٌ على البناء والهدم؛ لكنني دائمًا ما كنتُ أهدم فقط. لم يكن الأمر مقتصرًا على الأفراد فحسب، بل المجتمعات، والمدن، وحتى الدول. إن التجارةَ لعبة قاسية، والضعيف فيها مُجبَرٌ على تجرُّع الهزيمة. ولقد ذهبتُ في ممارسة اللعبة إلى أقصى حدودها. لكنني لم أشِ بأحدٍ قط، كما لم أعبأ باحتمالية أن يَشيَ بي منافسي. لكنها كانت ترى الأمر بطريقةٍ مختلفة. وأظنُّها كانت على حق. كان ما تعتقده وما علَّمتني إياه، هو أنه لا ينبغي لرجلٍ أن يبني ثروةً تتجاوز ما يحتاج إليه على أنقاض آلاف البشر، الذين لا يملكون المُقوِّمات الأساسية للحياة. هكذا كانت تنظُر إلى الأمر، وأظنها كانت تنظُر إلى ما هو أبعد من المال، كانت تنظر إلى شيءٍ أكثر بقاءً. لقد وجَدتْني أصغي لما تقول، وكانت تعتقد بأنها تُقدِّم خدمةً للناس بتأثيرها في سلوكي؛ لهذا بقِيَتْ، ثم وقعَتْ هذه الحادثة.

– أيمكنك إلقاءُ أيِّ قَدر من الضوء على ذلك؟

أحجم صاحب الذهب عن الكلام مدةَ دقيقة أو أكثر، وقد غرق رأسه بين كفَّيه وتاه في تفكيرٍ عميق. ثم قال:

– إن الأمر لا يُبشِّر بأي خيرٍ لها. لا يمكنني إنكارُ ذلك. وإن الواحدةَ من النساء لتعيش حياةً خاصةً بينها وبين نفسها، وربما تفعل أشياء يعجز الرجل عن تفسيرها. لقد فقدتُ أعصابي وبُهتُّ في بداية الأمر، لدرجة أنني كنتُ مستعدًّا للاعتقاد بأنها قد انحرفتْ عن الصواب بطريقةٍ غريبةٍ مُخالفةٍ تمامًا لطبيعتها. لكنّ ثمة تفسيرًا خَطِرًا طرأ على ذهني، وسوف أخبرك به يا سيد هولمز مع أنه قد لا يكون مُفيدًا بما يكفي. لا شك أن زوجتي كانت تشعر بغيرةٍ مريرة. ثمة نوعٌ من الغيرة، أُسميه الغيرة من الأرواح، وهي لا تقلُّ حدةً عن الغيرة من الأجساد، ومع أنه لم يكن هناك ما يُلجئ زوجتي لهذا النوع الثاني –وأظنها أيضًا كانت تعرف هذا– فقد كانت تُدرك أن لتلك السيدة الإنجليزية تأثيرًا على عقلي وتصرُّفاتي، لم يكن لديها مثله قط. لقد كان تأثيرًا إيجابيًّا بوضوح، إلا أن ذلك لم يُحسِّن من الوضع. كانت الكراهية تحجُب عقلها، وحرارةُ الأمازون تسري طوال الوقت في دمها، لذا ربما أخذَت تُخطِّط لقتل السيدة دنبار، أو لنقُل إنها كانت تُخطِّط لتهديدها بسلاحٍ ناري؛ حتى تُرعبَها وتَضطرَّها إلى الرحيل عنَّا. وربما حدث شجارٌ بعد ذلك وانطلقَتْ رصاصةٌ من المسدس إلى رأس المرأة التي كانت تحمله.

قال هولمز:

– لقد خطر ببالي احتمالُ أن يكون هذا ما وقع حقًّا. في الواقع، إنه البديل الوحيد لوقوع جريمةِ قتلٍ مُتعمَّدة.

– لكنها تنفي حدوثه بالكلية!

– لا بأس، لكنَّ الأمر ليس مقصورًا على هذا، أليس كذلك؟ بإمكان المرء أن يُخمِّن بأنَّ امرأةً في مثل هذا الموقف الرهيب، قد تُسارع إلى البيت وهي لا تزال في ارتباكها حاملةً في يدها المسدس، وربما تكون قد ألقته في عجلةٍ بين ملابسها وهي لا تكاد تعي ما تفعله، لكنها حاولَت حين عُثِر عليه أن تُفلِت من الأمر برمَّته، باختلاق كذبة وإنكار كل شيء، حيث إن جميع التفسيرات لم تكن مقنِعة. ما الذي يُعارض مثل هذا الافتراض؟

– تُعارضه السيدة دنبار نفسُها.

– حسنًا، احتمال.

نظر هولمز إلى ساعته وقال:

– لا يساورني شكٌّ في أننا نستطيع الحصول على التصاريح اللازمة هذا الصباح، وأن نصل إلى وينشستر في قطار المساء. وبعدما أرى هذه السيدة فمن المحتمل جدًّا أن أصبح أكثرَ فائدةً لقضيتك، لكنني لا أستطيع أن أَعِدكَ بأن ما سأتوصل إليه من النتائج سيكون موافقًا لما ترغب فيه بالضرورة.

تأخَّر استخراج التصاريح الرسمية بعض الوقت، وبدلًا من الوصول إلى وينشستر في نفس اليوم توجَّهنا إلى جسر ثُور، في ضيعة السيد نيل جيبسون في مقاطعة هامبشير. لم يأتِ معنا السيد جيبسون نفسه، لكننا حصلنا على عنوان الرقيب كوفنتري، أحد أفراد قوة الشرطة المحلية، وهو أول مَن حقَّق في القضية. كان رجلًا طويلًا ناحلًا شديدَ الشحوب، وكان أسلوبه مُتحفِّظًا وغامضًا، يوحي بأن ما يعرفه أو يشتبه فيه من الأمور أكثر بكثيرٍ مما يجرؤ على التصريح به. علاوةً على ذلك، فقد كانت تلازمه عادةُ خفْضِ صوته بطريقة مفاجئة إلى حد الهمس، كأنه وقَعَ على أمرٍ بالغ الأهمية، مع أن المعلومات كانت في أغلب الأحيان عاديةً جدًّا. وبعيدًا عن لوازمه السلوكية هذه فسريعًا ما تبيَّنَ أنه رجل مُهذب وأمين، لا يجد في نفسه من الكِبر ما يمنعه من الاعتراف بأن القضية تفوق قدراته، وأنه يُرحِّب بأي مساعدة. قال:

– على كلِّ حالٍ يا سيد هولمز، إنني أفُضل أن أستقبلك أنتَ بدلًا من استقبال ضابط من شرطة سكوتلاند يارد. إنهم إذا استُدعوا لتولي قضيةٍ ما، فإن قوة الشرطة المحلية هنا لا يُعزى إليها أيُّ نجاح، وربما تُلام بعد ذلك على الإخفاق، لكنك تعمل بنزاهة، هكذا سمعتُ عنك.

– أنا لا أريد أن أظهر في الأمر على الإطلاق، إذا تمكنتُ من حل هذا اللغز فإنني لا أطالب بذكر اسمي ولو ذكرًا عابرًا.

هكذا قال هولمز، فبدا جليًّا أنَّ كلامه قد سَرَّى عن رفيقنا مُنقبض الصدر.

– في الواقع، هذا كرمٌ بالغ منك، لا أشكُّ في ذلك. كما أنني أعلم أنه يمكنني الوثوق في صديقك الدكتور واتسون. والآن يا سيد هولمز، وريثما نصل إلى موقع الحادث فإن ثمة سؤالًا أريد أن أطرحه عليك. ولن أهمس به لمخلوقٍ غيرك. ألا تظن أنه ربما كان السيد نيل…

ثم صمت وكأنه لم يستطع إكمال بقية الجملة. ثم تابع قائلًا:

– جيبسون نفسه متورط في القضية؟

– لقد كنتُ أُفكِّر في هذا.

– إنك لم ترَ السيدة دنبار. إنها امرأةٌ رائعةُ الجمال في كل شيء. ومن المحتمل جدًّا أنه كان يتمنَّى إزاحةَ زوجته من الطريق. ثم إن هؤلاء الأمريكيِّين أمهر في استخدام المسدسات منا. لقد كان المُسدس له، هل تعرف ذلك؟

– هل تثبَّتم من هذا جيدًا؟

– نعم يا سيدي. لقد كان المسدس واحدًا من مسدسين متشابهين يملكهما.

– متشابهين؟ وأين الآخر؟

– في الواقع، إن الرجل يمتلك الكثير من الأسلحة النارية من جميع الأنواع. ولم نستطِع قط إيجادَ مسدسٍ متطابقٍ تمامًا مع هذا المسدس بالتحديد، لكن الصندوق كان مصنوعًا خِصِّيصَى لمسدسَين متماثلَين.

– إذا كانا متماثلَين فلا بد أن تتمكن من مطابقته بالآخر.

– حسنًا، لقد وضعناها جميعًا بجوار بعضها بعضًا داخل منزله، لو أنك أردتَ تفحُّصها.

– ربما أفعل ذلك فيما بعد. لكنني أقترح الآن أن نذهب معًا لنلقي نظرة على مكان الحادثة.

جَرت هذه المحادثة في الغرفة الأمامية الصغيرة من بيت الرقيب كوفنتري الصغير المتواضع، الذي كان يُمثل مخفرَ الشرطة المحلي. بعدها مشَينا مسافةَ نصف ميل أو ما يقاربها عبر أرض بَراح تُحرك الرياحُ زرعها –كان السرخسُ الآخذُ في الذبول يكسوها باللونَين البرونزي والذهبي– حتى وصلنَا إلى بوابة جانبية يُفتح مصراعاها داخل حديقة ضَيْعة ثُور. ثم سِرنا في ممر يمتد عبر محميةِ طيور، ومنه وصلنا إلى قطعة أرضٍ مقطوعةِ الشجرِ، فرأينا المنزلَ نصفَ الخشبي الممتدَّ الذي يجمعُ بين طرازَي العمارة التيودورية والجورجية، فوق قمة عالية. كان إلى جوارنا بِركة مياه طويلة كثيرةُ القصب، وكانت مساحتُها تتقلص عند المنتصف؛ حيث ينتصب جسرٌ حجريٌّ يُمثِّل الطريقَ الأساسي لمرور العربات، لكنَّ بِرَك المياه الصغيرة على كلا الجانبَين كانت تُضخِّم من مساحتها البادية. تَوقَّف مرشدُنا عند مدخل الجسر، ثم أشار إلى أرضيته وقال:

– هذا هو المكان الذي كانت ترقد فيه جثةُ زوجة السيد جيبسون، لقد ميزته بهذه الصخرة.

– أظن أنك كنتَ موجودًا قبل أن تُنقل من مكانها، أليس كذلك؟

– بلى، لقد أرسلوا في طلبي من فورهم.

– من فعل ذلك؟

– السيد جيبسون نفسه، فعندما نبَّهه حارسُ الطرائدِ لوقوعِ الحادثة، أسرع بالمجيء من المنزل ومعه آخرون، وأصرَّ على ألَّا ينقل أحدٌ أيَّ شيء من مكانه حتى تصل الشرطة.

– كان هذا تصرُّفًا حكيمًا. لقد عرفتُ من تقارير الجرائد أن الرصاصة أُطلقت من مسافةٍ قريبة.

– نعم يا سيدي، مسافة قريبة جدًّا.

– أَقُرب صدغها الأيمن؟

– خلفه مباشرةً يا سيدي.

– كيف كانت وضعية الجثة؟

– كانت مسداة على ظهرها يا سيدي. لم يكن ثمة أثر لعراك، لا علامات، ولا أسلحة، لكنَّ يدها اليسرى كانت تقبض على الرسالة المختصرة التي أرسلَتها إليها السيدة دنبار.

– أتقول إنها كانت تقبض على الرسالة؟

– نعم يا سيدي، لقد تمكَّنا بالكاد من فتحِ أصابعها.

– هذا مُهم للغاية. إنه يستبعد احتماليَّةَ أن يكون أيُّ شخص قد وضع الرسالةَ في يدها بعد موتِها ليُزوِّد الشرطة بدليلٍ كاذب. يا إلهي! لقد كانت الرسالةُ –كما أذكرها– مختصرةً جدًّا: «سأكون عند جسر ثُور في الساعة التاسعة. ج. دنبار». أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي.

– وهل اعترفت السيدة دنبار بكتابتها؟

– نعم يا سيدي.

– وبمَ فسَّرت هذا؟

– لقد احتَفظَتْ بدفاعها لتُدلي به أمام المحكمة الجنائية. ولم ترغَب في الإفصاح عن أيِّ شيء.

– لا شكَّ أنها قضيةٌ مثيرة للاهتمام. كما أن مسألة الرسالة بالغةُ الغموض، أليس كذلك؟

قال مرشدنا:

– في الواقع يا سيدي –ولو أنني سأكون قد تجرَّأتُ كثيرًا بقولي هذا– إنها تبدو النقطة الوحيدة الواضحة في القضية برُمتها.

هنا هزَّ هولمز رأسه وقال:

– إذا سلَّمنا بأن الرسالةَ ليستْ مُزيَّفة، وأنَّ السيدة دنبار هي التي كتبَتْها حقًّا، فلا بد أن تكون السيدة ماريا قد تلقَّتْها قبل مدةٍ من وقوع الحادثة، لنقُلْ قبله بساعةٍ أو ساعتَين. فلماذا إذن ظلَّتْ هذه السيدة قابضةً عليها بيدها اليسرى؟ ولماذا تحملها بعنايةٍ شديدةٍ على هذا النحو؟ إنها لم تكن تحتاج إلى الحديث عنها في مقابلتهما. ألا يبدو هذا غريبًا؟

– في الواقع يا سيدي، ربما يكون الأمر كما تقترح.

– أعتقد أنني أحتاج إلى الجلوس بعض الوقت في هدوءٍ؛ كي أتأمل الأمر.

جلس هولمز على الإفريز الحجري للجسر، فرأيتُ عينَيه الرماديتَين الذكيتَين تجولان بنظراتٍ متسائلة في كل اتجاه. وفجأةً قفز من مكانه ثانيةً وأسرع باتجاه الحاجز المقابل، وانتزع عدسته من جيبه، وراح يفحص الإفريز الحجري، قائلًا:

– هذا غريب!

– نعم يا سيدي، لقد لاحظنا الصَّدعَ الصغير الذي في الإفريز. أتوقَّع أن يكون أحد المارة هو من تسبَّب فيه.

كان الإفريز رماديًّا، لكنْ في هذه البقعة كان يظهر فيه لونٌ أبيض لا تزيد مساحته على مساحةِ عملة معدنية. وعند فحصه جيدًا يستطيع المرءُ أن يُدرك أنَّ ضربةً حادةً أو ما شابه هي التي ثلمَتْ سطحه. قال هولمز بهدوءٍ ينمُّ عن استغراقه في التفكير:

– لقد تطلب الأمرُ بعضَ العنف لإحداث هذا الصدع.

ثم أخذ يضرب الإفريز بعصاه عدة مرات دون أن يترك عليه أثرًا. وقال:

– نعم، لقد كانت ضربةً قوية، وفي مكانٍ غريبٍ أيضًا. ثم إنها لم تُضرب من الأعلى إنما من الأسفل، لأنها –كما ترى– على الحافة السفلى من الحاجز، وهي على مسافةِ خمسة عشر قدمًا من الجثة على الأقل. ربما لا يكون لهذا علاقة بالأمر، لكنها مسألةٌ تستحق الملاحظة. لا أعتقد أن أمامنا المزيد لكي نكتشفه هنا. أتقول إنه لم يكن ثمة آثارُ أقدام؟

– كانت الأرضية صلبة كالحديد يا سيدي. لم يكن عليها آثارٌ على الإطلاق.

– يمكننا الذهاب إذن. سنتوجه إلى المنزل أولًا ونتفحص تلك الأسلحة التي تحدَّثتَ عنها سريعًا. بعدها سنذهب إلى وينشستر؛ لأنني أرغب في رؤية السيدة دنبار قبل أن نواصل البحث.

لم يكن السيد نيل جيبسون قد عاد من المدينة بعد، لكننا قابلنا السيد بيتس حين وصلنا إلى المنزل، ذلك الرجل الشديد القلق الذي زارنا في الصباح. وقد أرانا وهو في حالةٍ من التلذُّذِ الشريرِ مجموعة الأسلحة النارية الهائلة المختلفة الأشكال والأحجام، التي تجمَّعتْ لدى سيده على امتداد حياته المحفوفة بالمخاطر. قال:

– إن للسيد جيبسون أعداءه، كما يتوقع أيٌّ ممن يعرفونه ويعرفون أساليبه. إنه ينام وفي الدرج المجاور لسريره مسدسٌ محشو. إنه رجلٌ عنيفٌ يا سيدي، وثمة أوقاتٌ يَتملَّكنا فيها الخوفُ منه. أنا على يقينٍ من أن السيدة المسكينة التي تُوفِّيت كانت كثيرًا ما تشعر بالذعر منه.

– هل شهدتَ من قبل تعرُّضَها لأذى جسدي؟

– لا، لا يمكنني أن أقول هذا. لكنني سمعتُ كلماتٍ كانت في نفس المستوى من السوء، كلمات ازدراء جافٍّ وجارح، حتى أمام الخدم.

قال هولمز معقبًا بينما نتوجه لمحطة القطار:

– يبدو أن صاحبنا المليونير لم يكن ناجحًا في حياته الخاصة. حسنًا يا واتسون، لقد وقَعنا على قدرٍ كبير من المعلومات، وبعضها جديدٌ علينا، لكن يبدو أنني لا أزال بعيدًا بعض الشيء عن نتيجتي النهائية.

وعلى الرغم من الكراهية الشديدة الوضوح التي يُكنُّها السيد بيتس لرب عمله، فقد فهمتُ من كلامه أنه كان في مكتبته عندما وصله خبر وفاة زوجته. كانوا قد انتهَوا من تناوُل وجبة العشاء في الثامنة والنصف، وكان كل شيء على ما يرام حتى ذلك الحين. صحيحٌ أن خبر وفاتها جاء في وقتٍ متأخرٍ قليلًا من المساء، لكنْ لا شك أن الفاجعة وقعت في وقتٍ قريب من التوقيت المذكور في الرسالة. وما من دليلٍ على الإطلاق يُثبت أن السيد جيبسون خرجَ من المنزل منذ عودته من المدينة في الساعة الخامسة. ومن

جهةٍ أخرى، فإن السيدة دنبار -كما علمتُ- تقرُّ بأنها حددت موعدًا لمقابلة زوجة السيد جيبسون عند الجسر. لكنها لم ترغب في قول شيءٍ آخر غير هذا، لأن محاميها نصحها بتأجيل دفاعها. إن لدينا العديد من الأسئلة البالغة الأهمية التي نُريد طرحها على هذه السيدة، ولن يرتاح عقلي قبل لقائها. ومع هذا فإن عليَّ الاعتراف بأنها كانت ستبدو لي مُدانةً بقوةٍ في هذه القضية، لولا وجود شيءٍ واحد.

- وما هو هذا الشيء يا هولمز؟

- العثور على المسدس في خزانة ملابسها.

فصرختُ قائلًا:

- يا لغرابتك يا هولمز! إن هذا ليبدو لي أكثر الأسباب إدانةً لها.

- ليس الأمر كذلك يا واتسون. لقد خطَر ببالي -حتى عند قراءتي السريعة الأولى- أن هذا الحدث غريبٌ جدًّا، أمَّا الآن وقد صرتُ أقربَ إلى القضية من ذي قبل، فإن هذا الأمر هو الأرضية الثابتة الوحيدة التي يستقرُّ عليها أملي. ينبغي لنا أن نبحث عن اتساق كامل في الأمور، وحيثما افتقدناه فإن علينا أن نشُكَّ في وجود خدعة.

- لا أكاد أفهم ما تقول.

- اسمع يا واتسون، دعنا نتخيل للحظة أنك هذه المرأة التي توشك على التخلُّص -عمدًا وبطريقةٍ خالية من التعاطف- من امرأةٍ أخرى تُزاحمها في علاقة ما. لقد خطَّطتَ بدقة لذلك. إذ كتبتَ رسالةً، فجاءت الضحية، وسلاحكَ معك، وها قد ارتكبتَ الجريمة. لقد كان عملك بارعًا وكاملًا. هل تريد أن تخبرني أنك -بعدما ارتكبتَ جريمةً بهذه البراعة- كنتَ ستُدمر سُمعتك في عالم الجريمة بالغفلةِ عن إلقاءِ سلاحك في تلك البركة المجاورة التي ينمو فيها القصب، والتي كانت ستمحو أثرَ جريمتك إلى الأبد، وأنك بدلًا من هذا وجدتَ أنه يتحتَّم عليكَ أن تحمله معك بعناية إلى داخل المنزل، وأن تضعه في خزانة ملابسك، وهي أول مكانٍ كانت الشرطة ستُفتشه على الإطلاق؟ لو أنك فعلتَ هذا لما تسنَّى لأفضل أصدقائك أن يروك جديرًا بوصف مُدبر المكائد يا واتسون، لكنني مع هذا لا أستطيع أن أتصور أنك قد تفعل أمرًا على هذه الدرجة الكبيرة من عدم الإتقان.

- لكن في حالة الانفعال ساعةَ ارتكاب الجريمة...

- لا، لا يا واتسون، لن أسلِّم بإمكانية حدوث هذا. إن منْ يُخطِّط لارتكاب جريمة فإنه يُخطِّط لإخفائها أيضًا، لذا فإنني واثق من أننا نتعامل مع سوء فهمٍ خطير.

- يبدو أن هناك الكثير جدًّا مما يحتاج إلى التفسير.

- حسنًا، سوف نشرع في توضيحه. إنك حالما تُغيِّر وجهة نظرك، فإن الأمر عينه الذي كان دليلَ إدانةٍ يصبح مفتاحًا للحقيقة. انظر إلى هذا المسدس على سبيل المثال، إن السيدة دنبار تُنكر أن يكون لها أي معرفةٍ به. وطبقًا لتصوُّرنا الجديد عن الأمر، فإنها تنطق بالحقيقة عندما تقول ذلك، وبناءً عليه، لقد وُضع في خزانة ملابسها، ولكنْ مَن الذي وضعه هناك؟ إنه شخصٌ يريد لها أن تتورَّط في الجريمة. ألم يكن هذا الشخص هو المجرم الحقيقي؟ ها أنت تُلاحِظ كيف تقع أيدينا من فورها على خيطٍ قيِّمٍ من خيوط التحقيق.

اضطررنا إلى قضاء الليلة في وينشستر؛ حيث لم تكن الإجراءات الرسمية للزيارة قد اكتملت بعدُ، وفي صباح اليوم التالي سُمح لنا بزيارة السيدة في زنزانتها، نحن والسيد جويس كامينجز المحامي الصاعد الذي أُسندت إليه مهمة الدفاع عنها في القضية. كنتُ أتوقع -نتيجةً لكلِّ ما سمعناه- أن أرى امرأةً جميلة، لكنني لن أستطيع أبدًا أن أنسى الأثرَ الذي تركتْه السيدة دنبار في نفسي. لم يكن من الغريب أن يجد فيها هذا المليونير المستبد شيئًا أقوى منه هو شخصيًّا، شيءٌ استطاع أن يتحكم فيه وأن يُرشده. لقد كان بإمكان المرء أن يشعر أيضًا -بينما ينظر لوجهِها القويِّ الواضحِ الملامح مع رقَّته- أنها تستطيع علاوةً على ذلك أن تُقدم على الأفعال الطائشة، ومع ذلك فقد كان ثمة نبلٌ متأصل في شخصيتها، مِن شأنه أن يُوجِّهَها دائمًا لفعل الخير. كانت طويلة القامة، بيضاء البشرة، بنية الشعر، وكان لها سمةُ نبيلٍ وطلعة آسرة، لكنَّ عينَيها البُنِّيتَين كانتا تنظران تلك النظرات المتضرعة العاجزة التي تنظرها الطريدةُ عندما تُحس بشبكة الصياد تُطوِّقها وهي عاجزة عن التخلُّص من شَرَكها. وعندما أدركتْ وجود صديقي الشهير ومساعدته، أخذتْ مَسحةٌ من الدماء تسري على وجنتيها الشاحبتَين، وراحَ بريقٌ من الأمل يلتمع في نظراتها السريعة التي رمقَتنا بها. سألَت السيدة دنبار بصوتٍ خافتٍ مرتبك:

– ربما أخبرك السيد نيل جيبسون بشيءٍ مما حدث بيني وبينه، أهذا صحيح؟

أجاب هولمز:

– نعم، لستِ مضطرةً إلى أن تُحمِّلي نفسك عبء المرور على هذا الجزء من القصة. لقد أصبحتُ –بعدما رأيتُك– مُهيَّأً لتصديق كلام السيد جيبسون بخصوص تأثيرِكِ عليه، وبراءة علاقتكِ به كذلك. لكنْ لماذا لم تُوضِّحي الموقف كله في المحكمة؟ لقد بدا لي استحالة أن يثبت اتهامٌ مثل هذا. وكنتُ أظن أننا لو انتظرنا فإن الأمر برُمَّته سيتضح من تلقاءِ نفسه، ومن دون أن نضطرَّ إلى الخوض في تفاصيل جارحةٍ عن حياة الأسرة الخاصة، لكنني أعتقد أنه قد أصبح أكثر خطورةً بإبقائه دونَ توضيح.

هتف هولمز بنبرةٍ جادة:

– سيدتي العزيزة، أرجو أن تتأكدي جيدًا من حقيقة الوضع. إن باستطاعة السيد كامينجز أن يؤكِّد لكِ أن كل الأوراق ضدنا في الوقت الحالي، وأن علينا أن نبذل كلَّ ما بوسعنا إذا كنا نريد أن نحصل على البراءة. ولو أننا زعمنا أنك لستِ في خطرٍ بالغ الجسامة فسيكون هذا تضليلًا قاسيًا، فلتساعديني إذن بكلِّ ما تستطيعينه؛ من أجل الوصول إلى الحقيقة.

– لن أُخفي عنك شيئًا.

– أخبرينا إذن عن حقيقةِ علاقتك بزوجة السيد جيبسون.

– لقد كانت تكرهني يا سيد هولمز، كانت تكرهني بكل ما في طبيعة أبناء المناطق الحارَّة التي تنتمي إليها من حدَّة في عواطفهم. لم تكن امرأةً من النوع الذي يفعل الأشياء بفتور، وقد كانت تكرهني بالقَدر نفسه الذي كانت تُحب به زوجها. من المحتمل أنها أساءت فهمَ العلاقة بيني وبينه. لا أريد أن أظلمها، لكنَّ حبها كان ملتهبًا جدًّا وحسيًّا تمامًا بحيث لم يكن من اليسير عليها أن تتفهم الرابطة العقلية أو حتى الروحية التي جَذبَت زوجها إليَّ، ولا أن تتصور أنه لم يُبقِني في منزله سوى الرغبة في توجيه نفوذه الكبير نحو عمل الخير. لكن بإمكاني الآن أن أدرِك أنني كنتُ مخطئة، لأنه لم يكن ثمة ما

يُسوِّغ لي البقاءَ في منزلٍ كنت أُسبِّب التعاسة لأفراده. ومع ذلك فمن المؤكد أن التعاسة كانت ستستمر، حتى لو كنتُ غادرت المنزل.

قال هولمز:

– الآن يا آنسة دنبار أرجو أن تُخبرينا بما حدث تحديدًا في تلك الليلة.

– يمكنني أن أخبرك بالحقيقة بقدر ما أعرفها يا سيد هولمز، لكنني لا أستطيع إثباتَ أي شيء، وثمة نقاط –هي النقاط الأكثر أهمية– لا أستطيع أن أفسِّرها أو أن أتخيل أي تفسيرٍ لها.

– إذا كنتِ ستضعين يدكِ على الأحداث، فمن الجائز أن يتمكن آخرون من وضعِ أيديهم على التفسير.

– إذن بخصوص وجودي عند جسر ثُور في تلك الليلة، فإنني كنتُ قد تلقيتُ رسالةً من زوجة السيد جيبسون في الصباح. كانت موضوعةً على منضدة حجرة الدرس، وربما تكون هي التي وضعتها هناك بيدها. كانت تتوسل إليَّ فيها أن أقابلها هناك بعد الغداء، وقالت إن ثمة شيئًا مهمًّا تُريد أن تخبرني به، وطَلبتْ مني كذلك أن أترُك ردًّا على رسالتها فوق الساعة الشمسية التي في الحديقة؛ لأنها لم تُرد أن يطَّلع أحد على السر الذي بيني وبينها. لم أرَ مبررًا لمثل هذه السرية، لكنني فَعلتُ ما طلبَته، ووافقتُ على مقابلتها. لقد طَلبتْ مني أن أتخلَّص من رسالتها؛ لذلك أحرقتُها في موقدِ حجرة الدرس. كانت خائفةً جدًّا من زوجها الذي كان يقسو عليها، وقد لُمْته على ذلك مرات عدة، ولم أَتصوَّر أنها تَصرفَت بهذه الطريقةِ إلا لأنها لم تُرِد أن يعرف شيئًا عن لقائنا.

– لكنها مع هذا حَرصَت على الاحتفاظ بردِّكِ على رسالتها، أليس كذلك؟

– بلى، لقد دُهِشتُ عندما عرفتُ أنها كانت في يدها حين تُوفيت.

– حسنًا، وماذا حدث بعد ذلك؟

– ذهبتُ إلى هناك كما وعدتُها، وعندما وصلتُ إلى الجسر كانت في انتظاري. لم أدرك قبل هذه اللحظة قَط كم كانت هذه الإنسانة المسكينة تكرهني! لقد بدت كالمجنونة. في الواقع أظن أنها كانت مجنونةً حقًّا، كان جنونها خفيًّا مدفوعًا بقوة الوهم الغامضة، التي من المحتمل أنها تُسيطِر على المجانين. وإلا فكيف كانت تستطيع أن تُقابلني كل يوم دونما اكتراث، في حين كانت تُضمِر لي في قلبها مثل هذه الكراهية الشديدة! لن أذكر ما قالته، لكنها صبَّت عليَّ غضبها المُستعِر كله في كلماتٍ حادة مُروِّعة. ورغم هذا فلم أَردّ عليها بكلمة، لم أستطع الرد. لقد كان منظرها لا يُطاق؛ لذا وضعتُ يديَّ على أذُنيَّ وأسرعتُ بالفرار. وعندما تركتُها كانت لا تزال واقفةً تكيل لي الشتائم عند مدخل الجسر.

– وأين عُثر عليها بعد ذلك؟

– على بُعد ياردات قليلة من المكان الذي كانت فيه.

– ومع هذا، إذا افترضنا أنها لقِيَت حتفها بعد وقتٍ قليلٍ من رحيلكِ عنها، ألم تسمعي صوت إطلاق النار؟

– لم أسمع شيئًا. لكنني في الواقع يا سيد هولمز كنتُ مرتبكةً ومذعورةً من ثورة غضبها المُروِّعة هذه، فأسرعتُ عائدةً إلى هدوء غرفتي، ولم أكن قادرةً على ملاحظة ما حدث.

– تقولين إنك عُدتِ إلى غرفتِك. فهل خرجتِ منها ثانيةً قبل صباح اليوم التالي؟

– نعم، فلقد أسرعتُ بالخروج مع الآخرِين عندما وصل نبأ وفاة هذه البائسة.

– وهل رأيتِ السيد جيبسون؟

– نعم، لقد كان عائدًا لتوّه من ناحية الجسر حينما رأيته. وقد أرسل في طلب الطبيب والشرطة.

– هل بدا لكِ في حالةٍ شديدة من الاضطراب؟

– إن لدى السيد جيبسون قدرًا كبيرًا من القوة ورباطة الجأش، ولا أظنه يُظهر مشاعره أبدًا، لكنني – وأنا التي عرفَته جيدًا جدًّا– عرفت أنه قلق للغاية.

– لنأتِ إذن إلى النقطة الأكثر أهمية. هذا المسدس الذي عُثر عليه في غرفتك. هل سبق لكِ أن رأيته من قبل؟

– مطلقًا. أقسم على هذا.

– ومتى عُثر عليه؟

– في صباح اليوم التالي، عندما فتَّشَت الشرطة المنزل.

– هل وجدوه بين ملابسِك؟

– نعم، في خِزانةِ ملابسي تحتَ الفساتين.

– ألا يمكنكِ أن تُخمِّني متى وُضِع هناك؟

– لا، لكنه لم يكن موجودًا في صباح اليوم السابق.

– كيف عرفتِ ذلك؟

– لأنني رتَّبتُ خزانة الملابس في ذاك الوقت.

– هذا أمرٌ في غاية الأهمية؛ ذلك أن شخصًا ما دخَل إلى حُجرتكِ، ووضع المسدَّس هناك؛ لكي يُورِّطكِ في الجريمة.

– لا بُد أن يكون هذا ما قد حدث.

– لكن متى؟

– لا يمكن أن يقوم شخص بذلك إلا في أثناء تناول الطعام، أو خلال المُدة التي أكون فيها في حجرة الدرس مع الأطفال.

– أفي مثل ذلك الوقت الذي تلقيتِ فيه الرسالة؟

– نعم، ابتداءً من ذلك الوقت، وإلى آخرِ ساعةٍ من ساعات الصباح.

– شكرًا لكِ يا آنسة دنبار. هل هناك أي معلومة أخرى من شأنها أن تساعدني في التحقيق.

– لا أذكر أمرًا آخر.

– يُوجد في إفريز سور الجسر أثرٌ يدل على وقوعِ عنف، صَدعٌ جديدٌ تمامًا في مواجهة الجثة مباشرةً. هل يمكنك اقتراح أي تفسيرٍ مقبول لهذا؟

– لا شكَّ أنها محض مصادفة.

– غريب يا آنسة دنبار، غريب جدًّا. لماذا يظهر في الوقت نفسه الذي وقعَت فيه الحادثة؟ ولماذا في مكانها بالتحديد؟

– لكن تُرى ما الذي تسبَّب في هذا الصدع؟

غير أن هولمز لم يُجِر جوابًا، واكتسى وجهه الحادُّ الشاحبُ فجأةً بتلك التعابيرِ المُتوتِّرة الحالمة التي تعوَّدتُ أن أربطها بأشدِّ تجلياته عبقريةً وسطوعًا. كان وصولُ تفكيره إلى هذه الذروة شديدَ الوضوح، بحيث لم يجرؤ أيٌّ منا على الحديث معه، بل جلسنا أنا والمحامي والسجينة نُراقب حالة استغراقه وتركيزه في صمت تام، حتى وثبَ عن كرسيه على نحو مفاجئ وهو يرتجُّ من فرط الحماسة والاندفاع الشديد للعمل. صاح قائلًا:

– تعالَ يا واتسون، تعالَ!

– ما الأمرُ يا سيد هولمز؟

– لا تشغلي بالَكِ يا سيدتي العزيزة. سوف أتواصلُ معكَ يا سيد كامينجز، وبمساعدة الرب سأعود إليك بقضية تنشغل إنجلترا بالحديث عنها في كل الأرجاء. سوف تصلكِ الأخبار في الغد يا آنسة دنبار، أما الآن فإنني أؤكد لكِ أن السُّحُب ستنقشع قريبًا، وسيسطع في إثرها ضوء الحقيقة.

لم يكن الانتقال من وينشستر إلى ضَيْعة ثُور بالرحلة الطويلة، لكن الطريق طال عليَّ؛ لنفاد صبري على الوصول، أما عن هولمز فقد بدت الرحلة أبدية بالتأكيد؛ لأنه كان في حالةٍ من التململُ الشديد لا يستطيع معها الجلوس بهدوء، فقد صار يذرع عربة القطار ذهابًا وجيئة، وينقر بأصابعه الطويلة الدقيقة على الوسائد التي يتكئ عليها. لكنه حالما اقتربنا من وجهتنا جلس أمامي على نحو مباغت –وكنا قد اتخذنا لنفسَينا إحدى عربات الدرجة الأولى– ووضع يدَيه على رُكبتيَّ، وأخذ ينظر لعينيَّ تلك النظرة العابثة الغريبة، التي يُطالعني بها كلما صارت حالته المزاجية أقرب لحالة طفل مشاغب. قال:

– واتسون، أذكر أنك تكون مسلحًا عندما نخرج في رحلاتنا القصيرة هذه.

في الحقيقة، كنتُ أفعل ذلك لأجله، لأنه لم يكن يهتم كثيرًا بتأمين نفسه حالما ينهمك عقله في التفكير في قضيةٍ ما؛ لذا فقد كان مسدسي صديقًا مخلصًا لكلينا عدة مرات، وقت كنا في أمسِّ الحاجة إليه. ذكَّرته بهذا حين قال ذلك. فقال:

– أجل، أجل، إن عقلي يغفل قليلًا عن هذه الأمور، إذن هل مسدسك معك؟

هنا أخرجته من جيبِ سروالي الخلفي، كان سلاحًا قصيرًا صغيرَ الحجم سهل الاستعمال، لكنه مفيد جدًّا. فكَّ هولمز سقاطةَ المسدس، وأخرج منه الرصاص، وأخذ يتفحَّصه بعناية. ثم قال:

– إنه ثقيل، ثقيل بصورة ملحوظة.

– نعم، إنه قطعةُ سلاحٍ متينة.

ظلَّ هولمز يتأمَّله مدةَ دقيقة، ثم قال:

– أتعرف يا واتسون، أعتقد أنه سيكون لمسدسك صلةٌ وثيقةٌ جدًّا باللغز الذي نُحقِّق فيه.

– عزيزي هولمز، إنك تمزح.

– لا يا واتسون، إنني جادٌّ جدًّا. ثمة اختبارٌ أمامنا، لو نجحنا في اجتيازه سيتضح لنا كل شيء. وسيعتمد نجاحنا على ما سيكون من هذا السلاح الصغير. فلنُبقِ رصاصة واحدة خارجه، ولنُعِد الآن الرصاصات الخمس الأخرى إلى مكانها، ثم نغلِق سُقَاطة الأمان؛ وهكذا نكون قد زِدنا وزنه وجعلنا منه نسخةً مطابقةً أفضل كثيرًا.

لم تكن لديَّ أدنى فكرة عما يدور في ذهنه، ولم يُطلعني على شيء آخر، لكنه جلس غارقًا في التفكير حتى وصلنا محطة هامبشير الصغيرة، ومن ثَمَّ استأجرنا مركَبةً متداعيةً، وفي غضونِ ربع ساعة كنا في منزل صديقنا الأمين، الرقيب كوفنتري.

– هل حصلتَ على دليلٍ يا سيد هولمز؟

فقال صديقي:

– إن الأمر برُمته يعتمد على ما سيفعله مسدس الدكتور واتسون. ها هو ذا، والآن أيها الضابط، هلَّا تعطيني حبلًا بطولِ عشرِ ياردات؟

– لدينا لفة من الحبل المتين المَجدُول، حصلنا عليها من متجر القرية.

فقال هولمز:

– أظن أن هذا كل ما سنحتاج إليه. والآن إذا سمحتَ لي، سننطلق إلى آخر محطة في رحلتنا كما أرجو.

كانت الشمس تميل إلى المغيب وتُحيل الأرض البراح ذات النباتات المتمايلة في هامبشير إلى مشهدٍ خريفيٍّ رائع، وكان الرقيب يتهادى في سيره بجوارنا وفي عينَيه الكثيرُ من نظرات النقد والريبة، التي تنمُّ عن شكوكه العميقة في عقل صاحبي. وعندما اقتربنا من مسرح الجريمة، استطعتُ أن أرى كيف كان صديقي قلِقًا بشدة، برغم ما بدا عليه من فتور معتاد. أجاب هولمز على ملاحظتي قائلًا:

– أجل، لقد رأيتَني أُخطئ الهدف من قبل يا عزيزي واتسون. إنني موهوبٌ في مثل هذه الأشياء، لكنها ما زالت قادرة على خداعي بين الحين والآخر. لقد بدَت لي الفكرة يقينية تمامًا عند مرورها بذهني لأول مرة، حين كنا في زنزانة وينشستر، غير أن إحدى العقبات التي تُواجه العقل النشط، هي أنَّ صاحبه يستطيع دائمًا أن يتصوَّر عددًا من التفسيرات البديلة، وهو ما يُوقِع حدسنا الباطني في الأخطاء. ليس هذا فحسب، لكن في واقع الأمر يا واتسون، ليس بإمكاننا إلا أن نحاول.

ربَط هولمز في أثناء سيره أحدَ طرفيَ الحبل بإحكامٍ في مقبض المسدس، وحالما وصلنا إلى المكان الذي وقعَت فيه المأساة، أخذ هولمز يرسم بعنايةٍ فائقة –وبإرشاد من الرقيب– حدودَ الموقع الذي استلقَت فيه الجثة بدقة شديدة، ثم أخذ يُفتِّش بين سيقان الخلنج والسرخس حتى وجد حجَرًا كبيرًا، ربطه بإحكامٍ في الطرف الآخر من الحبل، ثُم دلَّاه من فوقِ حاجز الجسر بحيث صار يتأرجح حرًّا فوق المياه. ثم وقفَ في مكان الجثة –على مسافةٍ من حافة الجسر– ممسكًا بمُسدسي في يده، بحيث كان الحبل مشدودًا بين السلاح والحجر الثقيل من الجانب الأقصى. صاح هولمز قائلًا:

– الآن سنقوم بالتجربة!

رفع هولمز المسدسَ إلى رأسه وهو ينطق بهذه الكلمات، ثم فتح قبضته. وعلى الفور سحبه ثقلُ الحجر، فارتطمَ في الحاجز مُحدِثًا دويًّا حادًّا، قبل أن يختفي في جوف المياه. ولم يكدِ المسدس يختفي حتى جثا هولمز على ركبتَيه بجوار السور الحجري، وصاح صيحةَ فرحٍ تُخبر بأنه وجد ما كان يتوقَّعه. ثم صاح قائلًا:

– هل رأيت دليلًا أكثر دقةً من هذا قبل الآن؟ أرأيتَ ذلك يا واتسون؟

وبينما كان يتكلم أشار بيده إلى صدعٍ آخر في نفسِ حجم وشكل الصدع الأول الموجود في الحافة السفلى من الحاجز الحجري، وتابع قائلًا:

– لقد حلَّ مسدسُك القضية.

ومن ثَم واصل هولمز كلامه وهو ينهض واقفًا ويواجه الرقيب المشدوه قائلًا:

– سنبيتُ في الفندق الليلة. وستُحضر أنت خُطافًا، وتستعيدُ مسدس صديقي بكل سهولة. وسوف تجد بجواره المسدَس والحبلَ والحجرَ الذي استخدمَته المرأةُ الحاقدة في مُحاولِتها لإخفاء جريمتها وإلصاق تهمة القتل بضحيةٍ بريئة. يُمكنك إخبار السيد جيبسون أنني سأراه في الصباح؛ حيث سيُمكِننا أن نتخذ خطواتٍ في سبيل تبرئة السيدة دنبار.

وفي وقتٍ متأخر من هذه الليلة، وبينما نُدخِّن الغليون معًا في فندق القرية، قدَّم لي هولمز استعراضًا مختصرًا لما جرى. إذ قال لي:

– أخشى يا واتسون أن إضافتك قضيةَ لُغزِ جسرِ ثُور إلى سجلاتك الخاصة بي، لن تُضيف لما قد أكون اكتسبته من صيت حسن على الإطلاق. لقد كنتُ بليدَ الذهن، كما أنني لم أكن على المستوى المطلوب في ذلك المزج بين الخيال والحقيقة، الذي هو أساسُ مهارتي. أعترف أن الصدع الذي وجدناه في الحاجز الحجري كان دليلًا كافيًا منذ البداية للوصول إلى الحل الصحيح، وأنني ألوم نفسي لأنني لم أتوصل إليه أسرعَ من ذلك. لا بُد من الاعتراف بأن طريقة تفكير هذه المرأة البائسة خبيثة جدًّا وغامضة؛ لذا لم يكن حل خيوط مؤامرتها بالأمر الهيِّن. لا أعتقد أننا رأينا قطُّ في مغامراتنا نموذجًا أشدَّ غرابةً من هذا؛ لِما يمكن للحب المُشوَّه أن يتسبَّب فيه، لأنه سواء أكانت السيدة دنبار تُضاهيها في الجمال أم في العقل فقط، فيبدو أن كلا الأمرَين كانا في نظرها جريمةً لا تُغتفر. لا شك أنها كانت تُحمِّل هذه السيدة البريئة المسؤوليةَ عن المعاملة السيئة والكلمات القاسية التي قاومَ بها زوجُها مبالغاتها في التعبير عن الحب. وقد كان أول قرارٍ اتخذَته أن تُجْهِز على حياتها. أمَّا قرارُها الثاني فكان أن تَفعلها بطريقةٍ تُوقع ضحيتها في مصيرٍ أسوأ بكثير من أي طريقة أخرى للموت.

يمكننا أن نتتبَّع خطوات الجريمة بوضوحٍ تام، وإنها لتدلُ على دهاء المرأة الشديد. لقد استطاعت أن تستنطق رسالة من السيدة دنبار من شأنها أن تجعل الأمر يبدو وكأنها هي التي اختارت مكان الحادث. لكنَّ حرصها الشديد على أن تُكتشف هذه الرسالة أوقعها في مبالغة ما، إذ استمرَّت تُمسك بالورقة في يدها حتى النهاية. كان ينبغي لهذا وحده أن يُثير شكوكي في وقتٍ مبكرٍ عن ذلك الذي بدأت تراودني فيه الشكوك. بعد ذلك حصلَت على واحد من مسدسات زوجها، وقد كان في المنزل ترسانةُ أسلحة مثلما رأيت، فأبقَته معها، وأخفَت المسدس الآخر الذي يشبهه في صباح ذلك اليوم في خزانة

ملابس السيدة دنبار، بعد أن أفرغَت موضع رصاصة واحدة من خزينته، وهو ما كانت تستطيع أن تقوم به داخل الغابة دون أن تلفت انتباه أحد. بعد ذلك اتَّجهَت إلى الجسر، حيث كانت قد أعدت لتلك الطريقة الحذقة للتخلص من السلاح. وعندما وصلت السيدة دنبار، شرعت في سبِّها ووصمها بالعار وصبِّ اللعنات عليها، وبعد أن انصرفَت السيدة دنبار وصارت أبعدَ من أن تسمع دويَّ الرصاصة، نفَّذَت الزوجة غايتَها المنشودة. الآن كُشِف المستور ووضحَت الصورة. وربما تتساءل بعض الجرائد لماذا لم يُفتش قاعُ البُحيرة منذ البداية؟ لكنَّ من السهل عليهم التظاهُر بالذكاء بعد أن كُشِف الأمر! وعلى أي حال، فإن تفتيش بحيرةٍ مغمورة بالقصب ليس بالأمر اليسير، إلا لو كُنتَ مدركًا تمامًا أين تبحث وعن أيِّ شيء.

في النهاية يا واتسون، لقد ساعدْنا امرأةً مُميَّزة، ورجلًا مُرعِبًا في ذات الوقت، فهل سيوحِّدان طريقهما في المستقبل؟ لا يبدو هذا صعب المنال، وربما يُلاحِظ عالَمُ الأموال كيف تعلَّم السيد جيبسون درسًا مهمًّا في مدرسة الحُزن، تلك التي نتعلَّم فيها دروس الحياة.

قضية الرجل الزاحف

دائمًا ما كان السيد شيرلوك هولمز يرى ضرورة أن أنشر الحقائق الغريبة المتعلقة بالبروفيسور بريسبري، حتى ولو كان ذلك فقط من أجل تبديد كل الشائعات المزعجة التي أثارت قلق الجامعة، وتردد صداها في المجتمعات العلمية في لندن منذ نحو عشرين عامًا. ولكن الطريق لتحقيق ذلك كانت تشوبه بعض العقبات، وظلت القصة الحقيقية لهذه الحالة الغريبة مدفونة في صندوقي الذي يحوي العديد من سجلات مغامرات صديقي. أما الآن فقد حصلنا أخيرًا على إذن بإعلان الحقائق التي شكلت واحدة من آخِر القضايا التي تولاها هولمز قبل تقاعده. وحتى في وقتنا الراهن علينا أن نلتزم قدرًا من التحفظ والحذر عند عرض الأمر على الجمهور.

في مساء يوم الأحد من بداية شهر سبتمبر عام (1903) تلقيت من هولمز رسالة مقتضبة كتب فيها:

«احضر على الفور إذا كان ذلك مناسبًا لك، وإن لم يكن مناسبًا، فاحضر على أي حال.

شيرلوك هولمز».

كانت العلاقة بيننا غريبة في تلك الأيام، هولمز رجل روتيني يتبع عادات محددة، وقد أصبحت أنا إحدى عاداته، كأحد الأشياء الأساسية في حياته؛ كنت كالكمان والتبغ والغليون الأسود القديم والكتب والفهارس، وأشياء أخرى قد أجد صعوبة في تفسير أهميتها عنده.

عندما تظهر قضية تتطلب عملًا جادًّا يحتاج فيه إلى رفيق يمكنه الاعتماد على شجاعته ورباطة جأشه، حينها تظهر أهمية دوري. بالإضافة إلى ذلك، كانت لي منافع أخرى، كنت أداة لشحذ عقله وتحفيزه، فقد كان يحب أن يفكر بصوت عالٍ في حضوري. لا يمكنني أن أزعم أنه كان يوجه ملاحظاته إليَّ، إذ كان يوجه أغلب كلامه إلى هيكل سريره، كانت تلك عادته على أي حال، وكان حضوري مفيدًا بطريقة ما؛ لأسجل ما يقوله وأناقشه. وحتى إذا أزعجه البطء الذي تتسم به عقليتي في التفكير المنهجي، فإن هذا الانزعاج لم يؤدِّ إلا إلى مساعدة انطباعاته وحدسه المُلتهب أن يتوهجا بصورة أسرع وأكثر جلاءً. كان هذا دوري المتواضع في علاقتنا.

عندما وصلت إلى شارع بيكر، وجدته مكومًا في كرسيه ذي الذراعين وركبتاه مرفوعتان ومضمومتان، يضع غليونه في فمه وقد قطَّب حاجبيه غارقًا في التفكير. كان من الواضح أنه في خضم مسألة مزعجة، وبإيماءة من يده، أشار إلى الكرسي القديم ذي الذراعين الخاص بي. وفيما عدا ذلك لم تبدُ منه أي إشارة توحي بأنه مدرك لوجودي مدة نصف ساعة كاملة. ومن ثَمَّ بدا وكأنه يفيق من حلم يقظة، وبابتسامته الغريبة، رحب بي مرة أخرى في المنزل الذي كان يومًا ما منزلي. قال:

– أرجو أن تعذر شرود ذهني يا عزيزي واتسون، فقد قُدمت لي بعض الوقائع الغريبة خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية؛ وقد أدت بدورها إلى طرح بعض التصورات العامة. إنني أفكر تفكيرًا جديًّا في كتابة دراسة قصيرة عن فوائد استخدام الكلاب في عمل المحقق.

– ولكن من المؤكد أنه قد تمت دراسة هذا الأمر من قبل ذلك يا هولمز.. (الكلاب البوليسية بأنواعها...).

– لا، لا يا واتسون، هذا الجانب من المسألة واضح بالتأكيد. لكنّ ثمة جانبًا آخر أشد خفاءً بكثير. لعلك تتذكر تلك القضية التي أطلقت عليها بطريقتك المثيرة اسم «مغامرة منزل الأشجار النحاسية»

حينما تمكنت من خلال مراقبة الحالة المزاجية للطفل من استنتاج العادات الإجرامية لذلك الأب المرموق المتعجرف.

– نعم، أتذكرها جيدًا.

– إن أفكاري عن الكلاب تتخذ مسارًا مماثلًا. فالكلاب تعكس طبيعة حياة الأسرة التي تعيش بينها، فمَن الذي يمكنه أن يرى كلبًا مرحًا في أسرة كئيبة أو كلبًا حزينًا في أسرة سعيدة؟ ستجد أن الأشخاص الغاضبين كلابهم مزمجرة، والأشخاص الخطرين كلابهم خطرة، ومن ثَمَّ قد تعكس أمزجة الكلاب أمزجة أصحابها.

هززت رأسي قائلًا:

– لكن هذا احتمال بعيد يا هولمز!

كان هولمز قد أعاد ملء غليونه، وعاد إلى كرسيه دون أن يُعير انتباهًا لتعليقي. ثم قال:

– إن التطبيق العملي لما قلته له صلة وثيقة بالمسألة التي أحقق فيها. إنها عقدة من خيوط متشابكة، وكما تعرف أنا أبحث عن طرفٍ يمكنني البدء منه، وقد يكمن أحد هذه الأطراف في السؤال: لماذا حاول روي الكلب الذئبي للبروفيسور بريسبري أن يعضه؟

أسندت ظهري إلى مقعدي وقد شعرت بشيء من خيبة الأمل، ألهذا السؤال التافه استدعاني من عملي؟ رمقني هولمز بنظرة وقال:

– إنك لن تتغير أبدًا يا واتسون! ولن تتعلم أبدًا. إن مفتاح حلول أخطر القضايا قد يعتمد على أصغر الأشياء. لقد سمعتَ بالطبع عن بريسبري، أستاذ الفسيولوجيا الشهير بجامعة كامفورد. أليس من الغريب أن مفكرًا عجوزًا ووقورًا مثله يتعرض لهجوم من كلبه الذي يعتبر صديقه المخلص الوفي، ولمرتين؟ بماذا تفسر ذلك؟

– الكلب مريض.

– حسنًا، يجب أن نأخذ هذا الاحتمال بعين الاعتبار، ولكنه لم يهاجم أي شخص آخر، ولا يبدو حتى إنه يزعج صاحبه إلا في مناسبات خاصة جدًّا. إنه أمر غريب يا واتسون، غريب للغاية. ها هو السيد بينيت الشاب قد جاء قبل موعده، إن كان هو من يدق الجرس. كنت أتمنى أن يطول حديثنا أكثر قبل مجيئه.

سمعنا وقع خطوات سريعة على الدرج، ثم قرع حاد على الباب، وبعد لحظة، دخل العميل الجديد يقدم نفسه. كان شابًّا وسيمًا طويل القامة، في نحو الثلاثين من عمره، حسن الملبس وأنيق المظهر، ولكن كان هناك شيءٌ في سلوكه يشي بخجل الطالب وليس ثقة رجل ذي خبرة في الحياة. صافح يدي هولمز ثم نظر إليَّ بشيء من الدهشة، ثم قال:

– هذه المسألة حساسة للغاية يا سيد هولمز. يجب أن تراعي صلتي بالبروفيسور بريسبري على المستويين الخاص والعام، فمن الصعب أن أجد مبررًا يدفعني إلى التحدث في وجود أي شخص آخر.

– لا تقلق يا سيد بينيت. فإن الدكتور واتسون رجل كتوم وأهل للثقة. بالإضافة إلى أنني على الأرجح سأحتاج إلى وجود مساعد في هذا الأمر.

– حسنًا، كما تشاء يا سيد هولمز. أنا متأكد مِن تفهُّمك لتحفظي في هذا الأمر.

– سوف تقدِّر الأمر يا واتسون حينما أخبرك بأن هذا السيد النبيل، تريفور بينيت، هو مساعد العالِم العظيم، وهو خطيب ابنته ويعيش معه تحت سقف واحد. ولا بد أن نتفق على أن البروفيسور يرى أنه يستحق كل الثقة والتقدير؛ لولائه وإخلاصه، ولكن ربما يكون من الأفضل إثبات ذلك من خلال اتخاذ الخطوات اللازمة لتفسير هذا اللغز الغريب.

– آمل ذلك يا سيد هولمز. فذلك هو غرضي الوحيد. هل الدكتور واتسون على علم بالوضع؟

– لم أملك الوقت الكافي كي أشرح له.

– إذن ربما يكون من الأفضل أن أستعرض خلفية الموضوع أولًا قبل أن أخبركما ببعض التطورات الجديدة.

قال هولمز:

– سأفعل ذلك بنفسي؛ لكي أثبت أنني مُلم بالأحداث في ترتيبها الصحيح. إن سمعة البروفيسور ذائعة في أوروبا كلها يا واتسون. إن لحياته طابع أكاديمي ولم تشب سمعته أي شائنة قط. إنه رجل أرمل ولديه ابنة واحدة اسمها إديث، وهو –حسب استنتاجي–، رجل ذو شخصية فعَّالة وإيجابية للغاية. ربما يمكننا القول بأنه شخصية نضالية، وقد ظل الأمر هكذا حتى بضعة أشهر. ثم اضطرب مسار حياته بعد ذلك. إنه في الواحد والستين من عمره، لكنه خطب ابنة البروفيسور مورفي، زميله في قسم التشريح المقارن. ولم يكن حبه لها –كما فهمت– يعدُّ شعورًا متعقلًا نابعًا من رجل عجوز، وإنما كان أشبه بالجنون العاطفي للشباب، فلا يمكن لأحد أن يبدي كل هذا التفاني والإخلاص في الحب. وكانت السيدة «أليس مورفي» فتاة مثالية من ناحية العقل والجسد كذلك، لذا فالبروفيسور كان معذورًا تمامًا في افتتانه بها. ولكن تلك العلاقة لم تحظ بالموافقة الكاملة من عائلته.

قال ضيفنا:

– نعم، إننا نرى أنها علاقة تخطت حدود المعقول.

فتابع هولمز:

– بالضبط. إنها تخطت حدود المعقول إلى حد ما وغريبة أيضًا. كان البروفيسور بريسبري ثريًّا، ولم يكن هناك اعتراض من جانب الوالد، أما الابنة فكانت لديها آراء أخرى، وقد كان هناك العديد ممن يتقدمون لخطبتها. وحتى إن كان البروفيسور يفوقهم غنى، فإنهم كانوا على الأقل مناسبين أكثر من الناحية العمرية. بدا أن الفتاة أعجبت بالبروفيسور مع غرابة أطواره، ولم يكن هناك سوى عنصر السن يقف عقبة في الطريق. وفي هذه الفترة خيّم بعض الغموض فجأة على الروتين المعتاد لحياة البروفيسور، فقد فعل ما لم يكن يفعله قط من قبل، لقد غادر المنزل دون أن يخبر أحدًا بوجهته، وغاب مدة أسبوعين، ثم عاد مرهقًا كمَن أضناه السفر ولم يذكر أي شيء عن المكان الذي ذهب إليه، مع أنه أكثر الرجال صراحة ووضوحًا في العادة. ولكن تصادف أن عميلنا هنا، السيد بينيت، تلقى رسالة من أحد

زملائه الطلاب في براغ، أخبره فيها عن سعادته برؤية البروفيسور بريسبري هناك، ولكنه لم يتمكن من التحدث معه. وبهذه الطريقة فقط عرف أهل بيته بالمكان الذي ذهب إليه. والآن تأتي النقطة الأكثر أهمية، فمنذ ذلك الوقت طرأت على البروفيسور تغيرات غريبة، إذ أصبح غامضًا وكتومًا. حتى صار من حوله يشعرون أنه لم يعد الرجل نفسه الذي كانوا يعرفونه، فقد أصبح محاطًا بظلال تخفي طبيعته المثالية. لم يتأثر ذكاؤه، وكانت محاضراته رائعة كعهده دائمًا. لكن كان ثمة شيء ما جديد، شيء ينذر بالشؤم ولا يمكن توقعه. حاولت ابنته المخلصة مرارًا وتكرارًا أن تستعيد علاقتها القديمة معه، وأن تخترق هذا القناع الذي بدا أن والدها قد ارتداه. وأنت أيضًا يا سيدي -حسب علمي- حاولتَ أن تفعل الشيء نفسه، ولكن كل هذه المحاولات ذهبت هباءً. والآن يا سيد بينيت أخبرنا بنفسك عن حادثة الخطابات.

فقال بينيت:

- يجب أن تفهم يا دكتور واتسون أن البروفيسور لم يكن يخفي عني أسراره قط، ولو كنت ابنه أو أخاه الأصغر لما كنت لأحظى بثقته على نحو أفضل من ذلك، وبصفتي سكرتيره ومساعده الخاص، كنت أستلم كل ورقة تَرِده، وأقوم بفتح الخطابات وأصنفها حسب فئاتها، ولكن من بعد عودته بفترة قصيرة تغير كل ذلك، فقد أخبرني أن هناك بعض الخطابات قد ترده من لندن، وسيكون عليها علامة صليب تحت طابع البريد، وأن عليَّ أن أُنحِّي هذه الخطابات جانبًا؛ لكيلا يراها أحدٌ غيره. يمكنني القول بأن العديد من هذه الخطابات قد مر بين يدي، تحمل علامة (E. C.) ومكتوبة بخط يصعب قراءته. لكنه إذا حدث وردَّ على أي منهم، فلم تكن تلك الردود تمر بين يدي، ولا توضع حتى في سلة البريد التي نجمع مراسلاتنا فيها.

قال هولمز:

- وماذا عن الصندوق؟

- آه، نعم، الصندوق. لقد جلب البروفيسور معه من أسفاره صندوقًا خشبيًّا صغيرًا. وهو الشيء الوحيد الذي يدل على قيامه بجولة أوروبية، حيث كان واحدًا من القطع المنحوتة العتيقة التي تذكِّر المرء بألمانيا. يحتفظ بهذا الصندوق في خزانة أدواته. وذات يوم، بينما كنت أبحث عن قُنية في الخزانة، أمسكت بالصندوق، وفاجأتني شدة غضبه، فقد أخذ يوبخني بأقسى الألفاظ بسبب فضولي. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يحدث فيها شيء كهذا، وقد جرح هذا كبريائي جدًّا. حاولت أن أوضح له أنني لم أتعمد أن ألمس الصندوق، ومع ذلك ظل يرمقني بنظرات حادة طوال المساء، وكان من الواضح أنه لم يتجاوز ما حدث.

ثم أخرج السيد بينيت مفكرة صغيرة من جيبه وقال:

- كان ذلك في الثاني من يوليو.

قال هولمز:

- إنك شاهد ممتاز بلا شك، فقد أحتاج إلى بعض هذه التواريخ التي دوَّنتها.

– لقد تعلمت المنهجية من أستاذي من بين أشياء كثيرة أخرى. منذ بدأت ألاحظ سلوكه الغريب، شعرت أنه من واجبي أن أقوم بدراسة حالته، ومن ثَمَّ دونت هنا أنه في ذلك اليوم بالتحديد، الثاني من يوليو، قد هاجم روي البروفيسور بينما كان يخرج من مكتبه إلى القاعة. ثم تكرر ذلك مرة أخرى في الحادي عشر من يوليو، ثم في العشرين من يوليو أيضًا. وبعد ذلك، كان علينا إبعاد روي إلى الإسطبلات. لقد كان كلبًا ودودًا وعزيزًا علينا.. أخشى أن أكون قد أضجرتكما بكلامي.

تحدث السيد بينيت بنبرة عتاب لأنه كان من الواضح أن هولمز لم يكن يستمع إليه. فقد كان وجهه جامدًا وعيناه تحدقان إلى السقف. ولم يستفق من شروده إلا ببعض الجهد. ثم تمتم قائلًا:

– غريب! غريب للغاية! هذه التفاصيل جديدة عليَّ يا سيد بينيت. أعتقد أننا أوضحنا خلفية الموضوع توضيحًا كافيًا، أليس كذلك؟ ولكنك تحدثت عن بعض التطورات الجديدة.

تحولت ملامح ضيفنا وتجهم وجهه بتذكر تلك الحادثة، ثم تابع قائلًا:

– ما أتحدث عنه قد جرى في الليلة قبل الماضية. كنت مستيقظًا في سريري في الثانية صباحًا، حينما سمعت صوتًا خافتًا مكتومًا يأتي من الردهة، ففتحت الباب وأخذت أسترق النظر إلى الخارج. ويجب أن أوضح أن غرفة نوم البروفيسور تقع في آخر الردهة...

سأل هولمز:

– وكان ذلك بتاريخ...؟

كان من الواضح أن ضيفنا قد انزعج بشدة من تلك المقاطعة التي لا صلة لها بالموضوع، فقال:

– لقد ذكرت يا سيدي أن ذلك قد جرى في الليلة قبل الماضية، أي في الرابع من سبتمبر.

أومأ هولمز برأسه وابتسم، ثم قال:

– أكمِل من فضلك.

فتابع الضيف كلامه:

– إن غرفة نومه تقع في آخر الردهة وكان لا بد له من أن يمرَّ بباب غرفتي لكي يصل إلى الدرج. لقد كانت تجربة مرعبة حقًّا يا سيد هولمز. أعتقد أنني أمتلك أعصابًا قوية كجيراني، ولكن ما رأيته قد أخافني حقًّا. كان الممر مظلمًا باستثناء بقعة من الضوء قد سطعت من النافذة الموجودة في منتصف الممر. واستطعت أن أرى شيئًا يتحرك في الممر، شيئًا داكنًا يزحف في الظلام، وظهر فجأة عندما اقترب من الضوء، ورأيته، لقد كان هو. كان يزحف يا سيد هولمز، كان يزحف! ولم يكن يزحف على يديه وركبتيه، وإنما على يديه وقدميه، وكان وجهه غارقًا بين يديه. ومع ذلك، فقد بدا أنه يتحرك بسهولة. شعرت وكأنني أصبت بالشلل فقد جعلني منظره أتسمر في مكاني لثوانٍ، حتى وصل إلى باب غرفتي، فتقدمت وسألته إن كان يحتاج إلى المساعدة. فكانت إجابته في غاية الغرابة؛ نهض ورماني بلفظ بذيء، ومرَّ مسرعًا من أمامي وأخذ يهبط الدرج. انتظرت نحو ساعة، لكنه لم يعد. لا بد أنه لم يعد إلى غرفته حتى بزغ ضوء الصباح.

سألني هولمز وكأنه عالم الأمراض يعرض حالة نادرة:

– حسنًا يا واتسون، ما الذي تستنتجه من ذلك؟

– ربما يعاني من آلام أسفل الظهر، هناك نوبات حادة تجعل الرجل يمشي بهذه الطريقة، ولا شيء يمكن أن يكون أكثر مشقة على النفس من ذلك، ربما جعله ذلك يفقد أعصابه.

– جيد يا واتسون! إنك دائمًا ما تزودنا بالحقائق، ولكننا لا نستطيع أن نقبل باحتمال أن يكون السبب هو آلام أسفل الظهر، لأنه سرعان ما استطاع الوقوف منتصبًا.

قال بينيت:

– كانت صحته في أفضل حال، ربما حتى أفضل من أي وقت مضى. فقد كان أقوى مما عهدته منذ سنوات. ولكن ها هي الحقائق أمامك يا سيد هولمز. وتلك مسألة لا يمكننا أن نستشير الشرطة فيها، وقد كنا في غاية الحيرة بشأن ما يجب علينا فعله، وينتابنا شعور غريب بأننا ننجرف نحو كارثة. والآنسة إديث بريسبري تشعر بهذا أيضًا، ولا يمكننا أن نجلس مكتوفي الأيدي أكثر من ذلك.

– إنها قضية غريبة ومثيرة بلا شك، ما رأيك يا واتسون؟

– من منطلق كوني طبيبًا، فإنها تبدو لي حالة عقلية، فقد اختلت عمليات الدماغ لدى البروفيسور بسبب هذه العلاقة العاطفية. وقد قام برحلة إلى الخارج على أمل أن ينسى عشقه. وقد تكون الخطابات والصندوق مرتبطة ببعض المعاملات الخاصة، قرض على سبيل المثال أو بعض شهادات الأسهم التي وضعها في الصندوق...

– ولا شك أن الكلب الذئبي كان معترضًا على تلك الصفقة المالية. لا، لا، يا واتسون، إن المسألة أكثر تعقيدًا من ذلك، لا يسعني إلا أن أقترح...

إن ما كان شيرلوك هولمز على وشك أن يقترحه سيظل مجهولًا إلى الأبد، ففي هذه اللحظة، انفتح الباب ودخلت سيدة شابة إلى الغرفة، وبمجرد أن رآها السيد بينيت نهض وأقبل عليها وقد مد يديه لتلتقيا بيديها الممدودتين وهو يصيح قائلًا:

– إديث! عزيزتي! آمل أن تكون الأمور على ما يرام، هل حدث شيء ما؟

– شعرت بأنني يجب عليَّ أن أتبعك، آه يا جاك! لقد كنت خائفة مرعوبة للغاية! إنه لشيء مخيف أن أكون هناك بمفردي.

– هذه هي السيدة الشابة التي كنت أتحدث عنها يا سيد هولمز، إنها خطيبتي.

ابتسم هولمز وأجابه قائلًا:

– كنا على وشك أن نتوصل إلى هذا الاستنتاج. أليس كذلك يا واتسون؟ أعتقد يا آنسة بريسبري أن هناك بعض التطورات الجديدة في القضية، فشعرتِ بأننا يجب أن نعرفها، أليس ذلك صحيحًا؟

كانت ضيفتنا الجديدة شابة حسناء وجذابة تتسم بالجمال الإنجليزي التقليدي، أجابت على ابتسامة هولمز بابتسامة مماثلة بينما تتخذ مقعدها بجانب السيد بينيت، وقالت:

– حين اكتشفت أن السيد بينيت قد غادر فندقه، توقعت أن أجده هنا. فقد أخبرني بالطبع أنه سيستشيرك في الأمر. آه يا سيد هولمز ألا يمكنك فعل أي شيء من أجل والدي المسكين؟

– آمل هذا يا آنسة بريسبري، ولكن القضية لا تزال غامضة، ولعل ما ستخبرييننا به قد يكشف لنا بعض الحقائق الجديدة.

– حدث ذلك في الليلة الماضية يا سيد هولمز. كان يتصرف بغرابة شديدة طوال اليوم. أنا متأكدة من أنه لا يتذكر أحيانًا ما يفعله، وكأنه يعيش في حلم غريب. كان الأمس يومًا غريبًا حقًّا. لم أكن أشعر بأنه هو والدي الذي عشت معه. مظهره الخارجي كما هو، ولكن تلك ليست طبيعته بالتأكيد.

– أخبريني بما حدث.

– استيقظت في الليل على صوت نباح الكلب الشديد روي المسكين، إنه مقيد بالسلاسل الآن بالقرب من الإسطبل. يمكنني القول إنني دائمًا ما أنام وباب غرفتي مغلقًا، فنحن، كما سيخبرك جاك –السيد بينيت– نشعر أننا جميعًا مهددون بخطر وشيك. إن غرفتي تقع في الطابق الثاني، كانت ستائر نافذتي مفتوحة، وضوء القمر يسطع بالخارج. وبينما كنت مستلقية وعيناي مثبتتان على مربع الضوء مستمعةً إلى نباح الكلب الجنوني، ذهلت لرؤية وجه والدي ينظر إليَّ من النافذة. لقد كدت أموت من شدة الرعب والفزع يا سيد هولمز. كان وجهه ملتصقًا بزجاج النافذة، وقد بدت إحدى يديه مرفوعة وكأنه يحاول دفع النافذة. لو كانت تلك النافذة قد فُتحت، أعتقد أنني كنت سأصاب بالجنون. ذلك لم يكن وهمًا يا سيد هولمز. لا تنخدع باعتقاد ذلك. يمكنني أن أجزم بأنني كنت أنظر إلى ذلك الوجه بالفعل طوال عشرين ثانية تقريبًا وأنا راقدة بلا حراك وكأنني قد شللت. ثم اختفى بعد ذلك، لكنني لم أستطع.. لم أستطع أن أنهض من الفراش لأتابعه ببصري خارج النافذة، فقد تجمدت في مكاني، وبت أرتجف حتى الصباح. وفي أثناء الفطور كان حادًّا وعنيفًا في كلامه، دون أن يبدر منه أي تلميح أو إشارة إلى مغامرة الليل. وأنا كذلك لم أفعل. لكنني تذرعت بالذهاب إلى المدينة، وهأنذا قد جئت إلى هنا.

بدا هولمز مدهوشًا تمامًا مما حكته الآنسة بريسبري. ثم سألها:

– آنستي العزيزة، تقولين إن غرفتك في الطابق الثاني، فهل يوجد سلم طويل في الحديقة؟

– كلا يا سيد هولمز، وذلك هو المثير للدهشة في الأمر. لا توجد أي طريقة يمكنه أن يصل بها إلى النافذة.. ومع ذلك فقد رأيته هناك.

قال هولمز:

– كان ذلك في بتاريخ 5 من سبتمبر، إن ذلك يزيد الأمور تعقيدًا بلا شك.

قال بينيت:

– تلك هي المرة الثانية التي تشير فيها إلى التاريخ يا سيد هولمز، هل من الممكن أن يكون لذلك أي تأثير على القضية؟

فقال هولمز:

– هذا وارد، وارد جدًّا، ولكنني لا أملك كل المعلومات في الوقت الحالي.

– لعلك تفكر في العلاقة بين الجنون وأطوار القمر؟

– لا، أؤكد لكم أن الأمر ليس كذلك. إنني أفكر في اتجاه آخر. ربما يمكنك أن تترك مفكرتك معي لأتحقق من التواريخ. والآن يا واتسون، أعتقد أن خطوات عملنا بدت واضحة تمامًا. لقد أخبرتنا –ولدي ثقة كبيرة في حدسها– بأن والدها يكاد يكون لا يتذكر شيئًا مما يحدث في تواريخ معينة، لذلك فإننا سنطلب مقابلته كما لو كان قد أعطانا موعدًا في ذلك التاريخ، وسيعزو هو الأمر إلى ضعف ذاكرته، ومن هنا فستتمكن من رؤيته من قرب، لكي نفهم حالته بصورة أوضح.

قال السيد بينيت:

– هذا ممتاز، ولكنني مع ذلك أحذركما، فإن البروفيسور سريع الغضب وعنيف في بعض الأحيان.

ابتسم هولمز وقال:

– هناك أسباب تدعونا إلى التحرك على الفور، أسباب وجيهة للغاية إذا كانت نظريتي صحيحة. غدًا سيلتقي بنا السيد بينيت في كامفورد دون شك، حيث يوجد، حسبما أتذكر، نُزل يُسمى تشيكرز، نبيذه جيد، والفرش فيه من أحسن ما يمكن. أعتقد يا واتسون أن نصيبنا في الأيام القادمة قد يكون في أماكن أقل ترفًا.

وفي صباح يوم الاثنين كنا في طريقنا إلى المدينة التي تقع فيها الجامعة الشهيرة. لم يتكلم هولمز عن أي شيء يتعلق بالقضية إلا بعد أن أودعنا حقائبنا في النزل القديم الذي تحدث عنه، قائلًا:

– أعتقد يا واتسون أننا يمكننا اللحاق بالبروفيسور قبل الغداء، فهو يلقي محاضرة في الحادية عشرة، ثم يذهب ليقضي فترة راحته في المنزل.

– وماذا ستكون حجتنا في زيارته؟

ألقى هولمز نظرة سريعة على المفكرة ثم قال:

– لقد شهدت الفترة التي أحاطت بيوم السادس والعشرين من أغسطس أحداثًا مثيرة. أعتقد أنه سيكون مشوشًا بعض الشيء فيما يتعلق بما يفعله في مثل هذه الأوقات. وإذا أكدنا له أننا لدينا موعد معه، فأعتقد أنه لن يكون قادرًا على تكذيبنا في ذلك. فهل لديك ما يكفي من الوقاحة اللازمة لنجاح خطتنا؟

– لا يسعنا سوى المحاولة.

– عظيم يا واتسون! مزيج من النشاط والبراعة. لا يسعنا سوى المحاولة، هذا هو شعارنا. سيرشدنا أحد سكان المدينة الودودين بلا شك.

وهكذا ذهبنا على ظهر عربة أنيقة، مررنا بصف من الكليات القديمة، ثم انعطفنا بها أخيرًا إلى طريق مصطفٍّ بالأشجار، إلى أن توقفنا أمام باب منزل رائع، محفوف بالعشب بصورة دائرية، ومغطى بالنبات الوستارية الأرجواني. من الواضح أن البروفيسور بريسبري كان محاطًا بكل وسائل الراحة والرفاهية. وفي اللحظة التي توقفنا فيها عند الباب ظهر من النافذة الأمامية رأس أشيب، ورأينا عينين حادتين تنظران إلينا من تحت حاجبين أشعثين، تتفحصاننا من وراء نظارات كبيرة وسميكة. وبعد لحظات كنا قد دخلنا مكتبه الخاص، وكان العالِمُ الغامض –الذي قد أحضرتنا تقلباته السلوكية

الغريبة إليه من لندن– يقف أمامنا. لم نلحظ أي غرابة في أسلوبه أو مظهره، فقد كان رجلًا مهيبًا وضخمًا، كئيب المظهر، ويرتدي معطفًا فراك، هيئته تعكس الوقار الذي يحتاجه مَن هم مثله من المُحاضِرين. كانت عيناه هي أكثر ملامحه لفتًا للنظر؛ فقد كانتا ثاقبتين ومنتبهتين يشع منهما ذكاء يصل إلى حد المكر. نظر إلى بطاقتينا ثم قال:

– تفضلا بالجلوس أيها السيدان، ما الذي يمكنني القيام به من أجلكما؟

فابتسم السيد هولمز بودٍّ، ثم قال:

– هذا هو السؤال الذي كنت على وشك أن أطرحه عليك أيها البروفيسور.

– عليَّ أنا يا سيدي؟!

– ربما يكون هناك خطأ ما، فقد سمعت من شخص ما أن البروفيسور بريسبري بمدينة كامفورد يحتاج إلى خدماتي.

– نعم، هذا صحيح!

بدا لي وكأن هناك بريقًا خبيثًا ماكرًا في عينيه الرماديتين الحادتين، ثم تابع قائلًا:

– لقد سمعتَ بذلك إذن، أليس ذلك صحيحًا؟ هل لي أن أسألك عن اسم الشخص الذي أخبرك بهذا الأمر؟

– آسف أيها البروفيسور، ولكنه أمر يقتضي السرية. إذا كنت قد أخطأت في ذلك فلا بأس، ولا يسعني إلا أن أعبر عن أسفي.

– لا، إطلاقًا، إنني أودُّ أن أتابع هذا الأمر. إنه يثير اهتمامي. هل لديك أي دليل كتابي، أو أي خطاب أو برقية تؤكد كلامك؟

– لا، ليس لدي أي شيء كهذا.

– أظن أنك لن تصر على التأكيد بأنني قد استدعيتك. أليس كذلك؟

قال هولمز:

– أُفضّل ألا أجيب عن أي أسئلة.

فقال البروفيسور بشكل حادٍّ:

– كلا، أعتقد أنك لا تفضل ذلك. ولكن يمكن الإجابة عن هذا السؤال بالتحديد بسهولة شديدة دون مساعدتك.

ذرع الغرفة حتى وصل إلى الجرس، وإذا بصديقنا من لندن، السيد بينيت، يجيب النداء.

– تعال يا سيد بينيت، إن هذين السيدين يزعمان أنهما قدما من لندن بناء على طلبي للقائهما، وأنت تدير كل مراسلاتي، فهل لديك أي شيء يثبت أنني قد راسلت شخصًا يُدعى هولمز؟

أجاب بينيت وقد توَرَّد وجهه قائلًا:

– لا يا سيدي.

فقال البروفيسور وهو يحدق النظر إلى رفيقي بغضب:

– إذن فقد حسم الأمر.

ثم وضع يديه على الطاولة وقال:

– والآن يا سيدي، يبدو لي أن موقفك موضع شك بصورة كبيرة.

هز هولمز كتفيه وقال:

– لا يسعني إلا أن أكرر أسفي بأننا قمنا بهذا التطفل الذي لا ضرورة منه.

صاح الرجل العجوز بصوت عالٍ وقد ظهر على وجهه غل وحقد غير عادي وقال:

– هذا لا يكفي يا سيد هولمز!

ثم وقف يحول بيننا وبين الباب وهو يشير إلينا بكلتا يديه وهو يستشيط غضبًا قائلًا:

– لا يمكنكما الخروج من هنا بهذه السهولة.

كان وجهه متشنجًا وأخذ يصيح ويهذي في خضم غضبه العارم. وكنت مقتنعًا بأننا سنضطر إلى العراك من أجل الخروج من الغرفة لولا تدخل السيد بينيت. إذ صاح قائلًا:

– أستاذي العزيز، فكر في مركزك! خذ بعين الاعتبار أن هذا من شأنه أن يتسبب في فضيحة في الجامعة. إن السيد هولمز رجل معروف، لا يمكنك معاملته بمثل هذه الطريقة الفظة.

فأفسح لنا مُضيفُنا –إن صح لي أن أدعوه بذلك– الطريق إلى الباب وهو عابس الوجه. وكنا سعيدَيْن حين وجدنا أنفسنا أخيرًا خارج المنزل، يكتنفنا هدوء الطريق الذي تصطف على جانبيه الأشجار. وبدا وكأن هولمز مستمتعًا جدًّا بما حدث. وقال:

– يبدو أن أعصاب صديقنا قد خرجت عن السيطرة إلى حد ما. ربما كان تطفلنا فظًّا بعض الشيء، ولكننا قد تواصلنا معه شخصيًّا وهذا ما كنت أرغب فيه. ولكن، يا إلهي، لا بد أنه يتتبعنا يا واتسون! هذا الخسيس لا يزال يلاحقنا.

كان هناك صوت وقع أقدام تركض من خلفنا، ولكن لحسن الحظ لم تكن قدمي البروفيسور المرعب. بل كانتا قدمي مساعده الذي ظهر بالقرب من منحنى الطريق. كان يجري نحونا لاهثًا. وقال:

– أنا آسف جدًّا يا سيد هولمز. كنت أودُّ أن أعتذر منكما.

– لا يا عزيزي، لا داعي للاعتذار، كل ذلك يصب في الخبرة المهنية.

– لم أره من قبل في حالة مزاجية أشد خطورة من هذه قط. إنه يصبح أكثر شرًّا وعنفًا يومًا بعد يوم. لعلكما تتفهمان الآن لماذا أنا وابنته قلقين لهذه الدرجة، ومع ذلك فإن ذهنه حاضر تمامًا.

قال هولمز:

– حاضر للغاية! وقد كان ذلك سوء تقدير مني. من الواضح أن ذاكرته أقوى بكثير مما كنت أتصور! بالمناسبة، هل يمكننا رؤية نافذة غرفة الآنسة بريسبري قبل أن نرحل؟

شق السيد بينيت طريقه بين بعض الشجيرات، واتجهنا إلى أحد جوانب المنزل، فأشار قائلًا:

– ها هي ذي هناك. النافذة الثانية على اليسار.

– يا إلهي، يبدو من الصعب الوصول إليها! ومع ذلك يمكنكما أن تلاحظا وجود هذا النبات المتسلق بالأسفل، بالإضافة إلى أنبوب المياه من فوقه، من الممكن أن يكون موطِئَ قدم.

قال السيد بينيت:

– أنا شخصيًّا لم أستطع تسلقه.

– هذا متوقع جدًّا. فهي بالتأكيد مغامرة خَطِرة لأي رجل عادي.

– ثمة شيء آخر أود أن أخبرك به يا سيد هولمز. لدي عنوان الرجل الذي يراسله البروفيسور في لندن. يبدو أنه قد كتب إليه هذا الصباح، وقد عرفت ذلك من ورقة نشَّاف الحبر خاصته. إنه تصرف غير أخلاقي بالطبع من مساعد مؤتمن. ولكن ماذا عساي أن أفعل غير هذا؟

ألقى هولمز نظرة سريعة على الورقة ثم وضعها في جيبه. ثم قال:

– دوراك.. اسم عجيب! أظن أنه من سلوفينيا. حسنًا، إنها حلقة وصل مهمة في سلسلة الأدلة. سنعود إلى لندن عصر اليوم يا سيد بينيت. فلا أرى داعيًا لبقائنا هنا. لا يمكننا إلقاء القبض على البروفيسور؛ لأنه لم يرتكب أي جريمة، ولا نستطيع أيضًا أن نضعه تحت الحراسة؛ لأننا لا نستطيع إثبات أنه مجنون. ليس هناك أي إجراء يمكن اتخاذه في الوقت الحالي.

– ماذا يمكننا أن نفعل إذن؟

– القليل من الصبر يا سيد بينيت. فقريبًا ستجدّ تطورات في الأمر، وإذا لم أكن مخطئًا فيما أفكر فيه، فقد تحدث أزمة يوم الثلاثاء القادم. من المؤكد أننا يجب أن نكون في كامفورد في ذلك اليوم. أما في الوقت الحالي، فإن الوضع العام سيئ بلا شك، فإذا تمكنت الآنسة بريسبري من إطالة زيارتها...

– ذلك أمر سهل.

– إذن دعها تبقَ؛ حتى نتأكد من أن الخطر قد زال تمامًا. وفي غضون ذلك، دعه يفعل كل ما يحلو له ولا تعارضه، فما دام أنه في مزاج جيد فسيكون كل شيء على ما يرام.

همس بينيت وقد بدا عليه الذعر:

– ها هو ذا هناك!

نظرنا بين فروع الأشجار فرأينا ذلك الجسد الطويل المنتصب يخرج من الباب الرئيس وينظر حوله. كان يقف مائلًا إلى الأمام، ويداه تتأرجحان أمامه مباشرة، بينما كان رأسه يستدير من جانب إلى جانب. لوَّح المساعد إلينا بتحية أخيرة ثم تسلل بين الأشجار، وسرعان ما رأيناه بصحبة ربِّ عمله مرة أخرى، ودخل الاثنان إلى المنزل معًا وبدا أن حديثًا مفعمًا بالحيوية والحماس كان يدور بينهما. قال هولمز بينما كنا نسير باتجاه الفندق:

– أعتقد أن الرجل العجوز قد اكتشف حقيقة الأمر. لقد أدهشني ما رأيته فيه في ذلك الوقت القليل، إنه يمتلك ذهنًا شديد التركيز وتفكيره منطقي تمامًا. سيفجر لنا مفاجئة ما بلا شك، فهو يرى أنه لا بد من أن يفعل ذلك لو أحسَّ أن المحققين يتتبعونه واشتَبه في أن أهل بيته وراء هذا. أظن أن ذلك الصديق بينيت، يقضي وقتًا عصيبًا في الداخل.

توقف هولمز عند مكتب بريد في طريقنا وأرسل برقية. وقد وصل الرد إلينا في المساء، ورماه إليَّ. وكان كالآتي:

«زار طريق كوميرشال رود والتَقى بدوراك. إنه شخص لطيف وكبير في السن من بوهيميا، ويمتلك متجرًا عامًّا كبيرًا.

ميرسر».

قال هولمز:

– إنني أتعامل مع ميرسر منذ أن بدأت التعاون معك. إنه يساعدني في المهام الروتينية. كان من المهم أن أعرف شيئًا عن الرجل الذي يراسله البروفيسور سرًّا. إن جنسيته لها علاقة بزيارة براغ.

قلت:

– حمدًا لله أن هناك شيئين لهما علاقة ببعضهما. فإننا نواجه مؤخرًا سلسلة طويلة من الأحداث التي لا يمكن تفسيرها، والتي لا توجد بينها أي علاقة. فعلى سبيل المثال، ما هي العلاقة التي يمكن أن تكون بين كلب ذئبي غاضب وزيارة إلى بوهيميا، أو العلاقة بين أي منهما وبين رجل يزحف ليلًا في الردهة؟ أما فيما يتعلق بالتواريخ التي تحرص على معرفتها، فذلك هو الأمر الأكثر غموضًا على الإطلاق.

ابتسم هولمز وأخذ يفرك يديه. كنا –حسبما أتذكر– جالسين في غرفة الجلوس القديمة بذلك الفندق العتيق، ومعنا زجاجة من النبيذ المعتق الشهير على الطاولة بيننا. ضم هولمز أطراف أصابعه معًا، وأخذ يتحدث وكأنه يخاطب صفًّا دراسيًّا:

– حسنًا، دعنا نبدأ بالتواريخ أولًا. تُظهر مفكرة هذا الشاب الرائع أن هناك مشكلة قد حدثت في الثاني من يوليو. ومنذ ذلك الحين يبدو أن هذا الاضطراب يحدث كل تسعة أيام، ولم يكن هناك سوى استثناء واحد فقط على ما أتذكر. إذن فإن الحادث الأخير قد وقع يوم الجمعة الموافق الثالث من سبتمبر وهو يتناسب مع هذا التسلسل، وأيضًا ما وقع في يوم السادس والعشرين من أغسطس، لا يمكن لهذا أن يكون محض مصادفة.

لم يكن أمامي خيار سوى أن أوافقه في الرأي.

– دعنا إذن نبدأ بتشكيل نظرية مؤقتة، سنفترض فيها أن البروفيسور يتعاطى عقارًا قويًّا كل تسعة أيام، وأن لهذا العقار تأثيرًا مؤقتًا، ولكنه بالغ الضرر. وأنه هو الذي أدى إلى ظهور تلك الطبيعة العنيفة على سلوكه. لقد أخذ يتناول هذا العقار في أثناء وجوده في براغ، وهو يحصل عليه الآن من وسيط بوهيمي موجود في لندن. إن كل ذلك يتوافق معًا يا واتسون!

– ولكن ماذا عن الكلب، والوجه الذي ظهر عند النافذة، والرجل الزاحف في الردهة؟

– حسنًا، حسنًا، لقد توصلنا إلى طرف خيط. لا أتوقع حدوث أي تطورات جديدة حتى الخميس القادم. وحتى ذلك الحين، لا يسعنا سوى أن نبقى على تواصل مع صديقنا بينيت، وأن نستمتع برفاهية هذه المدينة الساحرة.

في الصباح، مرَّ بنا السيد بينيت ليبلغنا بآخر الأخبار. وكما توقع هولمز، قد واجه وقتًا عصيبًا مع البروفيسور بالأمس. مع أن البروفيسور لم يوجه له اتهامًا مباشرًا بأنه المسؤول عن حضورنا، ولكنه كان غليظًا وفظًّا في حديثه، ومن الواضح أنه كان ينتابه الشعور بظلمٍ قويٍّ. ولكنه عاد إلى طبيعته هذا الصباح، وألقى محاضرته الرائعة المعتادة على صف مكدس بالطلاب. قال بينيت:

– بصرف النظر عن نوباته العصبية وانفعالاته الغريبة، أرى أنه يتمتع بطاقة وحيوية أكبر مما عهدته عليها من قبل، ثم إن ذهنه لم يكن يومًا أشد صفاء مما كان عليه هذا الصباح. لكنه ليس هو، مستحيل أن يكون هو الرجل نفسه الذي عرفناه!

– لا أعتقد أن هناك شيئًا يدعوك إلى القلق في الوقت الحالي، ولمدة أسبوع على الأقل. إنني رجل مشغول، والدكتور واتسون لديه مرضاه الذين يجب عليه الاهتمام بهم. لنتفقَ على أن نلتقي هنا في مثل هذا التوقيت يوم الثلاثاء القادم. ولا أعتقد أننا سنتركك مرة أخرى قبل أن نتمكن من تفسير الموقف، حتى لو لم نستطع وضع حد لمشكلاتك. وحتى ذلك الوقت ابقَ على تواصل معنا وأخبرنا بكل ما يحدث.

لم أرَ صديقي قط في الأيام القليلة التالية، لكنني تلقيت منه رسالة قصيرة في مساء يوم الاثنين يطلب مني مقابلته في صباح اليوم التالي في القطار. ومما قاله لي ونحن على متن القطار متجهين إلى كامفورد أن كل شيء كان على ما يرام، وأن منزل البروفيسور يسوده السلام، وأن سلوكه وتصرفاته كانت طبيعية تمامًا. وكان هذا هو نفس ما أخبرنا به السيد بينيت حين زارنا في مكان إقامتنا القديم في التشيكرز. حيث قال:

– لقد تلقى خطابًا اليوم من مراسله في لندن، وكان مع الخطاب علبة صغيرة، وكان كلاهما يحمل علامة الصليب تحت الطابع، وهي العلامة التي دائمًا ما أراها على الرسائل التي يحذرني من أن أمس أيًّا منها.. لم يحدث أي شيء آخر.

قال هولمز وقد بدا وجهه متجهمًا:

– ربما يكون هذا إثباتًا كافيًا تمامًا. أعتقد أننا سنتوصل إلى نتيجة ما هذه الليلة يا سيد بينيت. إن كانت استنتاجاتي صحيحة، فسوف تتاح لنا فرصة لكي نحسم الأمور. ومن أجل القيام بذلك يجب أن يبقى البروفيسور تحت الملاحظة. ولهذا أقترح أن تظل مستيقظًا ومترقبًا. إذا سمعته يمر ببابك فلا تقاطعه، ولكن تتبعه بحذر شديد قدر الإمكان. وأنا والدكتور واتسون لن نكون بعيدين عنك. وبالمناسبة، أين مفتاح الصندوق الصغير الذي تحدثت عنه؟

– إنه معلق في سلسلة ساعته.

– أعتقد أن بحثنا يجب أن يكون في هذا الاتجاه إذن. وفي أسوأ الأحوال، لن يكون القفل صعبًا للغاية في فتحه. هل يوجد في المنزل غيرك من الرجال الأشداء؟

– هناك الحوذي ماكفيل.

– أين ينام؟

– فوق الإسطبلات.

– ربما نحتاج إليه. حسنًا، لا يمكننا أن نفعل أكثر من ذلك؛ حتى نرى كيف ستتطور الأمور. إلى اللقاء الآن، لكنني أتوقع أن نراك قبل حلول الصباح.

كان الوقت يقترب من منتصف الليل قبل أن نتخذ موقعنا بين بعض الشجيرات الموجودة أمام الباب الرئيس لمنزل البروفيسور مباشرة. كانت ليلة لطيفة، ولكنها لم تخلُ من البرد القارس، كانت هناك نسمات من الهواء، والغيوم تملأ السماء، فتحجب بين الحين والآخر نصف وجه القمر الظاهر في السماء. كان من الممكن أن تكون نوبة مراقبة كئيبة لولا ما كنا نشعر به من ترقب وإثارة، وتأكيد رفيقي أننا قد أوشكنا –غالبًا– أن نصلَ إلى نهاية هذا التسلسل من الأحداث الغريبة التي شغلت انتباهنا.

قال هولمز:

– لو كان تزامن دورة الأيام التسعة صحيحًا، فسوف يكون البروفيسور في أسوأ حالاته الليلة. بالنظر إلى أن هذه الأعراض الغريبة قد بدأت في الظهور بعد عودته من زيارة براغ، وإلى مراسلاته السرية مع ذلك التاجر البوهيمي في لندن، والذي أظن أنه ينوب عن شخص ما في براغ، وإلى تلقيه منه طردًا في هذا اليوم بالتحديد، إذن فإن كل شيء يشير إلى نفس الاتجاه. ولكن ما الذي يتناوله، ولماذا يتناوله؟ هذا هو ما لا نعرفه بعد. لكن كونه يصله من براغ فهذا أمر واضح بما فيه الكفاية. إنه يتناوله بناء على توجيهات محددة تنظم دورة الأيام التسعة، وهي النقطة الأولى التي لفتت انتباهي. لكن الأعراض التي ظهرت عليه لافتة للنظر جدًّا. هل لاحظت مفاصل أصابعه؟

كان عليَّ أن أعترف بأنني لم أفعل.

– إنها سميكة وصلبة على نحو لم أره من قبل. عليك دائمًا أن تنظر إلى اليدين أولًا يا واتسون. ثم إلى معصم اليدين وركبتي السروال والحذاء. إن مفاصل أصابعه غريبة جدًّا، ولا يمكنني تفسير هذا إلا من خلال طريقة التقدم التي لوحظت من قبل...

توقف هولمز فجأة عن الكلام وصفق بيده على جبينه ثم قال:

– آه، واتسون، واتسون، يا لي من أحمق! يبدو الأمر لا يصدق، ومع ذلك لا بد أن يكون صحيحًا، فإن كل الأشياء تشير إلى نفس الاتجاه. كيف فاتني إدراك الرابط بين الأفكار؟ تلك المفاصل.. كيف غفلت عنها؟ والكلب! واللبلاب! لا بد أنني كنت غارقًا في أحلامي وخيالاتي. انتبه يا واتسون! ها هو ذا! سوف نحظى بفرصة لرؤيته بأنفسنا.

فُتح الباب الرئيس ببطء، وعلى خلفية ضوء المصباح رأينا جسد البروفيسور بريسبري الطويل مرتديًا رداء نومه. كان يقف في المدخل منتصبًا، لكنه مائلٌ إلى الأمام، بينما تتدلى ذراعاه، كما رأيناه آخر مرة.

ثم تقدم إلى الأمام نحو الطريق، وقد بدا أن تغيرًا عجيبًا طرأ عليه، فقد جثا على الأرض وأخذ يتحرك على يديه وقدميه، يقفز بين الحين والآخر وكأنه يفيض طاقة وحيوية، مرَّ بواجهة المنزل ثم انحرف إلى جانبه، ولما اختفى، تسلل بينيت من الباب الرئيس وتبعه بهدوء. صاح هولمز قائلًا:

– هيا يا واتسون، هيا!

فانسللنا بهدوء من بين الشجيرات حتى وصلنا إلى بقعة يمكننا من خلالها رؤية الجانب الآخر من المنزل، الذي كان غارقًا في ضوء القمر نصف المكتمل. كنا نرى البروفيسور بوضوح جاثيًا أسفل الجدار

المغطى باللبلاب. وبينما كنا نشاهده، بدأ يتسلق الجدار فجأة بخفة لا تصدق، فقد أخذ يتنقل من غصن إلى غصن، واثق الخُطى، محكِمًا قبضته، وكان على ما يبدو يتسلق لمجرد الاستمتاع والابتهاج بقواه الخاصة، دون أن يكون هناك هدف محدد. وأخذ رداء نومه يرفرف على جانبيه، فبدا وكأنه خفاشٌ ضخم ملتصق على جانب منزله، أو رقعة مربعة ضخمة على الحائط المكسو بضوء القمر.

ثم سرعان ما ملَّ من هذه التسلية، فراح يهبط من فرع إلى فرع حتى جثا مرة أخرى وراح يتحرك نحو الإسطبلات زاحفًا بنفس الطريقة الغريبة. كان الكلب الذئبي بالخارج حينذاك ينبح بشراسة، وازداد نباحه حدة عن ذي قبل عندما رأى صاحبه. راح الكلب يشد سلسلته ويتحرك في هياج وغضب. أَقعَى البروفيسور في جلوسه بهدوء وحرص شديدين إلى أن أصبح في مأمن من الكلب، ثم بدأ يستفزه بكل طريقة ممكنة، فأخذ حفنات من الحصى من الطريق ورماها في وجه الكلب، ثم وخزه بعصا كان قد التقطها، وأخذ يلوح بيديه أمام فمه المَفغُور. وسعى بكل الطرق الممكنة ليزيد من غضب الكلب، الذي كان قد خرج عن حد السيطرة. في جميع مغامراتنا السابقة، لا أعتقد أنني قد رأيت مشهدًا أكثر غرابة من هذا، هذا الرجل متبلد الشعور، وإن كان لا يزال يبدو عليه الوقار وهو يربض على الأرض مقرفصًا كما لو كان ضفدعًا، مستفزًا الكلب الهائج الذي يثور غاضبًا أمامه بكل أساليب القسوة الحاذقة والمدروسة.

وفي لحظة واحدة، حدثت الحادثة! لم تكن السلسلة قد انكسرت، وإنما كان الطوق هو الذي انزلق، لأنه كان في الأصل مصنوعًا من أجل كلب نيوفاوندلاند ذي العنق السميك. سمعنا صلصلة صوت المعدن وهو يسقط أرضًا، ومن ثم بدأ الكلب والرجل يتدحرجان معًا على الأرض، أحدهما يزأر في غضب والآخر يطلق صرخات ذعر حادة. كان البروفيسور على شفا الموت، فقد أطبق المخلوق المتوحش على عنقه وغرز فيه أنيابه بعمق، ففقد البروفيسور وعيه قبل أن نتمكن من الوصول إليهما وتفريق أحدهما عن الآخر. وربما كانت تلك المهمة ستكون أكثر خطورة لنا لولا أن صوت بينيت وحضوره أعادا الكلب إلى رشده على الفور. كانت الجلبة قد أيقظت الحوذي النائم ودفعت به مذهولًا من غرفته الموجودة فوق الإسطبلات. هزَّ الحوذي رأسه قائلًا:

– لست متفاجئًا، فقد سبق لي أن رأيته يفعل هذا، كنت أعرف أن الكلب سينال منه عاجلًا أو آجلًا.

ربطنا الكلب وحملنا البروفيسور معًا إلى غرفته، حيث ساعدني بينيت، الحاصل على شهادة في الطب، في تضميد عنقه الجريح. كانت الأسنان الحادة قد اخترقت عنقه بالقرب من الشريان السباتي، فكان النزيف شديدًا. وخلال نصف ساعة، كان الخطر قد زال. أعطيت المريض حقنة مورفين، فغرق في نوم عميق. حينها –وحينها فقط– تمكنا من النظر إلى بعضنا بعضًا واستيعاب الموقف، ومحاولة تقييم الوضع. قلت:

– أعتقد أنه يجب أن يُعرَض على جراح متخصص.

صاح بينيت قائلًا:

– لا، أرجوك! إن الفضيحة الآن في حدود منزلنا فقط، ونحن سنحفظها، أما إذا تخطت هذه الجدران فلن تتوقف أبدًا. فكر في منصبه في الجامعة، وسمعته في أوروبا، ومشاعر ابنته.

قال هولمز:

- وهو كذلك، أعتقد أنه من الممكن أن نبقي الأمر فيما بيننا؛ لكي نمنع تكراره، خاصة أن لدينا الآن كامل الحرية في التصرف. أعطني المفتاح الموجود في سلسلة الساعة يا سيد بينيت، وسيقوم ماكفيل برعاية المريض ويخبرنا لو جدَّ أي جديد. دعونا نرَ ماذا يوجد داخل صندوق البروفيسور الغامض.

لم يكن بداخله الكثير من الأشياء، لكن ما وجدناه كان كافيًا تمامًا. قنينة فارغة وأخرى لم ينقص منها إلا القليل، ومحقنة وعدة خطابات مكتوبة بلغة غريبة، وخط يصعب قراءته. ووجدنا على الأظرف تلك العلامات التي أثارت قلق المساعد في أثناء تأديته لأعماله الروتينية، وكان كل منها مؤرخ من طريق كوميرشال رود، وموقع من «أ. دوراك». ولم تكن إلا مجرد فواتير تفيد بأنه قد أُرسلت قنينة جديدة إلى البروفيسور بريسبري أو إيصالًا يثبت استلام النقود. لم نجد سوى مظروف واحد مختلف، وقد بدا من الخط أن مَن كتبه كان شخصًا أعلى تعليمًا، عليه طابع البريد النمساوي، وختم براغ البريدي. صاح هولمز وهو يفتح المظروف قائلًا:

- ها نحن نحصل على المعلومات التي نريدها!

كان الخطاب كالآتي:

«زميلي المحترم،

منذ زيارتك العزيزة وأنا أفكر كثيرًا في حالتك، وإن كان لديك أسباب خاصة تستدعي العلاج، فإني أريد تحذيرك؛ فقد أظهرت نتائج أبحاثي أن الأمر لا يخلو من الخطر. ربما كان مصل إنسان الغاب أفضل، فقد استخدمت -كما شرحت لك- مصل قرد اللانغور أسود الوجه؛ لأنني وجدت له عينات متاحة. إن اللانغور بالطبع يزحف ويتسلق، على عكس إنسان الغاب الذي يسير منتصبًا، وهو أقرب من جميع النواحي.

أرجوك أن تتخذ جميع الاحتياطات الممكنة حتى لا يُذاع صيت تلك التجربة قبل أوانها. ليس لدي إلا عميل آخر في إنجلترا، ودوراك هو وسيطي لكليكما.

يجب أن تلتزم بإرسال تقاريرك الأسبوعية.

مع خالص تقديري واحترامي.

ه. لوفنتشتاين»

- لوفنتشتاين! ذكرني الاسم بقصاصة من جريدة كانت تتحدث عن عالِم مغمور يسعى جاهدًا بطرق غير معروفة إلى التوصل إلى سر تجدُّد الشباب وإكسير الحياة. لوفنتشتاين من براغ! لوفنتشتاين ومصله العجيب الذي يمنح القوة، والذي حُظر؛ لأنه رفض الإفصاح عن مصدره.

قلت ما تذكرته عنه في تلك الكلمات القليلة. أما بينيت، فقد تناول مرجعًا في علم الحيوان من على الأرفف وراح يقرأ: «اللانغور، أحد القردة العليا سوداء الوجه التي تعيش في منحدرات الهيمالايا، وهو أضخم القردة المتسلقة وأقربها شبهًا للإنسان». ثم قال:

– لقد فهمنا الكثير من التفاصيل، حسنًا، شكرًا لك يا سيد هولمز، بفضلك تمكننا من تتبع هذا الشر حتى وصلنا إلى مصدره.

قال هولمز:

– إن مصدره الحقيقي يكمن بالتأكيد في تلك العلاقة الغرامية غير الملائمة، والتي جعلت البروفيسور المندفع يقتنع بفكرة أنه لن يتمكن من تحقيق مراده إلا بأن يعود شابًّا مرة أخرى. عندما يحاول المرء تحدي الطبيعة ينتهي به الحال إلى الوقوع تحت رحمتها. إن أكثر الرجال رقيًّا ربما ينتكس إلى الحيوانية لو حاد عن الصراط المستقيم.

جلس هولمز يتأمل قليلًا وهو يمسك بالقنينة في يده وينظر إلى تلك المادة السائلة الصافية بداخلها، ثم قال:

– إذا راسلت هذا الرجل لأخبره بأنني أُحمّله المسؤولية الجنائية عن تداول تلك السموم، فلن نواجه مزيدًا من المشكلات، لكن الأمر قد يتكرر، وقد يجد الآخرون طريقة أفضل لتكراره. هناك خطر يكمن في ذلك، خطر حقيقي على البشرية. ضع في حسبانك يا واتسون أن هؤلاء الناس لا يسعون إلا وراء المادة، فهم شهوانيون ودنيويُّون، يريدون جميعهم أن يطيلوا حيواتهم عديمة القيمة. أما الروحانيون فلن يمتنعوا عن السعي إلى ما هو أسمى. سيكون البقاء إذن لمن هم أقل صلاحًا. أي نوع من البالوعات سيصبح عليه عالمنا البائس؟

ومِن ثم اختفت الشخصية الحالمة فجأة ونهض هولمز، الرجل العملي، من مقعده وقال:

– أعتقد أنه لا يوجد شيء يمكن أن يقال أكثر مما قيل يا سيد بينيت. إن الوقائع المختلفة ستندمج معًا لتكوِّن الصورة العامة، وستجعلها أكثر وضوحًا من تلقاء نفسها. فمن المؤكد أن الكلب قد أدرك هذا التغير أسرع منك بكثير. فحاسة الشم لديه كانت تؤكد له ذلك. روي كان يهاجم القرد وليس البروفيسور، وكذلك كان القرد هو مَن استفز الكلب. كان التسلق ممتعًا لهذا الكائن، وقد كانت مجرد صدفة أنه صعد إلى نافذة ابنته بينما كان يمارس تلك التسلية الممتعة له. هناك قطار سيذهب إلى المدينة مبكرًا يا واتسون، ولكنني أعتقد أننا لدينا بعض من الوقت لتناول قدحًا من الشاي في التشيكرز قبل أن نلحق به.

قضية عُفرة الأسَد

إنها من أكثر الأشياء غرابة التي حدثت لي بعد تقاعدي، قضية لا تقل غموضًا ولا تفردًا عن أي قضية أسندت إليَّ على مر حياتي المهنية الطويلة. غير أنها أسندت إليَّ رغمًا عني إن جاز التعبير، فقد وقعت القضية بعدما رجعت إلى بيتي الأثير بمقاطعة ساسكس، عندما أسلمتُ نفسي تمامًا لحياة الطبيعة المريحة التي كنتُ أفتقدها كثيرًا خلال السنوات الطويلة التي قضيتُها في حي لندن المليء بالكآبة. في هذه الفترة من حياتي لم أكن أعرف شيئًا تقريبًا عن صديقي المقرب واتسون. حيث كانت أكبر مدة حظيتُ فيها برؤيته في أثناء زيارة قصيرة في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، لذا توجّبَ عليّ أن أدوّن بنفسي. آهٍ لو أنه فقط كان هنا! فكم كان سيبالغ في وصف هذا الحدث الغامض وفي وصف فوزي المحتم على كل عائقة! ولكن ما باليد حيلة، سأضطر إلى سرد قصتي بطريقتي البسيطة، وسأوضِّح بأسلوبي الخاص كل خطوة قطعتها على الطريق الصعب الذي توجب عليَّ أن أسلكه وأنا أحقق في لغز عُفرة الأسد.

يقع منزلي على المنحدر الجنوبي لتلال ساوث داونز، ويطل من موقع ممتاز على بحر المانش. يتكوَّن الخط الساحلي في هذه المنطقة بالكامل من أجراف جيرية، لا يمكن النزول منها إلا باستخدام طريقٍ وحيدٍ شاق ومضني، طريقٌ زلِقٌ شديدُ الانحدار، تمتد الحجارة الصغيرة مسافة مائة ياردة أسفل الطريق، حتى عندما يبلغ المد ذروته. رغم هذا فإن ثَمَّة تعرجات وتجاويف في أماكن مختلفة من الشاطئ، تشكل حمامات سباحة رائعة تمتلئ مع كل ارتفاع للمدِّ. ويمتد هذا الشاطئ الخلاب مسافة بضعة أميال في كل اتجاه، إلا عند موضع واحد، حيث يقطع الخطَّ خليجُ فولورث وقريته الصغيران.

منزلي منعزل تمامًا، أعيش أنا ومدبرة المنزل العجوز بمفردنا في الضيعة كلها، لكن على بُعد نصف ميل توجد مؤسسة هارولد ستاكهيرست التدريبيَّة المعروفة «ذا جيبلز» وهي مكان ضخم يضم عددًا كبيرًا نسبيًّا من الشباب الذين يتهيَّؤون لتولِّي مُختلف أنواع المهن، ومعهم طاقم متنوِّع من المدربين. كان ستاكهيرست نفسه من مشاهير رياضة التجديف، وقد حصل على جائزة التميُّز في شبابه، كما كان طالبًا متعدد القدرات، وقد أصبحنا أصدقاء منذ أول يوم أتيتُ فيه إلى الشاطئ، وكان هو الرجل الوحيد الذي توطدت علاقتي به حيث بات مسموحًا لكل منا أن يزور الآخر في المساء دون دعوة.

قُرب انتهاء شهر يوليو، عام 1907م، هبَّتْ عاصفة ضارية، فكانت الرياح التي تعصف فوق المانش تدفع الأمواج الهائجة عند قاعدة الأجراف، لتترك وراءها حفرًا تشبه حمامات السباحة كلَّما انحسر المد. لكن الرياح استقرت في صباح اليوم الذي أتحدث عنه، وأصبحت الطبيعة كلها نظيفةً نقيةً. كان من المستحيل العملُ في يوم مبهجٍ كهذا، فخرجتُ للتنزه قبل الإفطار حتى أتمتع بالنسيم العليل. سرتُ على طريق الجرف ومنه إلى المنحدر الحاد ثم إلى الشاطئ، وبينما أتمشى سمعتُ صوتًا يناديني، فإذا بهارولد ستاكهيرست يُلوِّح بيده في تحية بهيجة، قال:

- توقعت أن أراك خارج المنزل، يا له من يوم جميل يا سيد هولمز!

- أظنك ذاهبًا للسباحة.

ضحك وربَّت على جَيْبه المنتفخ وقال:

- عُدتَ إلى حِيَلك القديمة مجدَّدًا. نعم. لقد ذهب مكفارسن مبكرًا، وأتوقَّع أن أجده هناك.

كان فيتزروي مكفارسن معلمًا للعلوم الطبيعية، شاب مهذب مستقيم توقفت حياته عن الدوران بشكل طبيعي بسبب مشكلات قلبية حدثت له إثر حمى روماتيزمية. لكنه كان رياضيًّا بسجيته، وقد تفوق في كل الرياضات التي لا تتطلب جهدًا كبيرًا، يمارس السباحة في الصيف وفي الشتاء، ولأنني سبَّاحٌ ماهر، فكثيرًا ما كنتُ أشاركه السباحة.

في هذه اللحظة رأينا الرجل نفسه، حيث أطلّ رأسه من فوق حافة الجرف عند نهاية الطريق المتعرج. ثم بدا جسمه كله عند القمة، كان يترنَّح وكأنه في حالة سُكر. ثم توقف في خنوع، وسقط على وجهه مُصدِرًا صيحةً مُروِّعةً. ففزعت إليه أنا وستاكهيرست -كانت المسافة تقارب الخمسين ياردة- وقلبناه على ظهره، كان يحتضر دون شك. إذ لم يكن من الممكن أن تعني هاتان العينان اللامعتان الغائرتان ولا الوجنتان الشاحبتان المروعتان أيَّ شيء غير هذا. لكنّ بصيصًا من الحياة أضاء في وجهه للحظةٍ، فنطق بكلمتَين أو ثلاثٍ بأسلوب تحذيريٍّ شديد. كانت كلماته غمغمةً غير واضحة، لكنني سمعتُ آخرها، جملة غامضةً تمامًا خرجت في صرخةِ رعب من بين شفتَيه، وقد كانت «عُفرة الأسد!».

كانت الجملة غامضة ومبهمة وغير ذات صلة، لكنني لم أستطع فهم ما سمعته بأي طريقة أخرى. بعد ذلك رفع مكفارسن نفسه عن الأرض قليلًا، ولوّح بيده في الهواء، ثم وقع على جنبه ومات.

ذُهل رفيقي من هول صدمة ما رأى، ولكنَّ حواسي -كما أظنكم تعرفون- كانت متنبهةً ومتيقظة تمامًا، وكنت مُضطرًّا إلى هذا، حيث اتضح فيما بعد أننا كنَّا في حضرة قضية غير عادية. لم يكن الرجل يرتدي غير معطفه المقاوم للماء وبنطال وحذاء مفكوك الرباط مصنوع من قماش الكنفا المتين. لكن معطفه المقاوم للماء كان فقط معلقًا على عاتقه، وحينما سقطَ انزلق المعطف عن كتفيه وأظهر جسده، فأخذنا نحدِّق إليه في خوف وتعجب. كان ظهره مغطى بخطوط حمراء داكنة وكأنها آثار جَلد بسوطٍ معدني رفيع. وكان من الظاهر بكل تأكيد أن تلك الأداة التي أحدثت كل هذا كانت أداة مرنة، لأن علامات الضرب الطويلة الملتهبة كانت منحنيةً على كتفَيه وضلوعه. كان الدم يقطر من تحت ذقنه، لأنه عَضَّ شفته السفلى من شدة الألم، وجهه الشاحب المشوَّه يُنْبِّئ بقدر الآلام التي تعرض لها.

كنتُ جاثيًا على ركبتي وكان ستاكهيرست واقفًا بجوار الجثة، فسقط فوقنا ظل إنسان، ووجدنا إيان ميردوك يقف إلى جانبنا. كان ميردوك مدرس الرياضيات في المؤسسة، وهو رجلٌ نحيفٌ طويل القامة داكن البشرة، كتومٌ ومتحفِّظ جدًّا لدرجة أنه لم يُعرَف أن له أصدقاء، ولم يكن هناك الكثير ليربطه بالحياة العادية. كان الطلاب يرونه شخصًا غريب الأطوار، وكان من الممكن أن يكون أضحوكتهم، لولا أن الرجل حظيَ بعرق همجي في داخله، لم يكن يظهر في عينَيه السوداوَين الفاحمتَين ولا وجهه الداكن وحسب، ولكن أيضًا في ثورات انفعاله التي تحدث بين الحين والآخر، ولا يمكن وصفها إلا بكونها ضارية. ففي إحدى المرات أزعجه جرو صغير يملكه مكفارسن، فأمسك به وقذفه من زجاج النافذة السميك، وهو التصرُّف الذي كاد ستاكهيرست أن يطرده بسببه بالتأكيد، لولا أنه كان معلمًا قيِّمًا جدًّا. هكذا كان هذا الرجل الغريب المعقَّد الذي ظهر الآن إلى جوارنا. وقد بدا مصدومًا في الواقع من المنظر الذي أمامه، على الرغم من أن واقعة الكلب ربما تُبيِّن أنه لم يكن هناك كبيرُ انسجامٍ بينه وبين القتيل. صاحَ:

– صاحبي المسكين! صاحبي المسكين! أرجوك أخبرني كيف يمكنني المساعدة؟

– هل كنتَ معه؟ هل تستطيع أن تخبرنا ما الذي حدث؟

– لا، لا، لقد تأخرتُ هذا الصباح. ولم أكن على الشاطئ على الإطلاق. لقد أتيتُ من مؤسسة «ذا جيبلز» مباشرةً. كيف يمكنني المساعدة؟

– يمكنك أن تسرع بالذهاب إلى نقطة الشرطة في فولورث. أبلِغ عن الأمر في الحال.

فغادرَ بسرعة كبيرةٍ دون أن ينطق بكلمة، وعَمَدتُ أنا إلى تولِّي الأمر بنفسي، بينما بقيَ ستاكهيرست الذي كان في حالة ذهول بسبب المأساة إلى جوار الجثة. كانت مهمتي الأولى بالتأكيد أن أعرف مَن الذي كان على الشاطئ، واستطعت من فوق قمة طريق الجرف أن أرى امتداد الشاطئ كله، كان مهجورًا تمامًا إلا من شبحَين أو ثلاثة قاتِمي اللون يظهرون من بعيد وهم يتحركون باتجاه قرية فولورث. وعندما اطمأننت بخصوص هذه النقطة نزلت ببطء على الطريق. كان ثمة طين أو صلصال طيني طري ممتزج بالجير، ورأيت في كل مكان من حولي آثار الأقدام نفسها صاعدةً الطريق ونازلةً عنه. لم يذهب أحد آخر إلى الشاطئ من هذا المسلك في ذاك الصباح، ولكنني لاحظت في أحد المواضع أثرَ يدٍ مفتوحةٍ تشير أصابعها تجاه المنحدر. لم يكن يعني هذا سوى أن المسكين مكفارسن قد وقع وهو يحاول الصعود. وكان ثمة علامات مستديرة كذلك، وهي تشير إلى أنه سقط على ركبتَيه أكثر من مرة. أما أسفل الطريق فكانت هناك الحفرة الضخمة التي خلَّفها المد وراءه. وقد خلع مكفارسن ملابسه عند أحد جوانبه، لأن منشفته كانت هناك فوق إحدى الصخور. كانت مطويةً وجافَّة، لذا فمن المحتمل أنه لم ينزل إلى الماء قط في نهاية المطاف. وقد صادفتُ مرةً أو مرتَين وأنا أفتش بين الحجارة الصلبة رقعًا رمليةً صغيرةً تظهر فوقها آثارُ حذائه القماشي وآثارُ قدمَيه الحافيتَين كذلك. أكَّدتْ لي هذه المعلومة الأخيرة أنه كان قد تجهَّز تمامًا للاستحمام، ولكن المنشفة كانت تشير إلى أنه لم يفعل هذا في حقيقة الأمر.

وهكذا كان وصفُ القضية بكل وضوح. قضية غريبة كغيرها من القضايا التي دائمًا ما واجهتني. لم يمكث الرجل على الشاطئ مدةً أطول من ربع الساعة على الأكثر، وقد تبعه ستاكهيرست بعد خروجه من مؤسسة «ذا جيبلز»، ما من شك في هذا الآن. وقد ذهب للاستحمام وخلع ملابسه، كما تدل على ذلك آثار الأقدام الحافية. ثم فجأةً أخذ يجمع ملابسه في عجلة مرة أخرى، حيث كانت كلها مبعثرةً ومفكوكة وعاد من دون أن يستحمَّ، أو على أي حال من دون أن يجفِّف نفسه. وكان سبب تغيير نيته أنه تعرَّض للجَلد بطريقة همجيةٍ قاسية، وعُذِّب حتى قضم شفته من الألم، ولم يُترك وفيه من القوة إلا ما يكفي لكي يزحف بعيدًا إلى أن يموت. فمَن الذي فعل هذه الفعلة المتوحشة؟ صحيح أن هناك وجودًا لمغارات وكهوف صغيرة عند قاعدة الأجراف، لكن ضوء الشمس كان يسطع مباشرةً فوقها، وليس ثمّة مكان للاختباء. ثُم، من ناحية أخرى، كان هناك أولئك الأشخاص البعيدون على الشاطئ. لكنهم كانوا بعيدين جدًّا بحيث لا يمكن أن تكون لهم علاقة بالجريمة، كما أن الحفر الواسعة التي كان مكفارسن يعتزم الاستحمام فيها كانت واقعة بينه وبينهم، وكان حبيسًا بين الصخور، أما في البحر فكان هناك اثنان أو

ثلاثة من قوارب الصيد على مسافة ليست بالبعيدة، وربما أستجوبُ راكبيها في وقت فراغي. كانت هناك طرق عديدة للتحقيق، ولكن لم يكن من بينها ما يؤدي إلى أي غاية واضحة.

عندما عدتُ في النهاية إلى الجثة وجدتُ مجموعة صغيرة من الناس متجمعين حولها يتساءلون ويتعجبون في ذهول. كان ستاكهيرست بالطبع لا يزال هناك، وكان إيان ميردوك قد وصل لتوِّه مع أندرسن، شرطي القرية، وهو رجل ضخم ذو شارب بني، من سلالة سكان ساسكس الوقورين الشرفاء، وهي سلالة تخفي الكثير من الحكمة تحت هذا المظهر الضخم الهادئ. استمعَ إلى كل شيء، ودوَّن كل ما قُلناه، وأخيرًا انفرد بي جانبًا، وقال: «سيسرني تلقِّي مشورتك يا سيد هولمز. إن هذا لأمرٌ كبيرٌ عليَّ أن أتعامل معه، وسيؤنبني لويس كثيرًا إذا لم أصل إلى حل». فنصحته أن يستدعي رئيسه المباشر وأن يستدعي طبيبًا، وألا يسمح كذلك بنقل أي شيء من مكانه، وأن يمنع بقدر المستطاع وجود آثار أقدام جديدة في المكان حتى يصل كل من استدعاهم. في غضون ذلك أخذتُ أفتش جيوب المُتوفَّى. وجدتُ بها منديله، وسكينًا طويلة، وحافظة كروت صغيرة قابلة للطيِّ. وقد برزتْ منها قصاصة ورق، ففتحتها وناولتها الشرطي، وكان مكتوبًا فيها بخط امرأة يشبه الخربشة:

(سوف آتي. اِطمئن.

مودي).

يبدو أنها كانت علاقة حب أو لقاءً غراميًّا، لكن متى وأين؟ لم يكن هذا مكتوبًا، أدخلها الشرطي مرة أخرى إلى حافظة الكروت وأعادها مع الأشياء الأخرى إلى جيوب المعطف المقاوم للماء. ثم بعد ذلك، وحيث إنه لم يحدث أي شيء آخر، عدتُ إلى بيتي لتناول الإفطار، ولكن بعد أن تأكدت من أن قاعدة الأجراف سوف تُفتَّش بعناية.

بعد ساعة أو اثنتَين وصل ستاكهيرست ليخبرني أن الجثة نُقلَت إلى مؤسسة «ذا جيبلز»، حيث سيُجرَى التحقيق هناك، وقد جلب معه بعض الأخبار الخطيرة والمؤكَّدة. كما توقعت، لم يُعثَر على شيء في الكهوف الصغيرة أسفل الجرف، ولكنه فتش الأوراق التي في مكتب مكفارسن، وكان بينها أوراق عديدة تؤكد وجود مراسلات عاطفية مع آنسة بعينها، وهي الآنسة مودي بيلامي، من قرية فولورث. لقد تأكدنا إذن من هُوية كاتبة الرسالة. قال ستاكهيرست موضِّحًا:

– الخطابات في حوزة الشرطة، لم أستطع إحضارها. لكن لا شك أنها كانت علاقة حب حقيقية. ولكني لا أرى مبررًا لربطها بهذه الواقعة الرهيبة، سوى أن السيدة في الواقع كانت قد وعدته بلقاء.

فعقَّبت عليه قائلًا:

– لكن من المستبعد أن يكون هذا عند بركة استحمام كنتم جميعًا معتادين على استخدامها.

قال:

– إنها لمحض مصادفة أن لم يكن بعض الطلاب مع مكفارسن.

– هل كان هذا محض مصادفة؟

فعقد ستاكهيرست حاجبيه مُفكِّرًا، وقال:

– لقد استبقاهم إيان ميردوك. لا بد أنه قد أصرَّ على بعض دروس الجبر قبل الإفطار. يا للشاب المسكين، إنه ليتمزق ألمًا من الأمر برمته.

– ولكني أعتقد أنهما لم يكونا صديقَين.

– في وقت من الأوقات لم يكونا كذلك. ولكن على مدى عام أو أكثر كان ميردوك قريبًا من مكفارسن بقدر ما كان يمكنه أن يقترب من أي شخص آخر. فهو ليس ودودًا بطبيعته.

– أعرف هذا. وأذكر أنك أخبرتني ذات مرة عن مشاجرة بسبب القسوة على كلب.

– لقد انتهى هذا الأمر على خير.

– لكنه ربما قد خلَّف شيئًا من الضغينة.

– لا لا، أنا واثق أنهما كانا صديقَين مخلصَين.

– ينبغي لنا أن نتحرَّى أمر الفتاة إذًا. أتعرفها؟

– الجميع يعرفها. إنها جميلة القرية، جميلةٌ بحق يا هولمز، إنها تلفت الأنظار أينما حطّت. كنتُ أعرف أن مكفارسن منجذب إليها، ولكن لم تكن لديَّ فكرة أن الأمر قد تطوَّر إلى هذا الحد الذي يظهر من تلك الرسائل.

– ولكن مَن هي؟

– إنها ابنة العجوز توم بيلامي، الذي يمتلك كل القوارب وحمَّامات السباحة في فولورث، لقد بدأ حياته كصائد أسماك، ولكنه الآن رجل ذو ثروة كبيرة، ويدير هو وابنه ويليام العمل.

– ما رأيك في الذهاب إلى فولورث ومقابلتهما؟

– ولكن، بأيِّ حجة؟

– آه، يمكننا إيجاد حجة بسهولة. ففي نهاية الأمر، إن هذا الرجل المسكين لم يُعذِّب نفسه بهذه الطريقة الشنيعة. وقد كانت تُمسك بذلك السوط يدُ شخص ما، هذا إن كان ما سبَّبَ هذه الجروح هو سوط حقًّا. لقد كانت دائرة معارفه في هذا المكان المعزول محدودةً بالتأكيد، فلنتتبعها في كل اتجاه، ولن يكون من السهل أن نخفق في اكتشاف الدافع وراء هذه الجريمة، وهو ما ينبغي أن يقودنا بدوره إلى المجرم.

كان من الممكن أن تكون نزهةً ممتعة عبر تلال ساوث داونز التي تعطِّرها رائحة الزعتر، لولا أن أرواحنا كانت قد تسمَّمتْ بتلك المأساة التي شهدناها. تقع قرية فولورث في غَوْرٍ منحنٍ على شكل نصف دائرة حول الخليج، بُنيت العديد من المنازل الحديثة فوق بقعة الأرض المرتفعة خلف القرية الصغيرة العتيقة. قادني ستاكهيرست إلى أحد هذه المنازل، وقال:

– هذا هو «المرفأ» هكذا أسماه بيلامي. ذاك المنزل ذو السقف الأردوازي والبرج عند زاويته. ليس سيِّئًا بالنسبة إلى رجل قد بدأ من الصفر ولكن... يا إلهي، انظر إلى هذا!

فُتحت بوابة حديقة المرسى وأطلَّ منها رجل. لم يكن هناك مجال للشك في معرفة هذه القامة الطويلة الناحلة غير المهندمة. لقد كان إيان ميردوك، مدرس الرياضيات. وقد قابلناه على الطريق بعدها

بلحظات. قال ستاكهيرست محييًا إياه:

– مَرحبًا!

فأومأ الرجل برأسه، ورمقنا بنظرة من جانب عينَيه السوداوَين الفضوليتين، وكان سيرحل عنا، ولكنَّ مديره جذبه سائلًا:

– ماذا كنت تفعل هنا؟

استشاط وجه ميردوك غضبًا وقال:

– إنني موظفك يا سيدي، ولكن تحت سقف مؤسستك. ولا أظن أنني مُطالَب بتقديم أيِّ تفسيرٍ لك بشأن تصرفاتي الشخصية!

كانت أعصاب ستاكهيرست على وشك أن تنفجر بعد كل ما تحمَّله، ولولا ذاك لربما كان انتظر. لكنه في هذه اللحظة فقد هدوءه تمامًا وقال:

– إن ردَّك هذا في هذه الظروف لوقاحة شديدة منك يا سيد ميردوك.

– ربما ينطبق الوصف نفسه على سؤالك أنت.

– ليست هذه هي المرة الأولى التي أضطرُّ فيها إلى التغاضي عن عصيانك، لكنها حتمًا ستكون الأخيرة. فلتقم من فضلك بتجهيز نفسك لترك العمل بأسرع وقت.

– كنتُ أنوي القيام بهذا. فقد فقدتُ اليوم الشخص الوحيد الذي يجعل من مؤسسة «ذا جيبلز» مكانًا صالحًا للعيش.

وغادر سريعًا بخُطًى واسعة، بينما وقف ستاكهيرست يحدِّق إليه بغضب بعدما انصرف. ثم صاح قائلًا:

– أليس رجلًا بغيضًا لا يُطاق؟

كان الشيء الوحيد الذي انطبع في ذهني بقوة أن السيد إيان ميردوك قد انتهز أول فرصة ليفتح لنفسه طريقًا للهرب من مسرح الجريمة. بدأ الشك في تلك اللحظة يتشكَّل مبهمًا غائمًا في رأسي. ربما تسمح زيارة أسرة بيلامي بإلقاء مزيد من الضوء على المسألة. استجمع ستاكهيرست شتات نفسه، وسرنا باتجاه المنزل.

تبيَّن أن السيد بيلامي رجل كهل ذو لحية حمراء متقدة، ويبدو أنه كان متعكِّر المزاج جدًّا، حتى إن وجهه قد أصبح بعد قليل متقدًا كشعره تمامًا. قال:

– لا يا سيدي، لا أريد أي تفاصيل.

ثم أردف وهو يشير إلى شاب قوي البنية ذي وجه غاضب متجهم يجلس في زاوية غرفة الجلوس:

– إن ابني متفق معي أن ملاطفات السيد مكفارسن لمودي لم تكن مهذبة.

– نعم يا سيدي، إن كلمة زواج لم تُذكر قط، هذا وقد كان ثمة رسائل ومقابلات، وبقدرٍ كبيرٍ ما كان لأيٍّ منَّا أن يرضى عنه. إنها يتيمة الأم، ونحن أولو أمرها، ونحن مصممون أن…

ولكن لسانه انعقد فجأة وتلاشت الكلمات من فمه عندما ظهرت الفتاة نفسها، ولا خلاف أن حضورها كان من شأنه أن يشرِّف أي اجتماع في هذا العالم. مَن ذا الذي كان يتخيَّل أنَّ زهرة بالغة النُّدْرة مثل هذه ستنبت من جذر كهذا وفي مثل هذا الجو؟! أما أنا فنادرًا ما كانت النساء يَفْتِنَّنِي، لأنه دائمًا ما كان عقلي يسيطر على قلبي، ولكنني لم أستطع أن ألقي نظرة إلى وجهها الرائعِ القسمات، وإلى نضارة أرض تلال ساوث داونز العذبة في مُحيَّاها الرقيق، دون أن أدرك أنه ما من شاب كان سيعبر دربَها دون أن تصيبه سهامها. هكذا كانت تلك الفتاة التي دفعت الباب ووقفتْ في تلك اللحظة أمامَ هارولد ستاكهيرست تصوب إليه نظرات حادة بعينيها الواسعتين. قالت:

– أعلم بالفعل أن فيتزروي قد تُوفِّيَ، فلا تخشَ إخباري بالتفاصيل.

أوضحَ الأب قائلًا:

– لقد أطلعَنا هذا السيد الآخر على الخبر.

فقال الفتى الشاب بصوت فظٍّ:

– لا داعي لإقحام أختي في الموضوع.

رمتْه أخته بنظرة حادَّة غاضبة، وقالت:

– إن هذا شأني أنا يا ويليام. من فضلك دعني أتصرف فيه على طريقتي، فثمة جريمة قد ارتُكبتْ حسبَ ما يقول الجميع، ولو استطعت تقديم المساعدة لإظهار مَن ارتكبها، فسيكون هذا أقل ما يمكنني تقديمه لذاك الذي رحل.

استمعت الفتاةُ إلى بيانٍ موجز لما حدث من رفيقي في هدوء وتركيز جعلاني أدرك أنها تتمتع بشخصية قوية، بجانب جمالها الأخَّاذ. ستظلُّ مودي بيلامي في ذاكرتي واحدةً من أكمل وأروع النساء. ويبدو أنها كانت تعرف شكلي بالفعل، لأنها استدارت ناحيتي في النهاية، وقالت:

– قدمهم إلى يدي العدالة يا سيد هولمز. ولك مني التضامن والمساعدة، أيًّا كانوا مَن هم!

وبدا لي أنها كانتْ ترمق أباها وأخاها بنظرة تحدٍّ في أثناء حديثها. فقلتُ:

– أشكركِ. إنني أُقدّر غريزة المرأة في مثل هذه القضايا، لكنكِ استخدمتِ كلمة «قدمهم» أتعتقدين أن أكثر من شخص قد تورط في القضية؟

– لقد كنتُ أعرف السيد مكفارسن جيدًا بما يكفي لأدرك أنه كان رجلًا شجاعًا وقويًّا. ما كان شخصٌ واحد ليستطيع أن يعتدي عليه مثل هذا الاعتداء بمفرده أبدًا.

– هل لي بكلمة معكِ على انفراد؟

فصاح أبوها غاضبًا:

– إنني أُحذِّركِ يا مودي من أن تقحمي نفسكِ في الأمر.

نظرتْ إليَّ في يأس، وقالتْ:

– ماذا عساي أن أفعل؟

فقلتُ:

– سيعرف الجميع بما حدث عمَّا قريب، فلا بأس إذن لو ناقشته هنا. وكنتُ أُفَضِّل لو أننا تحدثنا على انفراد، ولكنْ إذا كان والدُكِ لن يسمح بهذا فليشاركنا المناقشة إذن.

تحدثتُ بعد ذلك عن الرسالة التي وُجِدَتْ في جيب المُتوفَّى، وقلتُ:

– مِن المؤكد أنها ستُناقَش في التحقيق. فهلا توضِّحين أمرها بقدر الإمكان؟

فأجابت:

– لا أرى سببًا للسرّية، لقد كنَّا مخطوبَيْن وسنتزوج، ولكننا أبقينا الأمر سرًّا فقط من أجل عم فيتزروي، وهو رجل طاعن جدًّا في السن ويُعتقد أنه على وشك الموت، لأنه كان سيحرمه من الميراث لو تزوَّج على خلاف رغبته. لم يكن هناك سبب آخر.

تذمر السيد بيلامي قائلًا:

– كان بإمكانكِ أن تخبرينا.

– كنتُ سأفعل هذا، يا أبي، لو كنتَ أظهرتَ تعاطفك في أي وقت مضى.

– أنا لا أرضى لابنتي بالزواج من رجل أقل منها منزلة.

– إنَّ تحيزك ضده هو ما منعنا من إخبارك بالأمر. أما عن هذا الموعد...

ثم أخذتْ تفتِّش في فستانها وأخرجتْ رسالةً مُتَغَضِّنَةً وأردفت قائلة:

– كان الموعد ردًّا على هذه.

وجاءت الرسالة كالآتي:

(حبيبتي؛

يوم الثلاثاء في المكان القديم عند الشاطئ بعد غروب الشمس مباشرةً. هذا هو الوقت الوحيد الذي يمكنني أن آخذ إجازة فيه.

ف. م).

– كان يوم الثلاثاء هو اليوم، وكنت أنوي مقابلته هذه الليلة.

فقلبتُ الورقة على ظهرها، وقلتُ:

– لكنَّ هذه لم تصلك عن طريق البريد، فكيف حصلتِ عليها؟

– أُفضِّل ألَّا أُجيب عن هذا السؤال، فلا علاقة له في الواقع بالقضية التي تحقِّق فيها، لكنني سأجيب بصراحة مطلقة عن أي شيء له تأثيرٌ عليها.

وكانت عند كلمتها بالفعل، لكنْ لم يكن ثمة ما يفيد في تحقيقنا. أما هي فلم يكن هناك ما يدفعها للاعتقاد بوجود أي عدو خفي لخطيبها، لكنها اعترفتْ بأن لديها الكثير من المعجبين المتحمسين. سألتها:

– هل لي أن أعرف أكان السيد إيان ميردوك واحدًا من هؤلاء؟

فاحمرَّ وجهها خجلًا وبدا عليها الارتباك، وقالت:

– في وقتٍ ما كنتُ أعتقد أنه كذلك، لكن كل هذا تغيَّر عندما عرف بالعلاقة التي بيني وبين فيتزروي.

أخذت هواجسي حول هذا الرجل الغريب تتشكَّل من جديد على نحو أوضح. لا بد من دراسة تاريخه، ولا بد من تفتيش سكنه سرًّا. لقد كان ستاكهيرست مستعدًّا للتعاون، حيث كانت الشكوك تدور في ذهنه هو الآخر.

عُدْنا من زيارة «المرفأ» ونحن نأمل أننا قد أمسكنا في أيدينا بالفعل بأحد أطراف لفافة الخيوط المتشابكة هذه.

انقضى أسبوع، ولكن التحقيق لم يُلقِ أيَّ ضوء على القضية، فمكثنا بانتظار ظهور مزيد من الأدلة. كان ستاكهيرست قد أجرى تحقيقًا سريًّا عن موظفه، وفُتشتْ حجرته تفتيشًا ظاهريًّا، لكن دون جدوى. وأنا شخصيًّا قد فحصتُ المنطقة كلها ثانيةً، بأدواتي وعقلي كذلك، ولكن دون الوصول إلى أي استنتاجات جديدة. لن يجد القارئ بين مغامراتي كلها قضيةً دفعتْني كليًّا إلى بذل أقصى قدراتي كما فعلتْ هذه القضية، حتى إن مخيلتي لم تستطع تصوُّر أي حل لهذا اللغز، ثم وقعتْ حادثة الكلب.

كانت مدبرة منزلي العجوز هي أول مَن سمع بها عبر الجهاز اللاسلكي الغريب الذي يتلقَّط به أمثالها من الناس أخبار الريف. فقد قالتْ ذات مساء:

– محزنةٌ قصةُ كلب السيد مكفارسن هذه يا سيدي.

أنا لا أنخرط عادةً في مثل هذه المحادثات، لكنَّ الكلمات شدَّت انتباهي، فسألتها:

– وماذا حدث لكلب السيد مكفارسن؟

– مات يا سيدي. مات حُزنًا على صاحبه.

– مَن أخبركِ بهذا؟

– يا إلهي! إن الجميع يتحدث عن تلك القصة يا سيدي. لقد كان منظره صاعقًا، لم يأكل أي شيء مدة أسبوع. ثم عَثَر عليه شابان من طلاب مؤسسة «ذا جيبلز» اليوم ميتًا، في الأسفل عند الشاطئ يا سيدي، في المكان نفسه الذي لقي فيه سيده مصرعه.

«في المكان نفسه». ظلت الكلمات محفورة بوضوح في ذاكرتي، وخطرت لي فكرة غامضة بأن الأمر كان مُهمًّا. قد تكون وفاة الكلب راجعة إلى طبع الوفاء الجميل عند الكلاب. ولكن «في المكان نفسه»! لِمَ قد يتسبب هذا المكان المهجور في وفاته! أمِن المحتمل أن يكون قد انتُقِمَ منه هو الآخر من أجل ضغينةٍ ما؟ أمِن المحتمل أن...؟ نعم، لقد كانت الفكرة غامضة، لكنّ شيئًا ما كان يتكوَّن بالفعل في ذهني. بعدها بقليلٍ كنتُ في طريقي إلى مؤسسة «ذا جيبلز»، حيث وجدت ستاكهيرست في مكتبه، فاستدعى – بناءً على طلبي– سادبري وبلاونت، الطالبَين اللذين عثرا على الكلب. قال أحدهما:

– نعم، لقد كان مُمَدَّدًا فوق حافة بركة السباحة تمامًا. لا بد أنه كان يتبع أثر صاحبه القتيل.

رأيتُ الحيوان الوفيَّ المسكين، كان من فصيلة إيرديل تيريار، مُمَدَّدًا فوق سجادة الردهة، جثته متيبسةً جامدة، وعيناه جاحظتَين، وأطرافه ملتويةً مُشوَّهة. كانت آثار التعذيب باديةً على كل جزءٍ منها.

خرجتُ من مؤسسة «ذا جيبلز» إلى بركة السباحة. كانت الشمس قد غرقت في مياه المانش وألقى ظلُّ الجرف الكبير بظلمته على المياه التي راحتْ تومض وميضًا باهتًا مثل لوحٍ من الرصاص. كان المكان مهجورًا، ولم يكن ثمة أثر للحياة إلَّا من طَيْرَين من طيور البحر كانا يحومان ويصوِّتان في السماء. وفي الضوء الخافت استطعتُ بالكاد أن أرى آثار أقدام الكلب المسكين فوق الرمال عند الصخرة ذاتها التي كانت منشفة صاحبه ملقاة عليها. وقفتُ وقتًا طويلًا غارقًا في تأملٍ عميقٍ بينما راحت الظلال تشتدُّ ظلمةً من حولي. أخذَت الأفكار تموج في عقلي، ولعلكم تذكرون كيف كان شعوركم وأنتم في حُلْمٍ مروِّع، تحسون وأنتم بداخله أن ثمة شيئًا بالغَ الأهمية تبحثون عنه وأنتم موقنون بوجوده، لكنه يظل إلى الأبد بعيدًا تمامًا عن أيديكم.. هكذا كان شعوري في تلك الليلة وأنا واقفٌ وحدي في بقعة الموت تلك، لكنني استدرت في النهاية ومشيتُ ببطء صوب البيت.

ما إن وصلتُ إلى قمة طريق الجرف حتى تنبَّهتُ لشيءٍ ما. لقد تذكرتُ في لمح البصر ذلك الشيءَ الذي ضاع جهدي الشديد سُدًى وأنا أحاول فهمه. ستعرفون، أو لعل واتسون قد كتب عبثًا أنني أمتلك مقدارًا وافرًا من المعلومات النادرة، ولكن من دون ترتيب علمي، ولكنها مفيدة جدًّا لمتطلبات عملي. إن عقلي أشبه بحجرة تخزين مكتظة بدرزينات من جميع الأنواع، وهي مخزنة في مكان ما داخلها، ولكنها كثيرةٌ إلى حد بعيدٍ بحيث من الوارد أن تكون معرفتي مبهمة عمَّا يوجد بالداخل. لقد كنت أعرف أنه يوجد شيءٌ ما من الممكن أن تكون له علاقة بتلك القضية. كان لا يزال غامضًا، ولكن على الأقل كنتُ أعرف كيف يمكنني أن أجعله يتضح. لقد كان شيئًا رهيبًا لا يصدقه العقل، ورغم هذا فدائمًا ما كان محتملًا، وسوف أختبره على أكمل وجه ممكن.

توجد بمنزلي الأثير عُليَّة كبيرة ملآنة بالكتب، فاندفعتُ داخلها بسرعة وأخذت أُفتّش مدَّةَ ساعة، وفي نهاية هذه المدة خرجتُ بمجلد صغير مُلوَّن باللونَين الفضي والبني الداكن. فتحته في لهفةٍ على الفصل الذي كنتُ أذكره بصورة مشوشة. نعم، لقد كان افتراضًا غيرَ واردٍ وبعيد الاحتمال، ولكن لم أستطع أن أطمئن قبل أن أتأكد إن كان من الممكن أن يكون كذلك حقًّا أم لا. كان الوقت متأخرًا عندما أويتُ إلى فراشي وذهني متلهفٌ إلى عمل الغد. غير أن ذلك العمل تعرَّض لمقاطعة مزعجة، فما إن احتسيتُ فنجاني المبكر من الشاي وشرعتُ في طريقي إلى الشاطئ، حتى تلقيتُ مكالمة من الضابط باردل من شرطة ساسكس؛ وهو رجل هادئٌ قويٌّ باردُ الطبع ذو عينَين متأملتَين، وقد راح ينظر إليَّ في تلك اللحظة وعلى ملامح وجهه اضطرابٌ شديد. قال:

– إنني أعلم بشأن خبرتك الواسعة يا سيدي. وهذه زيارة غير رسمية تمامًا، من دون شك، وينبغي ألا يعلم بها أحد غيرنا. لكنني واقعٌ في ورطة كبيرة بسبب قضية مكفارسن هذه. والسؤال هو: هل أقبض عليه أم لا؟

– أتقصد السيد إيان ميردوك؟

– نعم يا سيدي. فإذا ما فكرتَ في الأمر فلن تجد غيره في الواقع. وتلك هي فائدة أن تكون دائرة الاشتباه محدودة هكذا، فهي مقصورة عليه وحده. إذا لم يكن هو الفاعل، فمَن إذن؟

– وما الذي تأخذه عليه؟

كان الضابط باردل له المآخذ نفسها التي راودتني. فكان من بينها شخصيةُ ميردوك، وذاك الغموضُ الذي يحيط به، ونوباتُ غضبه المتوحشة، كما ظهر في حادثة الكلب، وواقعة شجاره مع مكفارسن في الماضي، كما كان يوجد مُبرِّر وجيه للاعتقاد بأنه ربما يكون قد اغتاظ من ملاطفاته للآنسة بيلامي. لقد توصَّل إلى كل النقاط التي توصَّلتُ إليها، ولكنه لم يزد عليها سوى أن ميردوك كان فيما يبدو يأخذ استعداداته كلها للرحيل.

– كيف سيكون موقفي لو تركته يهرب وكل هذه الأدلة قائمة ضده؟

كان الرجل الضخم الجثة، البارد الطبع، قلقًا للغاية. فقلتُ له:

– فكِّر في كل الثغرات الأساسية في قضيتك. إنه يستطيع يقينًا أن يثبتَ غيابه عن مسرح الجريمة صبيحةَ وقوعها، فلقد كان مع طلابه حتى آخر لحظة، ثم ظهر بالصدفة من خلفنا بعد لحظات قليلة من ظهور مكفارسن. ثم تذكَّرْ أنه من المستحيل تمامًا أن يكون قد تمكَّن بمفرده من إيقاع هذا العدوان على رجلٍ لا يقل قوةً عنه بحال. وأخيرًا، يبقى هذا السؤال حول الأداة التي استُخدمت في إحداث تلك الإصابات.

– ماذا عساها أن تكون سوى سَوْط أو مِقْرَعةٍ لدنةٍ من نوعٍ ما؟

فسألته:

– هل فحصت العلامات؟

– لقد رأيتها. ورآها الطبيب كذلك.

– ولكنني فحصتُها جيدًا جدًّا بواسطة عدسة. إن لها ميزات خاصة.

– وما هي يا سيد هولمز؟

خطوتُ باتجاه مكتبي وأخرجتُ صورةً مكبَّرة. وقلتُ موضِّحًا:

– هذه هي طريقتي في مثل تلك الحالات.

– إنك حقًّا تقوم بكل شيء بدقة شديدة يا سيد هولمز.

– لو لم أفعل هذا لكان من الصعب أن أكون ما أنا عليه. والآن لنتأمل هذه الكدمة الممتدة حول الكتف اليمنى. ألا تلاحظ شيئًا غريبًا؟

– لا أستطيع أن أقول بلى.

– من الواضح دون شك أنها غير مُتَّسقة في حدَّتها. يوجد كمية قليلة من الدم المرتشِح هنا، وأخرى هناك. وثمة علامات مشابهة في تلك الكدمة هنا. ترى ما معنى هذا؟

– ليس لديَّ فكرة، أتعرف أنت؟

– ربما أعرف، وربما لا، ولكن ربما سأتمكَّن من قول المزيد قريبًا. إن أيَّ شيءٍ من شأنه أن يوضِّح سبب هذه العلامة سيقرِّبنا كثيرًا من المجرم.

فقال ضابط الشرطة:

– إن هذه لَفكرةٌ غريبةٌ من دون ريب.

– لو أنَّ شبكةً من الأسلاك المُحْمَاة وُضعتْ على ظهره، فستكون هذه النقاط الأكثر وضوحًا تمثيلًا لأماكن تقاطع خيوط الشبكة مع بعضها بعضًا تشبيه بالغ البراعة. أو ربما يكون سَوْطًا صلبًا جدًّا متشعِّبَ الأطراف، وفي كل طرفٍ منه عُقَدٌ صغيرة صلبة، أليس كذلك؟

– يا إلهي، يا سيد هولمز. أظن أنك قد توصَّلتَ إلى الحل.

– أو ربما هناك سببٌ ما مختلفٌ تمامًا، يا سيد باردل. لكنَّ حجتك أضعف بكثير جدًّا من أن تُخَوِّلك القبضَ عليه. وعلاوةً على ذلك، فإن لدينا تلك الكلمات الأخيرة.. «عُفرة الأسد».

– كنت أتساءل إن كان إيان...

– نعم، لقد فكَّرت في هذا؛ فيما إذا كانت الكلمة الثانية تحمل أيَّ تشابه مع كلمة «ميردوك» ولكنها لم تكن كذلك. لقد نطق بها صارخًا تقريبًا. أنا متأكد أنها كانت «عُفرة الأسد».

– ألا توجد لديك أي نظرية بديلة يا سيد هولمز؟

– ربما عندي واحدة. ولكني لا أحب أن أناقشها قبل أن يكون هناك ما يصلح للاعتماد عليه بصورة أكبر عند المناقشة.

– ومتى سيكون هذا؟

– في غضون ساعة واحدة، وربما أقل.

أخذ الضابط يحكُّ ذقنه وينظر إليَّ بعينَين متشككتَين، وقال:

– ليتني أستطيع معرفة ما يجول في ذهنك يا سيد هولمز. لعلها قوارب الصيد تلك.

– لا لا، لقد كانت بعيدة جدًّا.

– حسنًا إذن، أهو السيد بيلامي وابنه الضخم، فهما لم يكونا لطيفَين كثيرًا مع السيد مكفارسن. أمن الممكن أن يكونا تسبَّبَا له في الأذى؟

فقلتُ وأنا أبتسم:

– لا لا، لن تأخذ مني معلومةً قبل أن أصبح مستعدًّا. والآن، أيها المحقِّق، إن لدى كلٍّ منا عملًا يقوم به. وربما لو استطعتَ أن تقابلني هنا وقتَ الظهيرة...

ما إن وصلنا إلى هذه النقطة حتى وقع هذا الحدث الهائل والذي كان بداية النهاية.

انفتح باب منزلي الخارجي بعنف، وسمعتُ وقع أقدام مرتبكة في الممر، ثم اندفع إيان ميردوك إلى الغرفة وهو يترنَّح، كان شاحبًا شعثًا، ملابسه في فوضى عارمة، وكان يحفر الأثاث بيدَيه الناتئتَي العظام ليعتدل في وقفته. وراح يقول لاهثًا «براندي! براندي!» ثم سقط فوق الأريكة وهو يَئِن.

لم يكن بمفرده، فقد أتى ستاكهيرست على إِثْره لاهثًا حاسرَ الرأس، وكان ذاهلًا تقريبًا كرفيقه. وصاح قائلًا:

– نعم، نعم، براندي! إن الرجل يلتقط أنفاسه الأخيرة. كل ما استطعتُ فعله أن آتي به إلى هنا. لقد أُغْمي عليه مرتَين ونحن في الطريق.

أحدث نصف قدحٍ من الكحول الصِّرف فرقًا عجيبًا. فدفع بنفسه وقام مُعتمدًا على ذراعٍ واحدة وألقى معطفه من فوق كتفَيه، وأخذ يصيح قائلًا:

– لأجل الرب، دهانًا، أفيون، مورفين! أي شيء من شأنه أن يسكِّن هذا الألم اللعين!

صرختُ أنا والضابط من الخوف. كان يبدو على كتفه العارية نفسُ الشكل المتشابك الغريب من الخطوط الحمراء الملتهبة التي تسبَّبت في موت فيتزروي مكفارسن.

من الواضح أن الألم كان قويًّا لا يُحتمل، لأن تنفُّس الضحية كان يتوقف لفترات قصيرة، ولون وجهه يتحوَّل إلى الأسود، ثم يضرب بيده على قلبه مُطلِقًا زفرات حادةً، بينما كان جبينه يقطر حباتٍ من العرَق. كان من الممكن أن يموت في أي لحظة. أخذَ يصبُّ في حلقه المزيد والمزيد من البراندي، كانت كل جرعة جديدة تعيده إلى الحياة من جديد. ويبدو أن الضمادات القطنية المُشبعة بزيت الطعام قد أذهبت الألم من تلك الجروح الغريبة. في النهاية هوى رأسه بقوة على الوسادة، ولاذ بدنه المُنهَك بآخر مستودع من مستودعات حيويته. كانت حالةً بين النوم والإغماء، لكنها على الأقل كانت إعفاءً من الألم.

كان استجوابه مستحيلًا، لكن بمجرد أن اطمأننا على حالته التفتَ إليَّ ستاكهيرست وصاح قائلًا:

– يا إلهي! ما هذا يا هولمز ما هذا؟

– أين عثرتَ عليه؟

– عند الشاطئ. في المكان نفسه الذي لقي فيه المسكين مكفارسن مصرعه. لو أن قلب هذا الرجل كان ضعيفًا كقلب مكفارسن لَمَا كان هنا الآن. لقد ظننتُ أكثر من مرة وأنا أحضره إلى هنا أنه قد تُوفِّي، وكان الطريق إلى مؤسسة «ذا جيبلز» طويلًا جدًّا، لذا أتيتُ إليك.

– كيف رأيته عند الشاطئ؟

– كنتُ أتمشى على الجرف فسمعتُ صراخه. كان على حافة المياه، يترنَّح كالسكران. فأسرعتُ بالنزول، وألقَيتُ بعض الملابس عليه، ثم أتيتُ به إلى هنا. أرجوك يا هولمز، استخدم كل إمكانياتك ولا تدَّخر جهدًا في رفعِ هذه اللعنة عن هذا المكان، فالحياة أصبحت لا تُطاق. ألا تستطيع، بالرغم من شهرتك العالمية هذه كلها، أن تفعل لنا شيئًا؟

– أظن أنني أستطيع يا ستاكهيرست. سِرْ معي الآن! وأنت يا حضرة الضابط، تعال معنا! سنرى إن كنا نستطيع تسليمكم هذا القاتل أم لا.

بعد أن تركنا الرجل الفاقد الوعي في رعاية مدبرة منزلي، مَضَيْنا نحن الثلاثة إلى الحفرة المميتة. كانت هناك كومة صغيرة من المناشف والملابس تركها الرجل المصاب مُكدَّسةً فوق حجارة الشاطئ. فمشيتُ ببطء حول حدود المياه، وسار الرجلان على خطاي، واحدًا تلو الآخر. كانت البِركة ضحلة تمامًا، لكنها كانت بعمق أربعة أو خمسة أقدام أسفل الجرف في البقعة المُجوَّفة من الشاطئ. مَن يريد الاستحمام سيدخل إلى هذا الجزء بطبيعة الحال، لأنه يُشكِّل بِركةَ سباحةٍ خضراءَ صافيةً جميلةً رائقةً كالماس، فوقها سلسلة من الصخور عند قاعدة الجرف. تقدَّمتُ رفيقيَّ على طول هذه السلسلة، وأخذتُ أحدِّق بحرصٍ إلى أعماق المياه أسفلَ مني. عندما وصلتُ إلى البقعة الأكثر عمقًا وسكونًا من البِركة التقطتْ

عيناي ما كانتا تبحثان عنه، فأطلقتُ صرخة انتصار، وصحتُ قائلًا: «سايانِّيا! سايانِّيا! ها هي عُفرة الأسد!»

كان الشيء الغريب الذي أشرتُ إليه يشبه بالفعل كتلةً متشابكةً مقطوعة من عُفرة أسد. كانَ جاثمًا على رفٍّ صخري على بعد نحو ثلاثة أقدام تحت المياه، كان مخلوقًا غريبًا مُتموِّجًا يُطلِق ذبذبات ويكسوه الشعر، بين جدائله الصفراء خطوط دقيقة فضية اللون، يتحرك في خفقاتٍ من التمدُّد والتقلُّص الكسول الثقيل. فصرخت قائلًا:

– لقد تسبَّب في الأذى بما فيه الكفاية. لقد انتهى يومه! ساعدني يا ستاكهيرست! لنقضي على القاتل إلى الأبد.

كان هناك حجرٌ ضخمٌ فوق الحافة الصخرية مباشرة، فدفعناه حتى سقط في المياه مُطلقًا رَشاشًا هائلًا. وعندما سكنتْ تموُّجاتُ الماء وجدنا أنه استقرَّ فوق النتوء الصخري الذي بالأسفل، وأظهرتْ رفرفةُ طرَفِ نسيجٍ حيوانيٍّ أصفرِ اللونِ أنْ ضحيتنا كان تحت الحجر. ثم راحتْ رغوةٌ زيتيةٌ ثقيلة تسيل من تحت الحجر حتى لوَّثت المياه من حولها وهي تطفو ببطء إلى السطح. وهنا صاح الضابط قائلًا:

– حسنًا، إن هذا ليحيِّرني! ما كان هذا يا سيد هولمز؟ لقد ولدتُ وترعرعتُ في هذه الأنحاء، ولكنني لم أرَ شيئًا كهذا من قبل قَطُّ. إنه دخيلٌ على أرض ساسكس.

فعقبتُ على كلامه قائلًا:

– من الطبيعي أن يحدث هذا في ساسكس، ربما تكون العاصفة الجنوبية الغربية هي التي جلبته إلى هنا. تعالَيا كلاكما لنرجع إلى بيتي، وسوف أقصُّ عليكما التجربة المرعبة التي خاضها شخصٌ جديرٌ به أن يتذكَّر مواجهته مع خطر البحار هذا.

عندما وصلنا إلى حجرة مكتبي وجدنا ميردوك قد تعافى بقدرٍ محدودٍ، بحيث كان يستطيع الجلوس. كان في حالة ذهول، يرتجف بين الحين والآخر عندما تصيبه نوبة من نوبات الألم. ثم وضَّح لنا بكلماتٍ مُتقطِّعة أنه ليست لديه فكرة عمَّا حدثَ له، غير أنَّ وخزاتٍ رهيبةً أصابته فجأة، وأن الأمر قد احتاجَ إلى إبراز تجلُّده كله من أجل أن يصل إلى الضفة. فقلتُ وأنا أتناول المجلد الصغير:

– هذا هو الكتابُ الذي كان أوَّلَ شيءٍ ألقى الضوءَ على ما كان من الممكن أن يظل مُبهَمًا إلى الأبد. إنه كتاب للباحث الشهير في علم التاريخ الطبيعي، جاي جي وود. لقد كادَ وود نفسه أن يهلك نتيجة الاحتكاك بهذا المخلوق اللعين، لذا فقد كتب عنه من واقعِ خبرةٍ غنية جدًّا. «سايانِّيا كابيلاتا» هذا هو الاسم الكامل لهذا اللعين، ويمكنُ أن تبلغَ خطورته على الحياة خطورةَ لدغة الكوبرا وأن تفوقها أَلَمًا. اسمحوا لي أن أقرأ هذا الاقتباس الموجز:

(إذا تصادف أن رأى مَن يسبح في المياه جسمًا رخوًا أسطوانيًّا يبدو وكأنه كتلة من الأنسجة الحيوانية يميل لونها إلى اللون الأصفر البني، وكان شيءٌ بتكوينه يشبه عُفرة الأسد؛ من يرى منكم هذا المخلوق فليأخذ حذره. فإنه المخلوق صاحب اللسعات العنيفة الرهيبة: سايانِّيا كابيلاتا).

أمن الممكن أن يوصف صاحِبُنا الشرير هذا بأوضح من هذا؟ ثم يستطرد في الحديث ليخبر عن مواجهته هو نفسه بأحد هذه المخلوقات عندما كان يسبح بعيدًا عن شاطئ مقاطعة كِنت. لقد اكتشف أن هذا المخلوق ينشر خيوطًا رفيعةً لا تكاد تُرى في دائرة يبلغ قطرُها خمسين قدمًا، وأن أيَّ أحدٍ يُوجد داخل حدود هذه المسافة المحيطة بالمركز المُهلك يصبح معرَّضًا للموت. لقد كاد يكون تأثيرُها على وود مُهلِكًا حتى عن بُعد.

كانت الخيوطُ الغزيرةُ تُحدث خُطوطًا بنفسجية ملتهبة على الجلد، يتَّضح عند فحصها عن قُرب أكثر أنها بثراتٌ أو نِقاطٌ دقيقةٌ، وكأنها إبرة ملتهبة تتخذ لنفسها طريقًا إلى الأعصاب.

كان الألم الموضعي كما يُوضِّح وود أقلَّ أجزاء هذا العذاب الشديد قسوةً. ثم يقول:

(أسقطتني الوخزات التي تلقيتُها في صدري وكأنما تلقَّيتُ رصاصة. كان نبضي سيتوقف، لكن القلب وثب بعد ذلك ست وثباتٍ أو سبعًا، وكأنه سيندفع خارج صدري).

لقد كادتْ أن تقتله، على الرغم من أنه تعرَّض لها فقط في مياه المحيط الهائجة وليس في مياه بركة السباحة الهادئة الضحلة. ويقول إنه استطاع بالكاد أن يتعرَّف على نفسه بعد ذلك، فقد كان شديد الشحوب، وكان وجهه مُتجعِّدًا مُتَغَضِّنًا. لكنه راح يعبُّ من البراندي، ما يملأ قنينة كاملة، ويبدو أنها قد أنقذتْ حياته.

– إليكَ الكتاب أيها الضابط. إنني أتركه لك، ولا شكَّ أنه يحتوي على شرحٍ وافٍ لمأساة المسكين مكفارسن.

فعلّق إيان ميردوك بابتسامةٍ ساخرة:

– وبرَّأني كذلك بالمناسبة. أنا لا ألومك أيها الضابط، ولا أنت يا سيد هولمز، لأن شكوككما كانت أمرًا طبيعيًّا. لكنني أشعر برغم ذلك أن ما أبرأ ساحتي في ليلة القبض عليَّ هو أنني نلتُ نصيبي من مصير صديقي المسكين.

– لا يا سيد ميردوك. لقد كنتُ أسير بالفعل في المسار الصحيح، ولو كنتُ خرجتُ من البيت مبكرًا كما نويتُ فلربما كنتُ أنقذتُك من هذه التجربة المُروِّعة.

– لكن كيف عرفت هذا يا سيد هولمز؟

– إنني قارئ نَهِمٌ ذو ذاكرة قادرة على الاحتفاظ بالتفاصيل الدقيقة بصورة مذهلة. لقد ظلت عبارة «عفرة الأسد» تتردَّد على ذهني. وأدركتُ أني كنتُ قد رأيتُها في مكان ما في سياق غير متوقَّع. ولقد رأيتم أنها تصف ذلك المخلوق بالفعل. وليس لديَّ شك أنه كان يسبح في الماء عندما رآه مكفارسن، وأن هذه العبارة كانت هي العبارة الوحيدة التي استطاع أن يبلغنا بها تحذيرًا من ذلك المخلوق الذي تسبَّب في موته.

فقال ميردوك، وهو ينهض ببطءٍ على قدميه:

– أنا بريءٌ إذن على الأقل. لكنْ ثمة توضيح صغير عليَّ أن أقُدِّمه، لأنني أعرف الوجهةَ التي كان يسير فيها تحقيقك. صحيحٌ أنني أحببتُ هذه الفتاة، ولكن منذ أن اختارتْ صديقي مكفارسن أصبحتْ

رغبتي الوحيدة أن آخذ بيدها إلى السعادة. لقد رضيتُ تمامًا بالانسحاب وبلعب دور الوسيط بينهما، وكثيرًا ما كنتُ أحمل رسائلهما، وحيث إنني كنتُ موضع ثقتهما وكانت هي عزيزة عليَّ جدًّا فقد سارعتُ بإخبارها بوفاة صديقي، وذلك خشيةَ أن يسبقني شخصٌ ما إلى قول هذا بطريقةٍ أقلَّ رفقًا وشفقة. وهي لم تشأ أن تخبرك بعلاقاتنا يا سيدي خوفًا من أنْ تستنكرها أنتَ وأنْ أعاني أنا. وعندما ترحل أنت، عليَّ أن أحاول العودة إلى مؤسسة «ذا جيبلز»، وسيسرني النوم على فراشي للغاية.

مدَّ ستاكهيرست يده، وقال:

– لقد كانت أعصابنا جميعًا متوترةً للغاية. فلتعفُ عما مضى يا ميردوك. وسيتفهَّم بعضنا بعضًا بصورة أفضل في مُقبل الأيام.

وخرجا معًا وذراعاهما متشابكتان بطريقة ودود. أما الضابط فبقي، وظل محدِّقًا إليَّ في صمت بعينَيه الشبيهتَين بعينَي الثور. ثم صاح في النهاية قائلًا:

– حسنًا، لقد فعلتَها! لقد قرأتُ عنك، لكنني لم أكن أصدق ما قرأته قط. إن هذا لأمر مذهل!

اضطررتُ إلى هز رأسي. لقد كان القبول بمثل هذا الثناء انخفاضًا بمبادئ المرء الأخلاقية. وقلت:

– لقد كنتُ مُتبلِّد العقل في البداية، مُتبلِّد العقل بطريقة تستوجب اللوم. ولو كان عُثِر على الجثة في المياه لكان من الصعب ألا أدرك الأمر. إن المنشفة هي التي ضلَّلتني، فالمسكينُ لم يُفكِّر قط في تجفيف جسمه، لذا فقد أدى بي هذا بدوره إلى الاعتقاد بأنه لم ينزل قط إلى المياه. فكيف كان سيخطر ببالي إذن أن يكون قد وقع هجوم من أي كائن بحري هذه هي النقطة التي ضللتُ الطريق عندها. حسنًا، حسنًا، أيها الضابط، فكثيرًا ما تجرَّأتُ على السخرية منكم أيها السادة من رجال الشرطة، لكن سايانِّيا كابيلاتا كاد أن ينتقم لكم جميعًا.

قضية النزيلة الملثمة

لو أخذ المرء بعين الاعتبار أن السيد شيرلوك هولمز قضى ثلاثة وعشرين عامًا في ممارسة مهنته، وأنني كنت قادرًا على مدار سبعة عشر عامًا منهم على التعاون معه وتدوين ملاحظات حول ما يفعله – فسوف يكون واضحًا أن الكثير من المعلومات صارت تحت تصرفي، لكن المشكلة لم تكن قط في العثور على المعلومات بل في اختيارها، فهناك صف طويل من الكتب السنوية التي تملأ الأرفف، بالإضافة إلى العديد من حقائب الملفات المليئة بالوثائق والمستندات التي تعدُّ منجمًا مثاليًّا للمعلومات، ليس فقط لطالب علم الإجرام، وإنما أيضًا للفضائح الاجتماعية وفضائح المسؤولين في أواخر العصر الفيكتوري، وبخصوص هذين الأخيرين تحديدًا، يمكنني القول إن الذين كانوا يكتبون تلك الخطابات التي تنطوي على القلق الشديد، والتي يتوسلون فيها من أجل عدم المساس بشرف عائلاتهم أو سمعة أسلافهم المعروفين – ليس لديهم ما يخشونه. إن التحفظ والإحساس العالي بشرف المهنة اللذين لطالما ميزا صديقي لا يزال أثرهما واضحًا في اختيار هذه المذكرات، ولن يُساء استخدام الثقة، لكني أستنكر بقوة تلك المحاولات التي بُذلت مؤخرًا من أجل الحصول على هذه المستندات وإتلافها. إن مصدر هذه الاعتداءات معروف، ولو تكررت مرة أخرى فلدي إذنٌ من السيد هولمز للتصريح بأن القصة الكاملة المتعلقة بالسياسي والمنارة وطائر الغاق المائي المُدرَّب، سوف تُنشر على عامة الناس، ومن المؤكد أن هناك ولو قارئًا واحدًا على الأقل سيفهم الأمر.

ليس منطقيًّا أن نفترض أن كل قضية من هذه القضايا قد أعطت لهولمز الفرصة لإظهار هاتين الموهبتين الفذتين في الفراسة وقوة الملاحظة، واللتين سعيتُ دائمًا لإظهارهما في هذه المذكرات.

أحيانًا كان يبذل مجهودًا كبيرًا لكي يتوصل إلى حل اللغز، وفي أحيان أخرى كان مفتاح اللغز يسقط بسهولة في حجره. لكن غالبًا ما كانت أكثر المآسي الإنسانية فظاعة هي المتعلقة بتلك القضايا التي أتاحت له أقل قدر من الفرص الشخصية، وأنا أرغب الآن في تدوين واحدة من هذه القضايا. وقد قمت بتغييرٍ طفيف في الاسم والمكان، لكن فيما عدا ذلك فإن الأحداث والوقائع قد أُدرِجَت تمامًا كما حدثَت.

في ضحى أحد الأيام –وكان ذلك في أواخر عام 1896 – تلقيت رسالة عاجلة من هولمز يطلب فيها حضوري. وعندما وصلتُ وجدته جالسًا في جو مليء بالدخان، مع سيدة كهلة رؤوم تبدو من نوع السيدات صاحبات الفنادق ممتلئات الجسم. كانت تجلس على الكرسي المقابل له. قال صديقي وهو يلوح بيده:

– هذه السيدة ميريلو من حي بريكستون الجنوبي. إن السيدة ميريلو لا تمانع التدخين يا واتسون، إذا كنت تود الانغماس في عادتك الكريهة. لدى السيدة ميريلو قصة مثيرة لترويها، وقد يكون وجودك مفيدًا خلال تطورات أحداثها.

– هل من شيء يمكنني القيام به؟

– يجب أن تفهمي يا سيدة ميريلو أنني لو ذهبت إلى السيدة روندر فأنني أفضل أن يكون معي شاهد. يجب أن توضحي لها ذلك قبل وصولنا.

فقالت ضيفتنا:

– ليباركك الله يا سيد هولمز، إنها متلهفة جدًّا لرؤيتك، حتى لو جلبت الأبرشية كلها في أعقابك!

– حسنًا، علينا القدوم في وقت مبكر بعد الظهر إذن. لكن دعونا نتأكد من صحة الحقائق التي لدينا قبل أن نبدأ، وإذا قمنا بمراجعتها فسوف يتمكن الدكتور واتسون من فهم الموقف. إنك تقولين إن السيدة روندر نزيلة عندك منذ سبع سنوات، وأنك لم ترَي وجهها سوى مرة واحدة فقط.

فقالت السيدة ميريلو:

– ويا ليتني لم أره.

– أتفهَّم أن وجهها كان مشوهًا بصورة فظيعة.

– هذا صحيح يا سيد هولمز، بالكاد يمكنك أن تسميه وجهًا. سأخبرك كيف يبدو، لقد لمحها بائع الحليب ذات مرة وهي تطل من النافذة العليا فأسقط قصديره وسكب الحليب في كل أنحاء الحديقة الأمامية، هكذا يبدو وجهها. عندما رأيتها –وقد حدث ذلك على حين غرة– أسرعَت بتغطية وجهها وقالت: «والآن يا سيدة ميريلو بتِّ تعرفين أخيرًا لماذا لم أرفع لثامي قط».

– أتعرفين أي شيء عن ماضيها؟

– لا شيء على الإطلاق.

– ألم تقدم أي إثبات هوية عند وصولها؟

– لا يا سيدي، لكنها قدمت الكثير من المال، ودفعت إيجار ثلاثة أشهر مقدمًا على الطاولة ولم تجادل حول أي من الشروط. وفي مثل هذه الأوقات ليس في متسع امرأة فقيرة مثلي أن ترفض فرصة كهذه.

– ألم تذكر أي سبب وراء اختيارها للإقامة في نُزُلك بالتحديد؟

– إن نُزُلي يقع بعيدًا عن الطريق، وهو أكثر خصوصية من معظم النزل الأخرى، هذا بالإضافة لأنني لا أقبل إلا الشخص الملائم، وأنني ليست لي عائلة. أظن أنها جربت الإقامة في أماكن أخرى، ووجدت أن نزلي هو أفضل ما يناسبها. إنها تسعى وراء الخصوصية، وهي على استعداد تام لأن تدفع ثمنها.

– إنك تقولين إنها لم تظهر وجهها قط منذ مجيئها وحتى النهاية، باستثناء تلك المرة غير المقصودة. حسنٌ.. إنها قصة غريبة للغاية، بل إنها الأكثر غرابة على الإطلاق، ولا عجب في رغبتك في أن تبحثي عن السبب وراء غرابتها.

– لست أرغب في ذلك يا سيد هولمز. إنني راضية تمامًا ما دمت أحصل على الإيجار، ولا يمكن أن يكون لديك نزيل أكثر هدوءًا وأقل إثارة للمشكلات منها.

– ما الذي جعل الأمور تتأزم إذن؟

– صحتها يا سيد هولمز، يبدو أنها تتدهور، وثمة شيء مريع في عقلها. إنها تصرخ قائلة «قتل!» «جريمة قتل!» وذات مرة سمعتها تصيح قائلة «إنك لوحش قاسٍ! أيها المتوحش!» كان ذلك في أثناء الليل حين رنت صيحتها في أرجاء النزل، وجعلتني أرتعد خوفًا؛ فذهبت إليها في الصباح وقلت لها: «سيدة روندر، إذا كان هناك أي شيء يتسبب في اضطراب روحك فالرهبان موجودون والشرطة كذلك، ويمكنك الاستعانة بأي منهما لمساعدتك».

فقالت: «بحق السماء، لا أريد الشرطة! والرهبان لا يمكنهم تغيير ما مضى. ومع ذلك فسوف ترتاح روحي لو عرف شخص ما الحقيقة قبل مماتي».

فقلت لها: «حسنًا، إذا كنتِ لا تودين الاستعانة بالشرطة أو الكهنة فيوجد هذا المحقق الذي قرأنا عنه» –أستميحك عذرًا يا سيد هولمز– فرحبت بالفكرة ترحيبًا كبيرًا وقالت: «هذا هو الرجل المناسب، أتعجب كيف لم أفكر في هذا الأمر قبل الآن، أحضريه إلى هنا يا سيدة ميريلو، وإذا رفض المجيء أخبريه بأنني زوجة روندر صاحب عرض الوحوش البرية. أخبريه بذلك، واذكري له اسم أباس بارفا» وقد كتبته بتلك الطريقة «أباس بارفا». وقالت: «أعتقد أن هذا سوف يأتي به إلى هنا لو كان هو الرجل الذي أفكر فيه».

فعلق هولمز قائلًا:

– وهو كذلك، هذا جيد جدًّا يا سيدة ميريلو، أود فقط التحدث مع دكتور واتسون قليلًا وسيمتد بنا الحديث إلى وقت الغداء، لذا يمكنك أن تتوقعي رؤيتنا في نحو الساعة الثالثة في نُزلك في بريكستون.

ولم تكد ضيفتنا تتهادى خارجةً من الغرفة –ولا يوجد وصف آخر أكثر دقة ليصف مشية السيدة ميريلو– حتى ألقى شيرلوك هولمز بنفسه بحماس شديد فوق كومة من سجلاته الخاصة في زاوية الغرفة، واستمر صوت حفيف الصفحات بضع دقائق، ومن ثم علت صيحة من الرضا تشير إلى أنه عثر عما كان يبحث عنه. كان متحمسًا للغاية لدرجة أنه لم ينهض، بل ظل جالسًا على الأرض متربعًا مثل تمثال بوذا تحيط به السجلات والكتب الهائلة من كل الجهات، وكان أحدهم مفتوحًا فوق ركبتيه.

– لقد أقلقتني هذه القضية وقت حدوثها يا واتسون، وها هي ذي ملاحظتي الهامشية تثبت هذا.

أعترف بأنني لم أستطع فعل شيء حيالها، لكنني كنت واثقًا من أن الطبيب الشرعي أخطأ التقدير. ألا تذكر مأساة أباس بارفا؟

– لا، مطلقًا يا هولمز.

– حتى أنت كنت معي حينذاك، لكن من المؤكد أن انطباعي عن القضية كان سطحيًّا للغاية، فلم يكن لدينا أي معلومات أو أدلة، ولم يطلب أي طرف فيها تدخلي، أتود قراءة أوراق القضية؟

– أيمكنك أن تقرأ لي النقاط المهمة؟

– هذا أمر سهل للغاية. ومن المحتمل أن تتذكر كل شيء وأنا أتحدث، كان روندر بالطبع اسمًا معروفًا وكان منافسًا لكل من ومبيل وسانجر وهما من أعظم الاستعراضيين في عصره، مع ذلك فثمة دليل على أنه قد بدأ يدمن الشراب، وأنه هو وعروضه قد انحدرا في المستوى وقت وقوع مأساته الكبرى. كان موكب فرقته قد توقف ليلًا في أباس بارفا، وهي قرية صغيرة في مقاطعة باركشاير، وقد وقع هذا الحدث المروع وقتما كانوا في طريقهم برًّا إلى ويمبلدون، كانوا فقط ينوون التخييم، ولم ينووا تقديم عروضٍ هناك، حيث إن المكان كان صغيرًا جدًّا ولن يعود عليهم بربح ذي بال.

وكان لديهم ضمن معروضاتهم أسد بربري رائع من شمال إفريقية، كان يلقب بملك الصحراء، وكان من عادة كلٍّ من روندر وزوجته أن يُقدما العروض من داخل قفصه. وكما ترى هنا في هذه الصورة الفوتوغرافية للعرض، أن روندر كان شخصًا ضخم البنية أشبه بالخنزير، وأن زوجته كانت امرأة

رائعة للغاية. هناك شهادة إثبات في التحقيق تُفيد بأن ثمة علامات تدل على خطورة هذا الأسد، لكن كالعادة فإن الألفة تجعل المرء يستهين بالخطر، لكن لا أحد ينتبه لهذه الحقيقة.

كان من المعتاد أن يطعم روندر أو زوجته الأسد ليلًا. أحيانًا كان يذهب أحدهما منفردًا ليطعمه، وأحيانًا أخرى يذهب كلاهما معًا، لكنهما لم يسمحا لأي شخص آخر بالقيام بذلك، فقد كانا يعتقدان أنهما ما داما يقدمان له الطعام؛ فسوف يعتبرهما من المحسنين ولن يؤذيهما أبدًا. وفي تلك الليلة بالتحديد، قبل سبع سنوات، ذهب الزوجان ليطعما الأسد فوقعت تلك الحادثة المروعة، لكن لم تُوضح أي تفاصيل تخصه قط.

ويبدو أن المخيم كله كان قد استيقظ قرب منتصف الليل على صوت زئير الأسد وصرخات المرأة، فهرع سائسو الحيوانات والعمال من خيامهم حاملين مصابيحهم التي كشفت أضواؤها مشهدًا مروعًا. كان روندر ممددًا على الأرض، وكان رأسه مهشمًا من الخلف وعليه آثار مخالب غائرة، كان ذلك على فروة رأسه على بعد عشر ياردات من القفص الذي كان مفتوحًا. وبالقرب من باب القفص كانت السيدة روندر ملقاة على ظهرها والأسد جاثم يزمجر فوقها، وقد مزق وجهها تمزيقًا لا يظن أحد أنها قد تعيش بعده. فتقدم بعض رجال السيرك بقيادة ليوناردو رجل ألعاب القوى وجريجس المهرج، وقادوا هذا المخلوق الشرس بعيدًا باستخدام عِصِيٍّ طويلة، حيث وثب من فوقها متراجعًا حتى دخل إلى القفص فحبسوه على الفور. أما كيف أُطلق سراحه فقد ظل هذا لغزًا. لقد خمَّن الناس أن الزوجين كانا ينويان دخول القفص وعندما انفتح الباب هجم عليهما ذلك المخلوق الشرس. لم يكن هناك ما يستحق الذكر في أقوال الشهود، باستثناء أن المرأة كانت تصرخ من هذيان الألم قائلة: «جبان! جبان!» بينما كانوا ينقلونها إلى العربة التي كانا يعيشان فيها. ومرت ستة أشهر إلى أن أصبحت قادرة على الإدلاء بشاهدتها، وأُجري التحقيق كما ينبغي وصدر الحكم بأن الحادثة كانت قضاءً وقدرًا.

فقلت:

– وما البديل الآخر الذي يمكن تصوره؟

– يمكنك أن تشك في أنه ليس هناك بديل آخر، لكن كانت هناك نقطة أو اثنتان أثارتا قلق المحقق الشاب إدموندز في شرطة باركشاير –كان ذلك الفتى ذكيًّا! – والذي أُرسل بعد ذلك إلى مدينة آباد في الهند ومن هنا جاءت معرفتي بالواقعة، حيث جاء في زيارة قصيرة غير متوقعة ودخن غليونًا أو اثنين وهو يتحدث عن الموضوع.

– أتقصد ذلك الرجل النحيل أصفر الشعر؟

– نعم، كنت متأكدًا أنك ستلتقط الخيط سريعًا.

– لكن ما الذي أقلقه؟

– حسنًا، لقد كان كلانا قلقًا، وكان من الصعب للغاية إعادة النظر في هذه القضايا ومحاولة تكوين صورة كاملة عنها. فلو نظرت إليها من وجهة نظر الأسد، فقد أصبح حرًّا، فماذا من المفترض أن يفعل؟ لقد وثب ست وثبات للأمام فأصبح أمام روندر الذي استدار هاربًا، ولهذا ظهرت آثار للمخالب على رأسه من الخلف، لكن الأسد طرحه أرضًا وقضى عليه قبل أن ينجح في الوثوب والهرب. ثم عاد إلى المرأة

التي كانت قريبة من القفص وأسقطها على الأرض وشوه وجهها، ثم مرة ثانية ترددت صرخاتها التي توحي ضمنيًّا بأن زوجها قد خذلها بطريقة ما. ماذا كان عساه أن يفعل هذا المسكين لمساعدتها؟ أترى صعوبة الموقف؟

– نعم، على نحو واضح.

– ثم إن هناك شيئًا آخر خطر على بالي الآن فيما أفكر في الموضوع، لقد كانت هناك بعض الأدلة على أن الرجل لم يبدأ في الصراخ بذعر إلا في الوقت نفسه الذي زأر فيه الأسد وصرخت فيه المرأة.

– هذا الرجل هو روندر بلا شك.

– حسنًا، لو كانت جمجمته قد تهشمت، فلن يكون من المحتمل أن يُسمع صوته مرة أخرى. فثمة شاهدان على الأقل تحدثا عن اختلاط صوت صراخات رجل وامرأة.

– أعتقد أن المخيم كله كان يصرخ في ذلك الحين. أما عن النقاط الأخرى فأعتقد أن بإمكاني أن أقترح تفسيرًا لها.

– سأكون سعيدًا بسماعه.

– كان الاثنان معًا على بعد عشر ياردات من القفص عندما تحرر الأسد، ثم استدار الرجل وطُرح أرضًا، وفكرت المرأة في الدخول إلى القفص وإغلاق الباب؛ حيث كان ملجأها الوحيد، فاتجهت إليه وما إن وصلت حتى وثب الوحش وراءها وأسقطها على الأرض، وقد كانت غاضبة من زوجها لأنه أثار غضب الوحش عندما استدار محاولًا الهرب، فلو كانا واجها الأسد لكان من المحتمل أن يخيفاه، ولهذا كانت تصرخ قائلة: «جبان!»

– عبقري يا واتسون! هناك هفوة واحد تشوب تفسيرك الثمين.

– وما هذه الهفوة يا هولمز؟

– لو أن الاثنين كانا على بعد عشر خطوات من القفص، فكيف تحرر الوحش من قفصه؟

– أليس من المحتمل أن يكون لهما عدو ما وهو الذي أطلق سراحه؟

– ولماذا يهاجمهما بتلك الشراسة بعدما كان معتادًا اللعب وأداء الحيل معهما داخل القفص؟

– من المحتمل أن يكون هذا العدو قد فعل شيئًا لإثارة غضبه.

بدا أن هولمز يفكر بعمق وظل صامتًا للحظات.

– حسنًا يا واتسون، هناك ما يمكن أن يقال تأييدًا لنظريتك، فقد كان لروندر أعداء كثيرون، وأخبرني إدمونز بأن روندر يصير فظًّا عندما يسكر. كان رجلًا متنمرًا ضخمًا، وكان يسب ويجرح كل من يعترض طريقه. أعتقد أن تلك الصرخات التي ذُكر فيها الوحش التي تحدثت عنها ضيفتنا كانت ذكريات ليلية للعزيز الراحل. ومع ذلك فإن تكهناتنا لا طائل منها ما دمنا لم نلِم بجميع الحقائق. يوجد حجل بارد على الخوان يا واتسون، وزجاجة من نبيذ المونتراشيه أيضًا. دعنا نجدد طاقاتنا قبل أن نزورهم من جديد.

وعندما أوصلتنا عربتنا إلى منزل السيدة ميريلو وجدنا تلك السيدة البدينة تسد بجسدها الممتلئ الباب المفتوح لنُزلها المتواضع المنعزل. كان من الواضح للغاية أن شغلها الشاغل هو الخوف من أن تفقد نزيلة ثرية كهذه؛ لذا توسلت إلينا قبل أن توصلنا إلى النزيلة ألا نقول أو نفعل شيئًا من الممكن أن يؤدي إلى نهاية غير مرغوبة. لكن بعد أن طَمأنَّاها، تبعناها صعودًا على الدرج المستقيم المفروش بسجاد رديء حتى دخلنا إلى غرفة النزيلة الغامضة.

كان المكان مغلقًا كريه الرائحة وسيئ التهوية كما هو متوقع، لأن ساكنة الغرفة نادرًا ما كانت تغادرها. وبدا وكأنه انتقام القدر، فبعد أن كانت هذه المرأة تقوم بحبس الوحوش في أقفاص، صارت هي نفسها وحشًا حبيسًا داخل قفص. جلست في تلك اللحظة على كرسي مكسور في زاوية مظلمة من الغرفة، وقد أفسدت سنوات الخمول الطويلة وقلة العمل قوامها، الذي لا شك أنه كان جميلًا في السابق، إذ كان لا يزال ممتلئًا ومثيرًا، وكان وجهها مغطى بلثام داكن اللون يصل إلى شفتها العليا، كاشفًا عن فم مثالي الشكل وذقن رقيق الاستدارة، كان بإمكاني تخيل كيف كانت امرأة رائعة الجمال، حتى إن صوتها كذلك كان عذبًا وممتعًا. قالت:

– اسمي ليس غريبًا عليك يا سيد هولمز، أعتقد أنه هو الذي جاء بك إلى هنا.

– هذا صحيح يا سيدتي، وإن كنت لا أعرف كيف عرفتِ بأنني كنت مهتمًّا بقضيتك.

– علمتُ بذلك حين استعدتُ صحتي وخضعتُ للتحقيق على يد السيد إدموندز، محقق المقاطعة، وأخشى أنني قد كذبت عليه، ربما كان من الأكثر حكمة لو قلت الحقيقة.

– عادة ما يكون من الحكمة أن نقول الحقيقة. لكن لماذا كذبتِ عليه؟

– لأن مصير شخص آخر كان يتوقف على أقوالي، أعرف أنه شخص لا قيمة له، لكن ضميري لم يسمح لي بأن أكون السبب في هلاكه. لقد كنا مقربين؛ أعني مقربين جدًّا.

– لكن هل زال هذا المانع؟

– نعم يا سيدي، إن الشخص الذي أشرت إليه قد توفي.

– إذن لماذا لم تخبري الشرطة بما تعرفينه؟

– لأن ثمة شخصًا آخر يجب أن أضعه في الحسبان، وهذا الشخص هو نفسي، فأنا لا أستطيع تحمُّل الفضيحة والتشهير اللذين قد يترتبان على تحقيق الشرطة، لم يتبقَ في عمري الكثير لأعيشه، إلا أنني أتمنى الموت في هدوء. ومع كل ذلك فقد أردتُ أن أجد رجلًا عادلًا واحدًا يمكنني أن أروي له قصتي المروعة، حتى يتضح كل شيء عندما أموت.

– إنك تقومين بإطرائي يا سيدتي، لكنني في الوقت نفسه شخص مسؤول، ولن أعدك بأنك حين تتحدثين إليَّ لن أفكر فيما يتوجب عليَّ من إحالة القضية إلى الشرطة.

– لا أعتقد ذلك يا سيد هولمز، أعرف شخصيتك وأساليبك جيدًا جدًّا، لأنني تابعتُ عملك لعدة سنوات. فالقراءة هي المتعة الوحيدة التي تركها لي القدر، ولا يفوتني سوى القليل مما يحدث في العالم، لكن على أي حال، سأغتنم الفرصة للاستفادة من مأساتي، وسوف يرتاح بالي حين أبوح بما حدث.

– سأكون أنا وصديقي مسرورين لسماعها.

نهضت المرأة وأخرجت صورة رجل من أحد الأدراج، من الواضح أنه كان بهلوانًا محترفًا، فقد كان رجلًا يتمتع ببنية جسدية رائعة، وذراعاه المفتولتان منطويتان على صدره المنتفخ مع ابتسامة تظهر من تحت شاربه الكثيف، ابتسامة الثقة بالنفس التي ترتسم على وجه رجل ذي انتصارات عدة. قالت:

– هذا هو ليوناردو.

– ليوناردو رجل ألعاب القوى! الذي أدلى بشهادته؟

– نعم إنه هو، أما هذا فهو زوجي.

كان وجهه بغيضًا، خنزير بشري، أو بالأحرى خنزير بري بشري، لأن بهيمية الخنازير البرية أعظم، يمكن للمرء أن يتخيل ذلك الفم القذر وهو يكز على أسنانه ويسيل لعابه غضبًا، ويمكنه أيضًا أن يتصور هاتين العينين الضيقتين المليئتين شرًّا وهما تقذفان الحقد كلما نظرتا إلى العالم. همجي، متنمر، وضيع؛ كان هذا كله مكتوب على ذلك الوجه ذي الفك العريض.

– هاتان الصورتان ستساعدكما على فهم القصة أيها السيدان. لقد كنتُ فتاة سيرك فقيرة نشأت وترعرعت فوق نشارة الخشب التي تملأ ساحته، وكنت أمارس القفز على الأطواق قبل العاشرة من عمري، ولما كبرت وصرتُ امرأة، أحبني هذا الرجل، هذا إذا استطعنا أن نسمي شهوته تجاهي حبًّا، وفي لحظة مشؤومة صرتُ زوجته. ومنذ ذلك اليوم وأنا أعيش في جحيم، وكان هو الشيطان الذي عذبني. لم يكن هناك أحد لا يعرف أسلوبه في المعاملة. وقد هجرني من أجل الأخريات، وما كان منه حين شكوته إلا أن قيدني وجلدني بسوطه. لقد كانوا جميعًا يشفقون على حالي ويبغضونه، لكن ماذا عساهم أن يفعلوا؟ كانوا يخافون منه جميعهم. فقد كان طبعه فظيعًا في جميع الأوقات، وكان يتحول إلى سفاح حينما يكون ثملًا. وقد أُلقي القبض عليه مرارًا وتكرارًا بتهمة الاعتداء، وبتهمة القسوة على الحيوانات، لكنه كان يملك الكثير من المال فالغرامات لا تمثِّل له شيئًا. تركَنا أفضل الرجال وغادروا، وبدأ مستوى العرض في الانحدار. لم يبق غيري أنا وليوناردو فقط مع المهرج القزم جيمي جريجز، من استمروا في تقديم العروض. ذلك المسكين، لم يكن لديه الكثير ليقدمه مما يضحك الجمهور، لكنه كان يفعل ما بوسعه لضبط الأمور قدر الإمكان.

ثم اقترب ليوناردو من حياتي أكثر وأكثر، إنك تعرف كيف كان مظهره، لكنني بتُّ أعرف الآن تلك الروح المسكينة التي كانت مُخبّأة في ذلك الجسد الرائع. فبالمقارنة مع زوجي بدا ليوناردو كالملاك. لقد أشفق عليَّ وساعدني حتى تحوَّلَت صداقتنا الحميمية إلى حُب؛ حب عميق ومُتَّقد، كهذا الحب الذي حلمت به ولم أكن لأحلم أن أعيشه قط. وقد شك زوجي في الأمر، لكنني أعتقد أنه كان جبانًا بقدر ما كان مستبدًّا، وكنت أعتقد أيضًا أن ليوناردو هو الرجل الوحيد الذي يخافه، لذا انتقم بطريقته الخاصة، فصار يُعذبني أكثر من أي وقت مضى. وذات ليلة جاءت صرخاتي بليوناردو حتى باب شاحنتنا. كنا على حافة حدوث مأساة في تلك الليلة، وسرعان ما أدركتُ أنا وحبيبي أننا لن نستطيع تفاديها. لم يكن زوجي يستحق البقاء على قيد الحياة، لذا خططنا لقتله.

كان لليوناردو عقل ذكي ماكر، فقام بالتخطيط وحده. وأنا لا أقول هذا لألقي اللوم عليه، فقد كنت على استعداد لأن أسير معه كل شبر في هذا الطريق، لكن لم يكن لدي الذكاء الكافي للتفكير في خطة كهذه. صنعنا هراوة –كان ليوناردو من صنعها وثبت خمسة مسامير معدنية في طرفها وجعل رؤوسها المدببة للخارج، كما جعلها في نفس ترتيب مخالب الأسد، وكان ذلك من أجل أن نضرب زوجي بها ضربة قاتلة، فيبدو الأمر كما لو أن الأسد الذي خطط لتحريره هو الذي فعلها.

كانت ليلة حالكة السواد –تلك التي ذهبتُ فيها مع زوجي لنطعم الأسد كما جرت العادة– حملنا معنا اللحم النيئ في دلو من الزنك، وكان ليوناردو ينتظر مختبئًا عند زاوية الشاحنة الكبيرة التي كان مفترضًا أن نمر بها حتى نصل إلى القفص. كان بطيئًا جدًّا وقد تخطيناه قبل أن يصبح قادرًا على المهاجمة، لكنه تبعنا مشيًا على أطراف أصابعه، ومن ثم سمعتُ صوت الهراوة تهشم جمجمة زوجي، فقفز قلبي فرحًا لسماع هذا الصوت. وثبت إلى الأمام وفتحت المزلاج الذي كان يحكم غلق باب قفص الأسد الكبير. ومن ثم حدثت الفاجعة، ربما تكون قد سمعت عن مدى سرعة هذه المخلوقات في التعرف على رائحة الدم، وكيف تثيرهم. لذا أخبرته غريزته على الفور بأن إنسانًا قد أريق دمه. وبمجرد أن فتح المزلاج قفز الأسد خارجًا وصار فوقي في اللحظة نفسها. وكان بإمكان ليوناردو أن ينقذني لو أنه هرع تجاهي وضرب الأسد بهراوته، كان من الممكن أن يخيفه، لكن الرجل فقد أعصابه، إذ سمعته يصرخ في ذعر، ثم رأيته وهو يولِّي هاربًا. في ذات اللحظة غرز الأسد أسنانه في وجهي، غير أن أنفاسه الساخنة القذرة كانت قد سممتني بالفعل، ولم أكد أشعر بالألم. حاولت أن أدفع بيدي فكيه الكبيرين الملطخين بالدماء بعيدًا عني وصرخت طلبًا للنجدة، فشعرت بالحركة تضطرب في أرجاء المعسكر، ثم بالكاد انتبهتُ لوجود مجموعة من الرجال. كان ليوناردو وجريجز وغيرهم يسحبونني من تحت مخالب الأسد، وهذا آخر ما كنتُ أستطيع تذكُّره يا سيد هولمز على مدى أشهر عدة منهِكة. وعندما استعدتُ وعيي ورأيتُ نفسي في المرآة، لعنتُ ذلك الأسد –آه كم لعنته!– ليس لأنه أخذ جمال وجهي، بل لأنه لم يأخذ حياتي. لم يبقَ لي سوى رغبة واحدة يا سيد هولمز، وكنت أملك ما يكفي من المال لتحقيقها؛ أن أغطي وجهي البائس فلا يراه أحد، وأن أسكن حيث لا يعثر عليَّ أي شخص كان يعرفني في السابق. هذا كل ما كان باستطاعتي أن أفعله، وهو ما فعلته. مخلوق جريح مسكين يزحف إلى جحره في انتظار الموت، هذه هي نهاية يوجينيا روندر.

جلسنا صامتين لبعض الوقت بعد أن روت المرأة التعيسة قصتها، ثم مد هولمز ذراعه الطويلة وربت على يدها، مُظهرًا قدرًا من التعاطف لم يكن يظهره إلا نادرًا، وقال:

– فتاة مسكينة! فتاة مسكينة! إنه لمن الصعب حقًّا فهم أحكام القدر. فلو لم يكن هناك نوع من التعويض في الحياة الأخرى لكان العالم مزحة قاسية. لكن ماذا عن هذا الرجل ليوناردو؟ ماذا حدث له؟

– لم أره أبدًا ولم أسمع عنه ثانية. ربما كنت مخطئة في شعوري بالغضب الشديد تجاهه. وربما أحبَّ واحدةً على الفور من هؤلاء المسوخ اللواتي حملناهن معنا في أثناء جولاتنا في البلاد، الشبيهات بذلك الشيء الذي تركه الأسد. لكن المرأة لا تتخلى عن حبها بهذه سهولة. ومع أنه قد تركني تحت مخالب

الأسد وتخلى عني في وقت حاجتي، إلا أنني لم أستطع تسليمه لحبل المشنقة. أما أنا فلم أكترث بما سيحدث لي، فما الذي يمكن أن يكون مروعًا أكثر مما وقع لي في حياتي؟ لكنني حلتُ بين ليوناردو ومصيره المقدر.

– هل مات؟

– لقد غرق في الشهر الماضي عندما كان يستحم بالقرب من مدينة مارجيت. قرأت خبر موته في الصحف.

– وماذا فعل بتلك الهراوة ذات المخالب الخمسة، والتي هي أغرب وأبرع جزء في قصتك كلها؟

– لا أعرف يا سيد هولمز، هنالك منجم طباشير بجوار المخيم، وتوجد بركة خضراء عميقة في قاعدته، ربما تكون في أعماق تلك البركة.

– حسنًا، حسنًا، لم تعد لها أهمية كبيرة الآن. لقد أُغلقت القضية.

فقالت المرأة:

– نعم، لقد أُغلقت القضية.

كنا قد نهضنا للذهاب، لكن شيئًا ما في صوت المرأة لفت انتباه هولمز، فاستدار إليها فورًا وقال:

– حياتك ليست ملكك، لا تحجبيها عن الناس بيديك.

– وما فائدة حياتي للآخرين؟

– وما أدراكِ؟ إن مثالًا للصبر على المعاناة هو في حد ذاته أثمن الدروس في عالم لا يعرف الصبر.

كان رد المرأة مفزعًا، فقد أزالت اللثام عن وجهها وتقدمت تجاه الضوء، وقالت:

– لا أعرف إن كنت ستتحمل رؤيته.

كان منظر وجهها مريعًا. لا توجد كلمات من الممكن أن تصف هيئة وجه غير موجود. ولم تزد عيناها البنيَّتان الجميلتان المفعمتان بالحياة اللتان تنظران بحزن من بين هذا الخراب المروع على أن جعلتا المنظر أكثر رعبًا. رفع هولمز يده بإيماءة تدل على الشفقة والاستياء، ثم غادرنا الغرفة معًا.

وبعد مرور يومين، عندما ذهبت لزيارة صديقي، أشار بشيء من الفخر إلى زجاجة زرقاء صغيرة على رف الموقد الخاص به، فالتقطتُها وكان عليها ملصق مكتوب عليه «سم أحمر». وعندما فتحتها فاحت منها رائحة لطيفة تشبه رائحة زيت اللوز. فقلتُ:

– أهذا حمض البروسيك[13]؟

– أجل، لقد أُرسل عن طريق البريد. وكان معه رسالة مكتوب فيها: «أرسلت إليك بذلك الشيء الذي كان يغريني. سوف أتبع نصيحتك». أعتقد أن بإمكاننا تخمين اسم المرأة الشجاعة التي أرسلتها يا واتسون.

مادة عالية السمية.

قضية شوسكوم أولد بليس

كان شيرلوك هولمز منكفئًا على مجهر منخفض الطاقة لمدة طويلة، قبل أن يستدير محدّقًا إليَّ بفخر قائلًا:

– إنه صمغ يا واتسون. بلا أي جدل، إنه صمغ. ألقِ نظرة على هذه الأشياء المبعثرة تحت المجهر.

توقفتُ عند موضع العين، وركّزتُ على الرؤية، هذه الشعيرات هي خيوط معطف صوفي، وهذه الفوضى الرمادية عبارة عن غبار، وهناك بعض المساحات الظِهارية على اليسار، وهذه البقعة البنّية في المنتصف، هذه بلا شك هي الصمغ المقصود. فقلتُ ضاحكًا:

– حسنًا، أنا متأهب لسماع تحليلك، هل أوحى لك الصمغ بشيء ما؟

«يا له من عرض عظيم» قالها شيرلوك ثم أردف:

– بالطبع تتذكر قضية شارع بانكرس، عندما وجِدت القُبّعة بجوار رجل الشرطة المقتول، فأنكر المتّهم أن هذه القُبّعة تخصّه، لكنّه يعمل صانعًا لإطارات الصور، وكثيرًا ما يتعامل مع الصمغ.

فقلتُ:

– هل هي إحدى قضاياك؟

– لا، بل إن صديقي ميريفيل من سكوتلاند يارد، دعاني لأنظر في القضية.

ثم نظر شيرلوك بنفاد صبر إلى ساعته وقال:

– لديّ عميل آخر قد اتصل بي، لكنّه متأخر عن موعده، بالمناسبة يا واتسون، هل تعرف شيئًا عن سباقات الخيل؟

قلتُ:

– بالتأكيد، فقد أنفقت تقريبًا نصف معاش إصابتي من أجله.

– حسنًا، سأجعلك مرشدي للفوز بهذا السباق، ماذا عن السيد روبرت نوربيرتون، هل ذكّرك هذا الاسم بشيء؟

– ربما عليَّ القول إنه يعيش في ضيعة شوسكوم أولد بليس، وإنني أعرفه جيدًا، حيث إنني قضيت هناك بضعة أشهر ذات صيف، وربما كان على نوربيرتون أن يقع في طريقك ذات مرّة.

– وكيف ذلك؟

– عندما جَلَد سام بريوير بسوط الحصان، وهو مُقرِض الأموال المعروف في شارع كورزون، في مرج نيوماركت هيث، لقد كاد أن يقتل الرجل.

– آها، يبدو الرجل مدهشًا، وهل من عاداته أن يتصرف بهذه الطريقة للترفيه؟

– حسنًا، لطالما حاوطته سمعة أنه رجلٌ خَطِرٌ، إنه يُعَد من أشرس المتسابقين المتهورين في عموم إنجلترا، كما أنه حلّ ثانيًا في سباق «الجراند ناشيونال» منذ بضع سنوات، كان واحدًا من المتميزين في جيله حقًّا، كما يبدو أنه كان شابًّا مرفّهًا في أيام الوصاية على العرش، وكان ملاكمًا، ورياضيًّا، ومنغمسًا بالكلّية في سباقات الخيل، وعاشقًا للسيدات الجميلات، والجميع يقولون عنه أنه غارق في الديون إلى الحدّ الذي لا يمكن معه تصحيح الأحوال مرّة أخرى.

– عظيم، يا واتسون، وكأنني أعرف الرجل منذ فترة. هلّا زودّتني بقليل من المعلومات عن ضيعة شوسكوم أولد بليس؟

– كل ما أعرفه إنها تتوسط منتزه شوسكوم، كما إنها تحوي أشهر الإسطبلات وحلبات التدريب هناك.

قال شيرلوك:

– وكبير المدربين هو جون ماسون. ربما عليك ألا تتفاجأ بمعرفتي يا واتسون، لأنه أرسل إليَّ هذه الرسالة التي أنا بصدد قراءتها. على كل حال، دعنا نتحدث عن شوسكوم، فقد حصلت على معلومات ثمينة للغاية. يوجد كلاب السبانيل الصغيرة في شوسكوم، ربما تسمع عنهم في عرض يتحدث عن الكلاب. كما إنها السلالة الأكثر حصرية في إنجلترا. إنها مصدر الفخر المميز لليدي شوسكوم أولد بليس.

– زوجة السيد روبرت نوربيرتون، على ما أظن؟

– السيد روبرت لم يسبق له أن تزوج قط، وهذا منطقي بالنسبة إلى تطلعاته. إنه يعيش بمصاحبة أخته الأرملة، الليدي بياتريس فالدر.

– هل تقصد أنها من تعيش معه؟

– لا، لا، فالمنزل يخص زوج أخته المُتوفَّى، السيد جايمس، كما أن السيد نوربيرتون لا يمكنه التحصّل عليه بأي شكل، فإن هذا المنزل كوَقْفٍ للانتفاع طيلة حياة الزوجة، ومن بعدها يعود لملكية شقيق السيد جايمس. وخلال هذه الفترة فإنها تتلقى الإيجارات كل عام.

– والسيد روبرت، أفترض أنه يستحوذ على تلك الإيجارات التي تتحدث عنها؟

– هذا صحيح بالطبع، إنه شخصٌ جشع، وبكل تأكيد يقود شقيقته لحياة غير سعيدة، وحتى هذه اللحظة أسمع أنها مخلصة له بالكلية، لكن ما الذي يجري في شوسكوم؟

– آها، هذا بالضبط ما كنت في حاجة لمعرفته. كما أنني أتوقع أن هذا هو الرجل الذي بإمكانه أن يخبرنا بما نريد...

انفتح الباب، كاشفًا عن رجل طويل حليق اللحية، على وجهه أمارات صارمة لا تكاد تظهر إلا على وجوه أولئك الذين عليهم السيطرة على الخيول أو الصِبية، وقد كان للسيد جون ماسون العديد من كليهما (الخيول والصِبية) تحت سطوته. انحنى الرجل بهدوء وجلس على المقعد الخاص به، حيث لوّح له شيرلوك.

– تلقيتَ رسالتي يا سيد هولمز؟

قال شيرلوك:

– نعم، ولكنها لا تشرح كل شيء.

– إنها لمهمة شاقة للغاية أن تضع كل هذه التفاصيل على ورقة، كما أنها معقدة أيضًا، ربما تستوجب محادثة وجهًا لوجه لفعلها.

قال شيرلوك:

– بكل تأكيد، وها نحن أولاء أمامك.

– أول شيء على الإطلاق يا سيد هولمز، إنني أظن أن ربّ عملي السيد روبرت، قد جُنّ جنونه.

رفع شيرلوك حاجبيه عجبًا، وقال:

– هذا هو شارع بيكر، وليس شارع هارلي[14].

ثم أردف:

– نعم، لكن لماذا تقول هذا؟

– حسنًا يا سيدي، عندما يتصرّف شخصٌ ما بشكل غريب، مرّة أو مرّتين، فربما يكون هذا مفهومًا بعض الشيء، لكن عندما تكون كل تصرّفاته غريبة للغاية، عندها عليك أن تتعجب! أعتقد أن شوسكوم برنس وسباق الديربي كان لهما أثرٌ كبيرٌ على تغيُّب عقله.

– هل هذا هو المُهر الذي تدرّبه؟

– إنه الأفضل على الإطلاق في إنجلترا يا سيد هولمز، وأنا خير من يعرف هذا، والآن سأكون صريحًا معكما، لعلمي أنكما من الشرفاء، وكذلك لعلمي أن أيًّا ما سيتم قوله، لن يتجاوز هذه الجدران. لا مناص للسيد روبرت إلا أن يفوز بسباق الديربي، إنه غارق في الديون، وهذه فرصته الأخيرة، كل ما تمكّن من جمعه أو اقتراضه من المال، مرهون برأس هذا المُهر؛ وكذا لا نغفل الحظ الطيب، إن المراهنة على فوزه في الوقت الراهن أقل مما كانت عليه حين بدأ يدعمه.

– ولكن ألم تقل إن المُهر هو الأفضل؟

– النّاس لا يعرفون ما قلته يا سيدي، وهذا لأن السيد روبرت خبير بشأن جواسيس السباقات، فكان يُخرج أخا المُهر برنس، لتدريبات الدوران، وهو يشبهه للغاية حتى لا يمكنك التفريق بينهما من حيث المظهر، ولكن يوجد فارق نحو 220 ياردة بينهما في أثناء العَدْو. كما أنه لا يفكّر في أي شيء سوى السباق أو المُهر، فحياته برمّتها مرهونة بهذا الشأن، وقد جعل مقرضيه من اليهود يصبرون إلى حين السباق، فإن خذله برنس، فقد خربت حياته وانتهى أمره.

– إنها تبدو كمراهنة يائسة، ولكن أين الجنون فيما قُلت؟

– حسنًا، أول شيء عليك فعله أن تنظر إليه. لا أظن أنه ينام في الليل، فهو لا يغادر الإسطبلات طوال الوقت، كما أن اضطراباته كلها تظهر على وجهه، أقول إن الأمر كله يفوق قدرة أعصابه على الاحتمال، ثم فوق هذا وذاك، أسلوب تعامله مع الليدي بياتريس.

– آها، وكيف هذا؟

– لقد اعتادا دائمًا أن يكونا الصديقَيْن الأفضل لبعضهما بعضًا، فلديهما الذوق نفسه، كما أنها تعشق الخيل، كما يعشقهما بالضبط، وقد كانت كل يوم في مثل تلك الساعة تقود عربتها لعيادة الإسطبل لترى الخيول، كما أن المُهر برنس كان اختيارها الأول، كانت أذناه تنتصبان بمجرد سماع ضجيج العجلات فوق الحصى، كما إنه يعدو بمرح إلى العربة ليحصل على مكعبه الخاص من السكر، ولكن كل هذا أصبحَ شيئًا من الماضي الآن؟

– لِمَ؟

– في حقيقة الأمر، لقد بدت وكأنها فقدت كل اهتماماتها بالخيل، وظلّت لأسبوع تمرّ بجوار الإسطبلات ولا تلقي التحيّة.

– هل تعتقد أنه حدث شجار ما؟

– ليس مجرد شجار، بل كان شجارًا حادًّا وعنيفًا على الأرجح، وإلا بم تفسر تخلّيه عن كلبها السبانيل الذي أحبّته وكأنه ابنها؟ فقد تنازل عنه منذ أيام للعجوز بارنز صاحب حانة جرين دراجون، التي تبعد ثلاثة أميال عن بلدة كريندال.

– هذا وبكل تأكيد يبدو شيئًا غريبًا للغاية.

– بالطبع مع طيبة قلبها، وكذا داء الاستسقاء الذي تعاني منه، حيث لم يتوقع أحدٌ أن لها نصيبًا من الشفاء منه، السيد روبرت كان يقضي معها ساعتين في غرفتها كل مساء، كان ليفعل لها أي شيء تريده ليسعدها، حيث كانت له بمنزلة صديق نادر، لكن هذا كان في الماضي، فهو الآن لا يقرب غرفتها مهما حدث، وهذا يجعلها في أسوأ حالاتها النفسية، أصابها الاكتئاب وعاقرت الخمر يا سيد هولمز، عاقرته بشكل مريع.

– وهل كانت تشرب بتلك الشراهة من قبل هذا الجفاء؟

– حسنًا، اعتادت أن تشرب كأسًا واحدةً ليلًا، أمّا الآن فهي تشرب قرابة زجاجة كاملة في الليلة، هذا حسب كلام ستيفينز كبير الخدم، لقد تغيّر كل شيء يا سيد هولمز، كما أن هناك شيئًا فاسدًا ملعونًا في الأمر، ما الذي كان يفعله السيد قرابة قبو الكنيسة القديمة ليلًا؟ ومن هو ذلك الرجل الذي قابله هناك؟

فرك شيرلوك يديه فيما يقول:

– أكمِل يا سيد ماسون، فقد بدأت تتدفق الحكايا.

– كبير الخدم هو مَن رآه ذاهبًا عند منتصف الليل، وقد كان الطقس سيئًا حيث كانت تمطر بغزارة، وهكذا في الليلة التالية، كنت في المنزل متيقّظًا فيما غادر السيد مرّة أخرى بكل تأكيد، فذهبت أنا وستيفينز نقتفي أثره، وقد كانت مَهمة مرهقة للأعصاب، كانت لتفشل إن رآنا، فهو رجل شرير للغاية إذا ما بدأ باللكم، كما إنه لا يُكِنُّ احترامًا لأحد على الإطلاق، لذا اتخذنا من الحذر ما يكفي لئلا نكون قريبين أكثر من اللازم، لكننا تتبعناه سرًّا حين كان متجهًا ناحية القبو المسكون، فيما وجدنا رجلًا في انتظاره هناك.

– وما ذلك القبو المسكون؟

– حسنًا يا سيدي، هناك كنيسة قديمة متهدّمة تقبع بالحديقة، وهي قديمة لتلك الدرجة التي يستحيل معها أن يثبت أحدهم وقت إنشائها، وبأسفلها قبو له سمعة سيئة فيما بيننا، إنه مظلم، وعفن، وموحش للغاية في أثناء النهار، وهناك قلّة قليلة في عموم تلك المقاطعة من يمكنهم الاقتراب منه ليلًا، وأنا أعلم أن سيدي لا يشعر بالخوف، فهو لم يعرفه طوال حياته، ولكن ما الذي دفع به إلى هناك ليلًا؟

«انتظر، انتظر». قالها هولمز، ثم أكمَل:

– تقول إنه يقابل شخصًا ما؟ لا بد وأنه أحد السُّيّاس الخاصين بك، أو شخص ما من المنزل، بكل تأكيد عليك أن تتبعه وتسأله.

– إنه ليس من معارفي قط.

– ما الذي يجعلك متأكدًا؟

– لأنني رأيته، يا سيد هولمز، هذا كان في الليلة الثانية، حين استدار السيد روبرت ومرّ دون أن يرانا، حيث كنّا نرتعش ونتخفّى مثل الأرانب، وكان بوسعنا أن نرى الآخر يتحرك هنا وهناك تحت ضوء القمر الخافت لهذه الليلة، وبطبيعة الأمر لم نكن خائفين منه، فاستطعنا النهوض من مكاننا، وافتعلنا أننا نتنزه تحت ضوء القمر، وبذلك مررنا بالقرب منه بطريقة بريئة للغاية، وكأننا التقيناه عن طريق الصدفة، فقلتُ له: (مرحبًا يا صديقي، من تكون؟) وأعتقد أنه لم يكن قد سمعنا ونحن نقترب، لذا نظر خلفه بهلع، وكأنه قد رأى الشيطان يخرج من جحيمه، فصاح صيحة خوف، وجرى بقدر ما في إمكانه أن يجري في الظلام، وقد كان بارعًا في ذلك، أشهد بشرفي، في غضون دقيقة واحدة، كان خارج مرمى البصر، مَن كان هو؟ ما كان هو؟ هذا بالتحديد ما لم يمكننا اكتشافه.

– لكنك رأيته بوضوح تحت ضوء القمر، صحيح؟

– نعم، يمكنني أن أقسم أن وجهه كان شاحبًا، يمكنني وصفه أنه كلبٌ حقير، ما الذي قد يجمع بينه وبين السيد روبرت؟

جلس شيرلوك هائمًا في فكره لبعض الوقت، ثم سأل أخيرًا:

– ومَن يجلس برفقة الليدي بياتريس؟

– هناك خادمتها، كاري إيفانس. لطالما كانت برفقتها لمدة 5 أعوام.

– وهل هناك أي شكٍ في إخلاصها؟

تململ السيد ماسون وكأنه لا يشعر بالراحة ثم قال أخيرًا:

– إنها مخلصةٌ بما يكفي.

ثم أردف:

– لكنني لن أقول مخلصة لمن؟

قال شيرلوك:

– أووه.

– لا يمكنني إفشاء تلك الأسرار الخاصة.

– أكاد أفهم بوضوح يا سيد ماسون، بالطبع الموقف جليٌّ للغاية، وبناءً على وصف الدكتور واتسون، للسيد روبرت، فإن أيَّ امرأة ليست في مأمن منه، ألا تعتقد أنه يمكن أن يكون هذا الأمر هو مكمن الخلاف بين الشقيقين؟

– حسنًا، الفضيحة كانت واضحة بما يكفي لوقت طويل.

– لكن ربما لم ترَ شقيقته شيئًا من قبل، دعنا نتخيل أنها اكتشفت هذه الفضيحة فجأة وقررت إبعاد المرأة، فبالتأكيد لن يسمح شقيقها بذلك. وبناءً على مرض السيدة وعلّة قلبها، فإنها لا يمكنها أن تبسط إرادتها وخادمتها المقيتة لصيقة بها إلى هذا الحد.

فترفض الليدي الكلام، ويصيبها الاكتئاب، وتعاقر الخمر، فيأخذ السيد روبرت في ذروة غضبه كلبها السبانيل المحبب بعيدًا عنها، ألا يبدو كل هذا منطقيًّا؟

– حسنًا، يمكننا أن نقول إن هذا التفسير منطقيٌّ إلى حدٍّ ما.

– بالضبط، إلى حدٍّ ما، فكيف لكل هذا أن يتّسق تمامًا مع زياراته المتكررة للقبو المسكون؟ لم نجد الرابط بينهما بعد.

– لا يا سيدي، كما أن هناك شيئًا آخر، لا يمكنني إقحامه في حبكتنا، ما الذي يجعل السيد روبرت ينبش قبرًا ليستخرج جثّة؟

انتصبت جلسة شيرلوك فجأة.

– لقد اكتشفنا هذا بالأمس فقط، تمامًا بعدما كتبت لك، حيث ذهب السيد روبرت إلى لندن، لذا ذهبت أنا وستيفينز للقبو المسكون، وكان كل شيء مرتب كما هو، إلا أنه في أحد الأركان وجدنا بقايا جثمان بشري.

– أعتقد أنك أبلغت الشرطة، صحيح؟

ابتسم زائرنا بتجهم:

– حسنًا يا سيدي، لم أعتقد أن كلامي سيثير اهتمامهم، لقد كان مجرد رأس وبعض عظام مومياء، ربما لها من العمر آلاف السنين، لكنّها لم تكن هناك من قبل، وأقسم على ذلك بشرفي، وأيضًا ستيفينز يمكنه أن يقسم على ذلك، كانت المومياء مُخبَّأة في أحد الأركان ومُغطاة أيضًا، وكان هذا الركن فارغًا طوال الوقت قبل هذا اليوم.

– إذًا، ماذا فعلت بها؟

– في الواقع، لقد غادرنا، وكأن شيئًا لم يحدث.

– لقد كان هذا حكيمًا للغاية، قلت إن السيد روبرت كان في لندن بالأمس، هل عاد؟

– نتوقع عودته اليوم.

– متى قام السيد روبرت بتسريح كلب الليدي؟

– كان هذا منذ أسبوع كامل، كان الكلب ينبح خارج منزل البئر القديمة، وكان السيد روبرت يمر بإحدى نوبات غضبه في ذات الصباح، فأمسك بالكلب، واعتقدنا أنه ربما سيعدمه، إلا أنه أعطاه إلى خيّال السابق، ساندي باين، وأمره أن يأخذ الكلب إلى العجوز بارنز في حانة جرين دراجون، لأنه لا يريد أن يراه من جديد.

جلس شيرلوك صامتًا يفكر لبعض الوقت، وكان قد أشعل أقدم وأسوأ غليون لديه. وقال في النهاية:

– أنا لست متأكدًا تحديدًا ما الذي تريده منّي بهذا الشأن يا سيد ماسون، هل يمكنك أن توضح لي؟

فقال الزائر:

– ربما هذا سيجعل كل شيء واضحًا سيد هولمز.

ثم أخرج ورقة من جيبه، وفكّ ثنيتها برفق، فكشف عن كشطة متفحّمة لعظمة، تفحّصها هولمز باهتمام بالغ.

– مِن أين حصلت عليها؟

– هناك فرن تدفئة بالقبو أسفل غرفة الليدي بياتريس، وقد كان معطّلًا لوقت طويل، لكن السيد روبرت تشكّى من البرودة وشغّله من جديد، وكان هارفي من قام بتشغيله، وهو أحد صبياني، وفي هذا الصباح الباكر، جاءني بتلك العظمة التي وجدها في أثناء تنظيفه للفرن من الداخل، لكنّه لم يستسغ شكلها في النهاية.

قال شيرلوك:

– ولا أنا أيضًا، ألقِ ما عندك يا واتسون.

كانت قد احترقت حدّ التفحُّم، لكن لم يكن هناك ثمّة شكٌّ فيما يتعلق بأهميتها التشريحية، فقلتُ:

– إنه المِفصل العلوي لعظمة فخذ بشرية.

«بالضبط تمامًا». قالها شيرلوك وقد بدى جادًّا للغاية، ثم سأل:

– متى يذهب هذا الفتى إلى الفرن؟

– إنه يذهب إلى هناك كل يوم عند المساء.

– إذًا يمكن لأي أحد أن يزوره في الليل؟

– بالطبع يا سيدي.

– هل يمكنك النفاذ إليه من الشارع؟

– هناك باب واحد من ناحية الشارع، أما الآخر فيؤدي إلى هناك عبر درجات ثم رواق غرفة الليدي بياتريس.

– هذا الأمر خَطِرٌ للغاية، يا سيد ماسون، بالإضافة إلى قذارته أيضًا، لقد قلت إن السيد روبرت لم يكن هناك ليلة أمس؟

– صحيح، سيد هولمز.

– إذًا أيًّا مَن يكون الذي حرق العظام، لم يكن هو!

– صحيح أيضًا، يا سيد هولمز.

– ما اسم الحانة التي ذكرتها؟

– جرين دراجون.

– وهل يوجد بهذه المنطقة من بيركشاير مكان صيد أسماكٍ جيدة؟

ظهرت على وجه المدرب الصريح أمارات الاقتناع بأن حياته التعيسة قد دخلها مخبول جديد، فقال:

– حسنًا، لقد سمعت أنه هناك سمك سلمون مرقّط بالقناة التي تدير الطاحونة، وكذا سمك الكراكي ببحيرة هال.

– هذا جيد بما يكفي، فأنا وواتسون صيادَا سمكٍ مشهوران، أليس كذلك يا واتسون؟ يمكنك أن تبعث برسائلك إلينا إلى تلك الحانة، فمن المفترض أن نصل إلى هناك في الليل، وبالتأكيد أنا لست بحاجة إلى أن أخبرك أننا لا نريد أن نراك يا سيد ماسون، لكن رسائلك ستصلنا، وسأتمكن من مقابلتك إن أردتُ ذلك، وعندما نحرز بعض التقدم في القضية، سأوافيك بالتطورات.

كان ذلك في مساء صافٍ من شهر مايو، حيث وجدنا أنفسنا أنا وهولمز في عربة قطار من الدرجة الأولى متجهة صوب محطة «شوسكوم» الصغيرة والتي يتطلب الوقوف عندها أن يُعلِم الراكب سائق القطار بذلك، كما أن الرفّ الخاص بنا، كان يموج في فوضى من الصنانير والبكرات والسلال، وبمجرد وصولنا إلى وجهتنا، قطعنا مسافة قصيرة جدًّا بالعربة حتى توقفنا عند حانة قديمة الطراز، وفجأة أقحم مضيف المقامرة «جوزياه بارنز» نفسه في خططنا لصيد الأسماك بالجوار. فقال شيرلوك:

– ماذا عن بحيرة هال، وفرصة اصطيادنا للكراكي؟

فاِكْفَهرَّ وجه الرجل وقال:

– هذا ليس أفضل خيار يا سيدي، فقد تجازف بأن تكون مُلقًى في البحيرة قبل أن تنتهي من الصيد.

– وكيف هذا إذًا؟

– إنه السيد روبرت يا سيدي، مهووس مُتريِّب بجواسيس السباق، فإن كنتما غريبَيْن عن الأنحاء، وقريبَيْن من مساحته التدريبية فسوف يقوم بملاحقتكما بكل تأكيد، تمامًا كالقدر. فإن السيد روبرت لا يترك مجالًا للصدفة أبدًا، أبدًا.

– لقد سمعت أن لديه حصانًا سيشارك في سباق الديربي.

– نعم، وهو مُهر قوي جدًّا، لقد حمل كل أموالنا للمراهنة على فوز المُهر، كما أنه وضع كل أمواله الخاصة عليه أيضًا.

ثم نظر إلينا بعينين متفكرتين، وقال:

– بالمناسبة، أنتما لم تراهنا في السباق، أليس كذلك؟

– نعم، نعم، نحن فقط مجرد شخصَيْن مُتعبَيْن من لندن، ونحن في أمسّ الحاجة إلى هواء بيركشاير المنعش.

– حسنًا، أنتما في المكان المناسب لذلك، حيث يوجد هنا كمية وافرة منه، لكن إياكما أن تنسيَا ما أخبرتكما عن السيد روبرت، فهو من النوع الذي يسدد الضربات أولًا ومن ثم يجلس للاستماع، ابقيَا بمنأى عن الحديقة.

– بكل تأكيد يا سيد بارنز، لن نغفل هذا، بالمناسبة هذا الكلب السبانيل الذي كان ينبح في الردهة لطيف للغاية، كما أنه من أجمل الكلاب.

– أشهد بذلك، كما أنه من سلالة شوسكوم الأصلية، وهي الأفضل في عموم إنجلترا.

فقال شيرلوك:

– أنا أيضًا مهووس بالكلاب، هل تسمح لي بسؤالك؛ كم يساوي هذا الكلب؟

– أكثر بكثير مما يمكنني دفعه، يا سيدي، فقد كان السيد روبرت شخصيًّا هو من أعطاني إياه، ولذا تعيّن عليَّ أن أتركه مربوطًا، لأنني إن حللت وثاقه سينطلق راكضًا نحو المنزل في ضيعة شوسكوم بأسرع ما يمكن.

قال شيرلوك بعدما تركنا الرجل:

– نحن على وشك تجميع بعض بطاقات اللعب في أيدينا يا واتسون.

ثم أردف:

– لن تكون لعبة سهلة، ولكننا سنتحسس الطريق في يوم أو اثنين على الأكثر. بالمناسبة إن السيد روبرت لا يزال في لندن كما نعرف، فربما كان بالإمكان أن نطأ الأرض المحرمة الليلة دون أن نخشى التعرض لأي أذى بدني، هناك شيء أو اثنين أريد أن أتأكد منهما.

– هل لديك أي نظريات يا شيرلوك؟

– لا شيء أكثر من أن حادثة ما قد وقعت منذ أسبوع أو أكثر، وقد أثارت الفرقة بين أفراد منزل ضيعة شوسكوم. لكن ما الذي وقع على وجه التحديد؟ لا يمكننا إلا أن نفترضه من واقع آثاره. كما أنهما شخصيتان متنوعتان على نحو مثير للفضول، لكن هذا بكل تأكيد سيساعدنا، فإن القضية التي لا تحوي الكثير من التنوعات والأدلة، هي فقط القضية الميؤوس منها. دعنا نُفنّد الأدلة التي نمتلكها، لم يعد الأخ يزور شقيقته المريضة، بل وحرمها كلبها وأهداه لشخص آخر. كلبها يا واتسون، ألا يلفت هذا انتباهك لشيء ما؟

– لا شيء، سوى غضب الأخ.

– حسنًا، يمكن أن يكون ذلك، أو حقيقةً، ربما هناك شيء آخر. لنكمل مراجعة الأدلة التي لدينا ابتداءً من الشجار، إن كان هناك شجار قد حدث بالفعل، فستلزم الليدي غرفتها، وتتغير عاداتها، فلم يعد أحدٌ يراها إلا عندما تخرج للتنزه برفقة خادمتها كما إنها تأبى التوقف عند الإسطبلات لإلقاء التحايا على المُهر المفضل (برنس) كما أنها عاقرت الخمر، هذه هي كل جوانب القضية، أليس كذلك؟ بغض النظر عن مسألة القبو عند الكنيسة، فهذا خط آخر للأحداث. يوجد خطّان، وأتوسل إليك ألا تخلط بينهما؛ الخطّ الأول، وهو الذي يخص الليدي بياتريس، يبدو سوداويًّا للغاية، أليس كذلك؟

– لم أتمكّن من استنباط أي شيء منه.

– حسنًا، على أي حال، دعنا نقتفي الخطّ الثاني، والذي يخصّ السيد روبرت، وهو حريص كل الحرص أن يفوز بسباق الديربي. فهو في قبضة اليهود، وفي أي لحظة يمكنهم أن يستولوا على ممتلكاته بما في ذلك إسطبلات الخيل الخاصة به، كما أنه رجل جريء ومتهوّر، وأيضًا يستمد دخله من شقيقته، كما أن خادمتها تعدّ خاتمًا في إصبعه. حتى الآن نحن على أرض صلبة ومتماسكة، أليس كذلك؟

– وماذا بشأن القبو؟

– بكل تأكيد، القبو، دعنا نفترض يا واتسون –وهي مجرد فرضية لا أكثر– أن السيد روبرت قتل شقيقته.

– عزيزي شيرلوك، هذا أمر غير مطروح من الأساس.

– بل هو أمر وارد للغاية يا واتسون، فصحيح أن السيد روبرت من أصل نبيل، لكنك أحيانًا ما تجد غرابًا بين النسور، لذا دعنا نتجادل حول تلك الفرضية للحظة واحدة، فهو لا يستطيع مغادرة البلاد، قبل أن يجمع ثروته، وهذه الثروة لا يمكن أن تُجمع إلا بفوز شوسكوم برنس، وحتى يحين ذلك الوقت، عليه أن يظل في مكانه، وليبقى في مكانه عليه أن يتخلّص من جثة ضحيته، كما أن عليه أيضًا أن يحصل على خدمات شخصٍ بديل ليحل محلها، ومع وجود خادمته المطيعة، فليس من الصعب حدوث ذلك، وبهذا الشأن يمكن نقل جسد المرأة إلى السرداب وهو مكان يندر زيارته، أو ربما قام بالتخلّص منه بسرية تامةً ليلًا في الفرن مخلّفًا من ورائه هذا الدليل الذي اطّلعنا عليه بالفعل، ما رأيك في هذا يا واتسون؟

– حسنًا، يبدو كل هذا محتملًا إذا قمنا بتصديق افتراضك المريع.

– أظن أن علينا أن نُجرِّب تجرِبة صغيرة غدًا يا واتسون، لنُسلِّط بعض الضوء بهذا الشأن، وحتى يحين ذلك، وإن أردنا الحفاظ على تنكرنا، فعلينا أن نستضيف السيد بارنز لنحتسي كأسًا من النبيذ معًا، وكذا إجراء بعض المحادثات حول سمك الأنقليس والسمك النهري، والذي يبدو في رأيي الطريقة المناسبة لخطب ودّه، وفي أثناء ذلك يمكننا التطرق لبعض النميمة بما يدعم قضيتنا.

وفي الصباح، تأكَّد شيرلوك أننا قد أغفلنا طُعم الملعقة لأسماك الجاك، وهذا ما صدّنا عن الصيد ذاك اليوم، وفي تمام الحادية عشرة، خرجنا في جولة، وكان شيرلوك قد حصل على إذن السيد بارنز بأن يخرج الكلب السبانيل الأسود برفقتنا.

– هذا هو المكان.

قالها شيرلوك حين توقفنا أمام حديقة ذات بوابة عالية من ضلفتين يعلو كل ضلفة منهما تمثالٌ لرمز النبالة وهو حيوان الجريفن الأسطوري، ثم أردف:

– لقد أخبرني السيد بارنز، أنه بحلول الظهيرة تأخذ الليدي جولتها، وحينما تقترب من البوابة، تُبطِئ العربة حركتها حتى يتم فتحها، وعندما يتم ذلك، وقبل أن تستعيد سرعتها مرة أخرى، ما عليك يا واتسون ألا أن تطرح على الحوذي بعض الأسئلة، وفيما تفعل ذلك، لا تقلق بشأني سأكون متخفّيًا في مكان، أسترق من النظرات ما يمكنني استراقه.

لم ننتظر طويلًا، فبعد مرور 15 دقيقة تقريبًا، لاحظنا عربة ضخمة مكشوفة ذات لون أصفر، آتيةً عبر الدرب، يجرّانها حصانان رائعان لهما لونٌ رماديٌّ بخُطى ثابتة وقوية. اختبأ شيرلوك خلف الشجرة بصحبة الكلب، ووقفت في منتصف الطريق غير عابئ ألوّح بعصا، فخرج الحارس وفتح البوابة، فيما أخذت سرعة العربة في التباطؤ حتى تمكنت من تفحص راكبيها، امرأة ذات شعر كتّاني، متوردة الوجه لها عيون وقحة تجلس جهة اليسار، وفي جهة اليمين، كانت هناك امرأة عجوز بظهر مقوّس، ووجهها وكتفاها قد تم تغطيتهما بعدّة شالات، وهو الشيء الذي أظهر مرضها. عندما وصل

الحصانان إلى الطريق الرئيسي، رفعت يدي بشكل صارم، وعندما توقف الحوذي سألته ما إن كان السيد روبرت في شوسكوم أولد بليس أم لا. وفي الوقت نفسه، خطا شيرلوك خطوة للأمام وحل وثاق الكلب السبانيل، وفي اللحظة نفسها انطلق الكلب بحبور إلى العربة، وقفز فوق الدرج، ثم ما لبثَ أن تحوّل حبوره إلى غضب شديد، كما أطبق بأنيابه على طرف التنُّورة السوداء المتدلية فوق الدرج. فإذ بصوت أجش يأمر: «تحرّك، تحرّك» فضرب الحوذي حصانيه، وتَرَكنا واقفين عند قارعة الطريق. قال هولمز وهو يربط عنق الكلب الغاضب:

– حسنًا يا واتسون، هذا كل ما في الأمر، لقد ظنّ الكلب أن سيدته هي التي في العربة، لكنه تفاجأ بشخص غريبٍ عوضًا عنها، لا يمكن للكلاب أن تُخطئ صاحبها.

صِحتُ:

– لكنّه كان صوت رجل.

– بالطبع! لقد أُضِيفَت بطاقة جديدة لأيدينا يا واتسون، لكنها تتطلب اللعب بحرص أيضًا.

بدا أن صديقي لم يعد في جعبته أي خطط إضافية لليوم، لذا قمنا باستخدام أدوات الصيد قرب قناة الطاحونة، وبناءً على ذلك القرار حظينا بعشاء لذيذ من سمك السلمون المُرقّط، وبمجرد انتهاء وجبتنا أبدى شيرلوك علامات نشاط جديدة، ومرة أخرى وجدنا أنفسنا في ذات الطريق المؤدية لبوابة الحديقة، التي وطأناها في الصباح، وهناك كان بانتظارنا رجل طويل ذو ملابس داكنة، عرفتُ فيما بعد أنه الرجل الذي عرفناه بلندن، السيد جون ماسون، المُدرّب. قال ماسون مباغتًا:

– مساء الخير يا سادة، لقد تلقيت رسالتك يا سيد هولمز، السيد روبرت لم يعد حتى الآن، ولكنني سمعت بعودته الليلة.

سأل شيرلوك:

– كم يبعد هذا القبو عن المنزل؟

– ربع ميل على الأرجح. لكن يا سيد هولمز، لا يمكنني القيام بذلك، ففي ذات اللحظة الذي سيصل فيها السيد روبرت سيقوم باستدعائي ليطمئن على مُهره الأثير، شوسكوم برنس.

– يبدو هذا واضحًا، وبهذا الشأن لا تقلق يا سيد ماسون، سنعمل دونك، فقط عليك أن ترينا القبو، ومِن ثَم يمكنك الانصراف.

كان ضوء القمر غائبًا، وغلب الظلام على الأرجاء، إلا أن ماسون قادنا عبر أرض عُشبية حتى لاح في الأفق أمامنا جسم مظلم، تبين فيما بعد أنه للكنيسة القديمة، دخلنا من فُرجة متصدّعة، كانت فيما مضى مدخلًا، فيما بدا مرشدنا الذي يتحرك بحرص وسط أكوام الحجارة المتناثرة متعثرًا، تحرّك نحو إحدى زوايا البناء حيث كان هناك درج يقود للقبو، أشعل عود ثِقاب، فأضاء المكان البائس، كان موحشًا تنبعث منه منذرات الشر وروائحه، له جدران متهدّمة بأحجار غير مصقولة، كما يوجد العديد من التوابيت بعضها مصنوع من الرصاص والأخرى مصنوعة من الحجارة القديمة، مرصوصة على جانب واحد وتمتد للسقف المقوّس والذي يلتقي تحته جانبان من جوانب القبو، كما غطّت الظلال السقف فوق رؤوسنا، حتى أشعل شيرلوك مصباحه، والذي أضاف بدوره مخروطًا ضئيلًا من الضوء

الأصفر اللامع وسط هذا المنظر البائس، حتى انعكس الضوء كاشفًا عن التوابيت المُزيّنة بكائن الجريفن الأسطوري.

– لقد أخبرتني عن بعض العظام يا سيد ماسون، هل لك أن تريني إياها قبل ذهابك؟

أشار السيد ماسون لزاوية القبو وهو يقول:

– إنهم هنا في الزاوية.

ولمّا أوضح الضوء فراغ الزاوية، قال:

– يا إلهي، لقد اختفت!

قال شيرلوك وهو يضحك:

– لقد توقعت ذلك!

– كما أتوقع أيضًا أن رماد هذه العظام يقبع الآن في الفرن أسفل غرفة الليدي بياتريس.

قال مانسون:

– لكن لماذا يريد أحدهم أن يحرق جثة شخصٍ مات منذ ألف سنة؟

فقال شيرلوك:

– وهذا ما نحن هنا بصدد معرفته، وقد يتطلب هذا بحثًا طويلًا، ولا نريد أن نؤخرك، كما أنني أتصور أننا سنصل إلى حل اللغز قبل حلول الصباح.

عندما انصرف السيد ماسون، بدأ شيرلوك عمله، فشرع يتفحّص القبور بدقّة فائقة، ابتداءً من قبر قديم جدًّا في الوسط الذي يبدو قبرًا ساكسونيًّا، مرورًا بقبور كثيرة من الهوجو، والأودو النورمانديين، وصولًا إلى السيد ويليام فالدر، والسيد دينيس فالدر من القرن الثامن عشر. كل هذا وكان قد مرّت ساعة على الأكثر قبل أن يقف شيرلوك أمام تابوتٍ رصاصي يأخذ وضعًا عاموديًّا على مدخل القبو. سمعت تنهيدة لذّته واستنبطت من عجلة حركته مع دقّتها أنه قد وصل إلى هدفه، بواسطة عدسته المكبّرة أخذ شيرلوك يتفحّص حافات غطاء التابوت الثقيل، ومن ثم أخرج من جيبه عتلة صغيرة، عادةً ما تستخدم لفتح الصناديق، فغرزها تحت الغطاء، رافعًا الجزء الأمامي، كان واضحًا أنه لم يكن مغلقًا إلا بزوج من المفصّلات، فأصدرت صوت تمزق وبالكاد تزحزح الغطاء قليلًا كاشفًا عن محتويات التابوت دون أن ينفتح قبل أن تعاجلنا مفاجأة غير متوقعة.

شخصٌ ما كان في الكنيسة، يتحرك بخطوات واثقة ومتلهّفة، وكأنه جاء تحديدًا لهدف معيّن، كما أن خطواته توحي بأنه يعرف أين يضع قدمه بالتحديد. ظهر ضوء عند الدرج ثم انساب نازلًا للأسفل، ثم سرعان ما ظهر الرجل عند المدخل القوطي المقوّس، كان مرعبًا بحق، ذا بنية قوية، وطباعًا شرسة. فيما حمل مصباحًا ضخمًا من المصابيح المستخدمة في الإسطبلات، حيث انعكس ضوؤه على وجه الرجل فأظهر، شاربًا كثًّا، وعينين غاضبتين تُنبِّئ بملامح قاسية، فأخذ يقلبهما في كل أرجاء القبو، حتى استقرتا أخيرًا عليَّ ورفيقي.

ثم سرعان ما صرخ في وجهَيْنا:

– مَن تكونان بحق الجحيم؟ وما الذي تفعلانه بمنطقتي الخاصة؟

وحيث إن شيرلوك لم ينطق بكلمة واحدة، تحرك الرجل خطوتين نحونا، وأظهر عصا غليظة كان يحملها ثم قال:

– ألا تسمعانني؟ مَن أنتما؟ وما الذي تفعلانه هنا؟

وكانت عصاه تلوح في الهواء غضبًا. عوضًا عن التراجع، تقدّم شيرلوك لمجابهته قائلًا بصرامة شديدة:

– لدي سؤال لك أيضًا يا سيد روبرت، جثة مَن هذه؟ وما الذي تفعله هنا؟

استدار وفتح غِطاء التابوت من خلفه بقوة، وتحت ضوء المصباح، تبدت لي جثّة ملفوفة من الرأس للقدم في مُلاءة، لها ملامح مرعبة، مثل ملامح الساحرات، حيث تتجه الذقن والأنف إلى اتجاه واحد، فيما كانت العينان معتمتين وتحدّقان من وجه شاحب. فتراجع البارونيت روبرت للخلف فأسند جسده إلى تابوت حجري، وهو يصيح:

– كيف تنامى هذا إلى علمك؟

ثم استعاد بعضًا من عدوانيّته قائلًا:

– ثم إن هذا ليس من شأنك!

قال شريكي:

– اسمي هو شيرلوك هولمز، وغالبًا سيبدو مألوفًا لك، وعلى كل حال، شأني مثل شأن أي مواطن صالح، أن ندعم القانون، وكما يبدو لي، أن لديك الكثير من الأسئلة لتجيب عنها!

لوهلة نظر السيد روبرت إلى شيرلوك نظرة غاضبة، لكن وقْع صوت شيرلوك الواثق الرصين كان له كل الأثر عليه، فقال:

– أقسم بالرب يا سيد هولمز، كل شيء على ما يرام، قد تبدو المظاهر خادعة، لكنني لم يكن بوسعي فعل أي شيء آخر.

– إنه من دواعي سروري تصديق هذا، ولكن أظن أن شروحاتك يجب أن تكون أمام الشرطة.

هز السيد روبرت منكبيه العريضين وهو يقول:

– إن كانت الأمور ستؤول إلى هذه النقطة، فأظن أن عليك أن تزورني بالمنزل، لتحكم بنفسك.

وبمرور 15 دقيقة، وجدنا أنفسنا في غرفة متروسة بالأسلحة في البيت القديم، وكان هذا من تخميني لِما رأيت من مواسير البنادق المصفوفة خلف أغطيتها الزجاجية، كما أن الغرفة كانت مُجهّزة بأثاث مريح، تركنا السيد روبرت للحظات بهذا المكان ولما عاد، كان برفقة شخصين آخرين، وكانت السيدة متوردة الوجه التي سبق ورأيناها في العربة إحداهما، أما الآخر فكان شخصٌ ذو وجهٍ دقيق يشبه الفأر، كما أن ملامحه توحي بالمكر، ظهرت أمارات الاندهاش على صفحة وجه الشخصين، وهذا يعني أن البارونيت لم يكن لديه الوقت الكافي ليشرح لهما ما آلت إليه الأمور. أشار السيد روبرت بيديه إلى الشخصين قائلًا:

– هؤلاء هما السيد والسيدة نورليت. السيدة نورليت كانت هي خادمة أختي الأثيرة لسنوات طويلة، وقد أحضرتهما هنا، لأنني أرتئي أن هذا هو السبيل الأمثل لأشرح كل شيء لك، وهما الشخصان الوحيدان على وجه الأرض اللذين بإمكانهما تأكيد ما أقول.

فقالت المرأة:

– هل هذا ضروري يا سيد روبرت، هل فكرت حتى فيما تفعل؟

فيما قال زوجها:

– أمّا من ناحيتي، فأنا أنكر أي مسؤولية.

فرمقه السيد روبرت بنظرة احتقار، وهو يقول:

– أنا سأتحمّل المسؤولية كافة، والآن يا سيد هولمز، هل لك أن تسمع الأحداث كافة؟

ثم أردف:

– يبدو أنك، تعمقت كثيرًا جدًّا جدًّا في حياتي، وإلا لما وجدتك في القبو حيث تقابلنا، كما يُهيَّأ لي أنك تعلم أن لدي حصانًا لا يتوقع أحدٌ له الفوز بسباق الديربي، وإن نجاحي كله مرهون بهذا السباق، فإن فاز الحصان حُلّت كل مشكلاتي، وإن لم يفُز.. حسنًا لم أجرؤ على التفكير بهذا الشأن.

قال هولمز:

– أتفهم الأمر.

– إنني معتمد بالكلية على أختي الليدي بياتريس، ولكن من المعروف أن حقّها في الانتفاع بالضيعةِ كلها، يظل ساريًا طيلة حياتها فقط. أما أنا فاليهود يقبضون على خناقي، وطوال عمري عرفت ذلك، إن ماتت أختي، فإن أولئك الدائنين سينقضون على الضيعة بكل ما فيها كالطيور الجارحة، سيحوزون الإسطبلات، والخيول، وكل شيء، وقد توفيت أختي منذ أسبوعين. وبطبيعة الحال لم نخبر أحدًا!

ماذا عساي أن أفعل؟ فقد واجهت الخراب المطلق، لو فقط استطعت تأجيل كل شيء لمدة ثلاثة أسابيع، كل شيء سيكون على ما يرام، أما زوج الخادمة فهو يعمل ممثلًا، وقد خُيّل لنا، أو خُيّل لي أن يقوم بتجسيد أختي لهذه المدّة القصيرة. كان الأمر فقط وكأنه خروج صباحي بالعربة، فلا أحد يدخل غرفتها سوى الخادمة الخاصة بها، ولم يكن من الصعب تدبير الأمر، قد ماتت أختي جرّاء داء الاستسقاء الذي لازمها لفترة طويلة.

– ذلك شأن الطبيب الشرعي، لا شأنك.

– على كُلٍّ سيشهد طبيبها الخاص، بأن الأعراض التي لازمتها لهذه الفترة كانت تشكل تهديدًا حقيقيًّا لنهاية مماثلة.

– حسنًا، وماذا فعلت؟

– لم نكن لنترك الجثة هناك بكل تأكيد، لذا وفي الليلة الأولى نقلتها أنا ونورليت إلى منزل البئر القديمة، الذي لم يعد مستخدمًا على الإطلاق، إلا أن كلبها السبانيل كان يتبعنا أينما ذهبنا، وكان يركل الباب باستمرار، لذا فكّرت أن أحصل على مكانٍ أكثر أمانًا، فتخلّصتُ من الكلب، ونقلتُ الجثة إلى قبو

الكنيسة، ولم يكن في الأمر أي إهانة أو قلّة احترام يا سيد هولمز، لا أشعر أنني أقترف أي خطأ بحق الموتى.

- يبدو لي أن تصرّفك غير مقبول يا سيد روبرت.

حرّك البارونيت رأسه بنفاد صبر وقال:

- إنه من السهل جدًّا أن تقدّم النصائح، ربما لو عِشت ما عِشته لكان رأيك مختلفًا، فلا يمكن للمرء أن يرى أحلامه وخططه كافة تنهار أمامه في لحظتها الأخيرة، دونَ أن يبذل كل ما في وسعه لإنقاذها، لقد بدا لي أننا تركناها لبعض الوقت في أحد توابيت أسلاف زوجها، وهي لا تزال أرضًا لائقة بالموتى، وكان ذلك ليكون مستقرًّا لائقًا بها، فقمنا بفتح أحد التوابيت، وأفرغنا محتوياته ومن ثم وضعناها مكانه كما رأيتها، أما بشأن ما أخرجناه أنا ونروليت لم يكن لنا أن نتركه بأرض السرداب، لذا نزل هو في الليل وحرقها في الفرن المركزي، هذا كل ما في الأمر يا سيد هولمز، أما عن طريقتك لإجباري على سرد كل هذا لك، فليس بمقدوري أن أعبّر عن ذلك.

جلس شيرلوك هائمًا في أفكاره، ثم قال أخيرًا:

- توجد شائبة واحدة فقط في روايتك يا سيد روبرت، ربما كنت لتشارك بالسباق، وتفوز برهانك، وكذا يفوز مُهرك، وتتحقق كل آمالك المستقبلية، حتى وإن استحوذ الدائنون على كل ما في الضيعة.

- كان المُهر سيصبح جزءًا من التركة، وأظن أنهم ليس عليهم أن يكترثوا بشأن رهاناتي! بل ومن المحتمل ألا يجعلوه يشارك في السباق إن أرادوا، فإن أكبر دائنيَّ هو أيضًا بكل أسف ألد أعدائي، وهو شخص سيئ يُدعى «سام بروير» الذي كنت قد جلدته بسوط الحصان، ذات مرة في مرج نيوماركت هيث، أتعتقد أنه سيكترث لأمري؟

قام هولمز من مجلسه قائلًا:

- حسنًا يا سيد روبرت، يجب على الشرطة أن تعلم بهذا الشأن، وقد كان واجبي أن أسلّط بعض الضوء على الأدلة لتظهر للعامة، وبمجرد الانتهاء من ذلك، عليّ أن أتوقف، أما فيما يتعلّق بالأخلاق فيما اقترفت، فليس لي أن أُبدي أي آراء حولها، لقد أوشكت الساعة على منتصف الليل يا واتسون، وأظن أنه قد حان وقت عودتنا لمنزلنا المتواضع.

وأصبح من المعروف للجميع فيما بعد، أن الحكاية قد انتهت إلى مآل سعيد للغاية أكثر مما استحقت أفعال السيد روبرت، فقد فاز شوسكوم برنس في سباق الديربي، فيما حصل مالكه المقامر على ربح يقدّر بثمانين ألف جنيه من الرهانات، وتوقّف خناق الدائنين عنه حتى انتهى السباق، وحين ذاك استعادوا أموالهم بالكامل، وما تبقّى للسيد روبرت كان كافيًا ليؤسس له حياة جيدة، كما كان للشرطة والطبيب الشرعي نظرة غير مكترثة بشأن نقل الجثّة وإخفائها، ولم ينل المالك المحظوظ جرّاء ما فعله سوى مجرد تأنيب خفيف اللهجة، لتأخّره عن تسجيل وفاة الليدي، ولم يلحقه أي أذى إثر هذه الحادثة الغريبة، فتجاوز المالك ظلال الماضي، واستبشر بخاتمة مُشرّفة.

حيث كان شارع هارلي ولم يزل مشهورًا بعيادات الأطبّاء والمستشفيات.

قضية رجل الطلاء المتقاعد

كان شيرلوك هولمز في حالة من الكآبة والتفكّر في صباح ذلك اليوم، طبيعته العملية المتيقظة تتأثر دومًا بمثل هذه الحالات المزاجية. سألني:

– هل رأيته؟

– أتقصد العجوز الذي خرج للتو؟

– بالضبط.

– نعم، قابلته عند الباب.

– وما انطباعك عنه؟

– كائن مثير للشفقة؛ محطم، وغير ذي جدوى.

– بالضبط يا واتسون.. مثير للشفقة وغير ذي جدوى. ولكن أليست الحياة كلها مثيرة للشفقة وبلا جدوى؟ أليست قصته نموذجًا مصغرًا من قصص الناس جميعًا؟ نظل نسعى إلى أن نصل إلى غاياتنا، ولا نكاد ندركها حتى تتحول بين أيدينا في النهاية إلى سراب، أو ربما تتحول إلى ما هو أسوأ من السراب.. الشقاء.

– هل هو واحد من عملائك؟

– حسنًا، أعتقد أنني سأعتبره كذلك. لقد أحيل إليَّ من قبل شرطة سكوتلاند يارد. تمامًا مثلما يرسل الأطباء مرضاهم من أصحاب الحالات المستعصية في بعض الأحيان إلى الدجالين والمشعوذين. يزعمون بأنهم قد فعلوا كل ما في استطاعتهم، وأنهم لا يملكون فعل أي شيء أكثر من ذلك، وأنه مهما قد يحدث للمريض فلن تكون حالته أسوء مما هو عليه.

– ما خطبه؟

تناول هولمز بطاقة متسخة بعض الشيء من على الطاولة وقال:

– يوشيا أمبرلي، يقول إنه كان الشريك الأصغر في شركة بريكفول وأمبرلي المصنعة للمواد الفنية. سترى أسماءهم على علب الطلاء. بعدما جمع ركيزة من المال، تقاعد عن العمل عندما أتم الحادية والستين من عمره، واشترى منزلًا في منطقة لويشام، واستقر فيه ليستريح بعد حياة من الكدح المتواصل. قد يظن المرء أن مستقبله كان مؤَمَّنًا بشكل جيد إلى حد ما.

– نعم، بالفعل.

ألقى هولمز نظرة سريعة على بعض الملاحظات التي كتبها سابقًا على ظهر أحد الأظرف. وقال:

– لقد تقاعد في عام 1896 يا واتسون، وفي أوائل عام 1897 تزوج من امرأة تصغره بعشرين عامًا، امرأة جميلة حسنة المظهر وإن كانت الصورة لا تنصفها. وهكذا كان الطريق إلى رغد العيش مفتوحًا أمامه، لديه مال، وزوجة، مرتاحًا بلا عمل. ولكن ها قد أصبح بعد عامين فقط –كما رأيته– مخلوقًا مُحطمًا بائسًا.

– ولكن ما الذي حدث؟

– إنها القصة المعتادة يا واتسون، صديق غدّار وزوجة متقلبة. يبدو أن لدى أمبرلي هواية واحدة في الحياة، وهي لعب الشطرنج. وثمة طبيب شاب يعيش قريبًا منه في لويشام، وهو أيضًا يحب لعب الشطرنج. لقد دونت اسمه؛ إنه الدكتور راي إرنست. كان إرنست يتردد على منزل السيد أمبرلي كثيرًا، فتطورت العلاقة الحميمية بينه وبين السيدة أمبرلي تطورًا طبيعيًّا، وهرب العشيقان معًا الأسبوع الماضي إلى وجهة غير معلومة ولم يستطع أحد أن يقتفي أثرهما. وعلاوة على ذلك، فإن الزوجة الخائنة حملت صندوق وثائق الرجل العجوز في أمتعتها الشخصية مع جزء كبير من مدخرات حياته. هل يمكننا أن نجد السيدة؟ هل يمكننا إنقاذ المال؟ إنها مسألة مألوفة من حيث تطور أحداثها حتى الآن، ولكنها مسألة بالغة الأهمية بالنسبة إلى يوشيا أمبرلي.

– وماذا ستفعل حيال ذلك؟

– حسنًا، السؤال الأهم هنا يا عزيزي واتسون هو: ماذا ستفعل أنت؟ هذا إذا تكرمت بأن تؤدي دوري. أنت تعلم أنني مشغول بقضية البطريركين القبطيين، التي ينبغي أن أتوصل إلى حلها اليوم، وليس لدي الوقت حقًّا للذهاب إلى لويشام، على الرغم من أن الأدلة التي تؤخذ من موقع الحادث تمثّل قيمة خاصة إلا أني لن أستطيع الوجودَ فيه. كان العجوز مُصرًّا للغاية على أن أذهب بنفسي، لكنني شرحت له مدى صعوبة ذلك، وهو مستعد لاستقبال ممثل عني.

أجبته قائلًا:

– بكل تأكيد، أعترف بأنني لا أرى أن باستطاعتي تقديم شيءٍ كبيرٍ، ولكنني سأبذل قصارى جهدي.

وهكذا، توجهت إلى لويشام في ظهيرة أحد أيام الصيف، وبداخلي حلم صغير بأن تصبح تلك القضية في غضون أسبوع موضوع حديث إنجلترا كلها.

عدت إلى شارع بيكر في وقت متأخر من هذا المساء وقدمت تقريرًا لهولمز عن المهمة التي أوكلها إليَّ. كان هولمز مستلقيًا بجسده النحيل على كرسيه المريح، وألسنة دخان التبغ ذي الرائحة النفّاذة تتصاعد ببطء من غليونه، بينما جفناه مُنسدِلان فوق عينيه في كسل، وكأنه كان نائمًا، إلا عندما أتلعثم أو أتوقف أو أتساءل وأنا أروي له ما حدث، فعندئذٍ يفتح عينيه نصف فتحة، فتظهر عيناه الرماديتان اللامعتان، الحادتان كالسيف، لتذهلني بنظراتهما الثاقبة. أوضحت قائلًا:

– الملاذ هو اسم منزل السيد يوشيا أمبرلي، أظن أن هذا سيثير اهتمامك يا هولمز، إنه يبدو كما لو أنه أحد الأرستقراطيين البائسين وقد انتهى به الحال إلى أن يكون بصحبة مَن هم أدنى منه منزلة. أنت تعرف هذا الحي خاصةً ذا الشوارع الكئيبة المرصوفة بالطوب، والطرق المتعرجة المُرهِقة بين ضواحيه، يقع المنزل في وسطها بالضبط، في جزيرة صغيرة من الثقافة العريقة والرفاهية، محاط بجدار عالٍ لفَحَته أشعة الشمس، مُغطى ببقع من الأشنات، وتعلوه الطحالب، وهو نوع من الجدران...

قال هولمز بحدة:

– اختصر يا واتسون، فهمت أنه جدار عالٍ من الطوب.

– بالضبط، ولم أكن لأعرف أي المنازل هو لو لم أسأل ذلك المتسكع الذي كان يدخن في الشارع. وإنني أذكره لسبب ما، فقد كان رجلًا طويلًا، أسمر البشرة، له شارب كثيف، يبدو كما لو أنه عسكريًّا.

أومأ برأسه ردًا على سؤالي، ورمقني بنظرة غريبة متسائلة، ما لبثت أن استحضرت ذاكرتي تلك النظرة بعدها بقليل. وما إن دخلت من البوابة حتى رأيت السيد أمبرلي يسير على الرصيف باتجاه المنزل، لم أستطع سوى أن ألقي عليه نظرة خاطفة في ذلك الصباح. ومن المؤكد أنه قد أعطاني انطباعًا بأنه مخلوق غريب، ولكن عندما رأيته في وضح النهار، كان مظهره أكثر غرابة.

قال هولمز:

– لقد تفحصتُ مظهره بالطبع، ومع ذلك فأنا مهتم بمعرفة انطباعك عنه.

– بدا لي، حرفيًّا، وكأنه رجل مُثقَل بالأعباء، ظهره منحنٍ كما لو كان يحمل عبئًا ثقيلًا. ومع ذلك، لم يكن ذلك الضعيف الذي كنت أتصوره في بداية الأمر، لأن كتفيه وصدره لهما هيكل ضخم، إلا أن ساقيه نحيلتان.

– فردة حذائه اليسرى متجعدة، واليمنى ملساء.

– لم ألحظ هذا.

– لا، ما كنت لتفعل، ولكنني لمحت طرفه الاصطناعي. لا عليك، أكمل.

– أدهشتني خصلات شعره الأشهب المتموجة من تحت قبعته القديمة المصنوعة من القش، ووجهه ذو التعبيرات الشرسة المتلهفة والملامح التي تحيط بها التجاعيد والخطوط العميقة.

– ممتاز يا واتسون، ماذا قال لك؟

– بدأ يقص عليِّ شكواه، ومَشَيْنَا معًا في أرجاء المنزل، وبالطبع ألقيت نظرة متفحصة على المكان، فإنني لم أرَ قط مكانًا مهملًا بهذا الشكل، كانت الحديقة في حال متدهورة، مما أعطاني انطباعًا عن الإهمال الجامح الذي ترك النباتات تنمو على طبيعتها بدلًا من جعلها تتخذ شكلًا جماليًّا مُنسّقًا. لا أعرف كيف يمكن لأي امرأة محترمة أن تتهاون في ترك الأشياء تصل إلى مثل هذه الحالة، لا أعرف حقًّا. كان المنزل أيضًا قذرًا إلى أقصى درجة، ولكن الرجل المسكين بدا وكأنه على دراية بذلك وكان يحاول إصلاحه، حيث كان هناك وعاء كبير من الطلاء الأخضر في وسط الردهة، وكان يحمل في يده اليسرى فرشاة سميكة، يدهن بها المشغولات الخشبية. أخذني إلى حجرته الخاصة القذرة، ودار بيننا حديث طويل. كان يشعر بالطبع بخيبة أمل لأنك لم تأتِ بنفسك. وقال: «لم أكن أتوقع أن شخصًا قليل الشأن مثلي، خاصة بعد خسارتي المالية الفادحة، يمكنه أن يحظى بالاهتمام الكامل لرجل مشهور مثل السيد شيرلوك هولمز على أي حال».

وقد أكدت له بأن الأمر لا علاقة له بوضعه المالي، فقال: «لا، بالطبع، إنه يفعل ذلك من أجل الفن؛ فن الجريمة. ولكنه حتى من ناحية الجانب الفني للجريمة، ربما لم يجد فيه شيئًا يستحق الدراسة. والطبيعة الإنسانية يا دكتور واتسون ناكرة لكل جميل! فمتى رفضت لها طلبًا؟ وهل دلل أحدٌ امرأة مثلما دللتها؟ وذلك الشاب، الذي كان من الممكن أن يكون ولدًا لي، لقد منحته صلاحية إدارة منزلي، ومع ذلك انظر ما الذي فعلاه بي! آه يا دكتور واتسون، إنه عالم مروع وبغيض!»

وهكذا ظل يشكو لمدة ساعة أو أكثر. وعلى ما يبدو أنه لم يكن لديه شك في أنها كانت مكيدة مدبرة. لقد عاشا وحدهما باستثناء امرأة تأتي في النهار ثم تتركهما عند المساء في الساعة السادسة. وفي ذلك

المساء بالتحديد كان أمبرلي يرغب في تقديم هدية لزوجته، فحجز مقعدين من مقاعد الصف العلوي في مسرح هايماركت. وفي اللحظة الأخيرة اشتكت زوجته من صداع ورفضت الذهاب معه، فذهب وحده. يبدو أنه لا يوجد شك في حقيقة هذا الأمر، لأنه أراني التذكرة غير المستخدمة التي اشتراها لزوجته.

قال هولمز الذي بدا أن اهتمامه بالقضية بدأ يزداد:

– هذا لافت للنظر، لافت للنظر بشكل كبير. أكمِل يا واتسون من فضلك. أجد أن سردك يثير الاهتمام. هل فحصت التذكرة بنفسك؟ هل أخذت –ربما– رقمها؟

فأجبته بشيء من الفخر قائلًا:

– نعم، هذا ما حدث، لقد صادف أن يكون رقم مدرستي القديمة، واحدًا وثلاثين؛ لذا فهو عالق في ذهني.

– ممتاز يا واتسون! إذن فإن مقعده إما كان كان ثلاثين أو اثنين وثلاثين.

أجبته وأنا أشعر بشيء من الحيرة:

– نعم، بالضبط. في الصف «ب».

– هذا مقنع بشكل كبير، بماذا أخبرك أيضًا؟

– لقد أراني غرفته المحصنة، كما أسماها. وهي بالفعل غرفة محصنة –مثل البنك– لها باب حديدي ومصراع ضد السرقة كما قال. ولكن يبدو أن المرأة كانت تمتلك نسخة من المفتاح، وقد سرقا منها نحو سبعة آلاف جنيه من النقود والسندات.

– سندات! كيف يمكنهما التصرف بتلك السندات؟

– قال إنه قد سلم الشرطة قائمة بها، وإنه يأمل أن تكون غير قابلة للبيع. كان قد عاد من المسرح نحو منتصف الليل ووجد المكان منهوبًا، ووجد الباب والنافذة مفتوحين، وقد فر العاشقان. لم تكن هناك رسالة، ولم يسمع عنهما منذ ذلك الحين. وقد سارع فورًا بإبلاغ الشرطة.

جلس هولمز يفكر لبضع دقائق. ثم قال:

– أنت تقول بأنه كان يدهن، ما الذي كان يدهنه؟

– حسنًا، لقد كان يدهن الممر، ولكنه كان قد دهن الباب بالفعل والمشغولات الخشبية الموجودة في تلك الغرفة التي حدثتك عنها. ألا يبدو لك شيئًا غريبًا أن ينشغل بمثل هذه الأشياء في تلك الظروف؟

– يجب على المرء أن يفعل شيئًا ليخفف من آلام قلبه.

كان هذا هو تفسيره الخاص، وقد كان غريبًا بلا شك، ولكن الرجل أيضًا كان غريبًا. لقد مزق إحدى صور زوجته أمام عينيَّ، مزقها وهو يستشيط غضبًا في انفعال حاد، وهو يصرخ قائلًا: «لا أريد أن أرى وجهها اللعين مرة أخرى».

– هل هناك أي شيء آخر يا واتسون؟

– نعم، شيء واحد قد لفت انتباهي أكثر من أي شيء آخر. كنت قد ركبت عربة أجرة للذهاب إلى محطة بلاكهيث حيث لحقت بقطاري هناك، وبمجرد أن تحرّك القطار رأيت رجلًا يقفز إلى العربة

المجاورة للعربة التي أركب فيها. أنت تعرف أني أتذكر الوجوه من مجرد نظرة خاطفة يا هولمز. لقد كان بلا شك ذلك الرجل الطويل أسمر البشرة الذي كنت قد رأيته في الشارع وسألته عن المنزل، ورأيته مرة أخرى عند جسر لندن، ثم ضاع وسط الزحام، لكنني مقتنع بأنه كان يتبعني.

فقال هولمز:

– دون شك! دون شك! تقول إنه رجل طويل، أسمر البشرة، ذو شارب كثيف، أكان يرتدي نظارات شمسية رمادية؟

– هولمز أنت ساحر! إنني لم أذكر لك أنه كان يرتدي نظارات شمسية رمادية اللون.

– ودبوس ربطة عنق عليه رمز ماسوني؟

– هولمز!

– إن الأمر في غاية البساطة يا عزيزي واتسون، دعنا نركز على ما هو أهم. يجب أن أعترف لك بأن القضية التي بدت لي بسيطة للغاية لدرجة ألا تستحق اهتمامي، اتضح لي أنه يجب التعامل معها بشكل مختلف تمامًا. صحيح أنه على الرغم من أنه قد فاتتك كل الأشياء ذات الأهمية، إلا أن حتى تلك الأشياء التي برزت من خلال سردك وملاحظاتك تبعث على التفكير الجاد.

– ما الذي فاتني؟

– لا تضايق نفسك يا صديقي العزيز. أنت تعرف بأن الأمر غير شخصي أبدًا. لم يكن أحد ليقوم بالأمر أفضل مما فعلت. فربما البعض ليس في مثل كفاءتك. ولكن من الواضح أنه قد فاتتك بعض النقاط المهمة. فما رأي الجيران في هذا الرجل أمبرلي وزوجته؟ هذا سؤال مهم بالتأكيد. وماذا عن الدكتور إرنست؟ هل كان رجلًا لطيفًا ومرحًا كما يتوقعه المرء؟ مما أعرفه من مزاياك المألوفة يا واتسون أنه يمكنك جعل كل سيدة مساعدة وشريكة لك في التحري. فماذا عن الفتاة في مكتب البريد، أو زوجة بائع الخضر والفاكهة؟ يمكنني تخيلك وأنت تهمس بكلمات ناعمة جوفاء لسيدة شابة في بلو أنكور، وتحصل منها على ما تريد في المقابل. كل هذا تركته تركته غير منجز.

– لا يزال من الممكن القيام بذلك.

– لقد تم بالفعل، بفضل الهاتف ومساعدة شرطة سكوتلاند يارد. أستطيع في العادة الحصول على كل النقاط الأساسية من دون مغادرة هذه الغرفة. في حقيقة الأمر، إن معلوماتي تؤكد رواية الرجل، فإن لديه سمعة بأنه رجل بخيل، كما أنه زوج قاس وصارم. ومن المؤكد أنه كان لديه مبلغ كبير من المال في تلك الغرفة المحصنة. وكذلك بالنسبة إلى الدكتور الشاب إرنست فهو رجل غير متزوج وكان يلعب الشطرنج مع أمبرلي، كما أنه على الأرجح قد مارس ألاعيبه في خداع زوجته. هذا يبدو واضحًا للغاية، وقد يظن المرء أنه ليس هناك ما يمكن قوله... ولكن! ولكن!

– أين تكمن الصعوبة إذن؟

– ربما في مخيلتي. حسنًا، لنترك كل شيء على حاله الآن يا واتسون. ودعنا نهرب من الواقع المضجر إلى الموسيقى، فالليلة ستغني كارينا في ألبرت هول، ولا يزال لدينا الوقت لارتداء ملابسنا وتناول الطعام

والاستمتاع.

في صباح اليوم التالي، استيقظت مبكرًا، ووجد بعض فتات الخبز المحمص وقشرتين من قشر البيض فارغتين، فأدركت أن رفيقي قد استيقظ قبلي. كما وجدت ورقة على الطاولة مكتوبًا فيها ملاحظة:

(عزيزي واتسون:

ثمة نقطة أو اثنتان أود مناقشتهما مع السيد يوشيا أمبرلي، وعندما أنتهي منهما سيحدد ذلك ما إذا كنا سنرفض القضية أم لا. أطلب منك فقط أن تكون موجودًا بالمكان في الساعة الثالثة، أظن أنني سأحتاج إليك.

شيرلوك هولمز).

لم أرَ أثرًا لهولمز طوال اليوم، لكنه عاد في الساعة التي حددها، وقد بدا عابسًا مشغول البال لا يبالي بمن حوله. فرأيت أن من الحكمة أن أتركه لنفسه في مثل هذه الأوقات. سألني هولمز:

– ألم يحضر أمبرلي إلى هنا بعد؟

– لا.

– حسنًا، إنني في انتظاره.

ولم يخب ظنه حيث وصل العجوز بعدها بقليل وبدا على وجهه العابس قلق وارتباك شديدان. قال العجوز:

– لقد تلقيت برقية يا سيد هولمز، ولا أفهم منها شيئًا.

ثم ناولها لهولمز الذي قرأها بصوت مرتفع، وهي:

(احضر على الفور. يمكنني أن أزودك بمعلومات حول فاجعتك الأخيرة.

إلمان

بيت قسيس الكنيسة).

قال هولمز:

– لقد أُرسِلَت في الساعة الثانية وعشر دقائق من قرية ليتل بيرلينجتون. أعتقد أن بيرلينجتون في مقاطعة إسكس، وأظن أنها ليست بعيدة عن فرينتون. حسنًا، بالطبع يجب أن تتحركا على الفور، فمن الواضح أن هذه البرقية من شخص مسؤول، قسيس الكنيسة. أين كتاب دليل الكنائس الخاص بي؟ نعم، ها هو ذا هنا: جيه سي إلمان، إم إيه، يعيش في موسمور ليتل بيرلينجتون. ابحث عن القطارات المتجهة لهناك يا واتسون.

فقال العجوز:

– هناك قطار متجه إلى هناك سيتحرك في الساعة الخامسة والعشرين دقيقة من شارع ليفربول.

– ممتاز. من الأفضل أن تذهب معه يا واتسون، فقد يحتاج إلى مساعدة أو نصيحة. من الواضح أننا وصلنا إلى أزمة في هذه القضية.

لكن يبدو أن عميلنا لم يكن مُتلهّفًا للذهاب على الإطلاق. حيث قال:

– إنه أمر في غاية السخف يا سيد هولمز. كيف يمكن لهذا الرجل أن يعرف ما حدث؟ إن ذهابنا ليس إلا مضيعة للوقت والمال.

– لم يكن ليرسل إليك برقية لو لم يكن يعرف شيئًا. أرسِل إليه برقية تخبره فيها بأنك قادم على الفور.

– لا أظن أنني سأذهب.

بدا هولمز صارمًا للغاية وهو يقول:

– سيكون هذا أسوأ انطباع عنك من الممكن أن تعطيه للشرطة ولي أيضًا يا سيد أمبرلي، لو ظهر دليل واضح كهذا ومِن ثَم ترفض متابعته، فسنشعر حينها أنك غير جاد في إجراء هذا التحقيق.

ظهرت على عميلنا ملامح الذعر والقلق بعدما سمع ما قاله هولمز، ثم قال:

– عجبًا، بالطبع سأذهب إن كنت ترى الأمر بهذه الطريقة. في ظاهر الأمر يبدو أنه من السخف أن نصدق بأن هذا الشخص يعرف أي شيء، ولكن إن كنت تعتقد...

فأكد هولمز قائلًا:

– نعم، إنني أعتقد ذلك.

وقبل أن ننطلق في رحلتنا، أخذني هولمز جانبًا وأسدى لي نصيحة أظهرت مدى الأهمية الكبيرة للأمر. حيث قال:

– أيًّا يكن ما تفعله، تأكد من ذهابه بالفعل إلى هناك. وإذا هرب منك أو عاد أدراجه، فتوجه إلى أقرب هاتف عمومي وأرسل إليَّ كلمة واحدة «هرب».

إن ليتل بيرلينجتون ليس مكانًا يسهل الوصول إليه، لأن محطتها تقع على خط فرعي. وما أذكره عن الرحلة أنها لم تكن ممتعة، لأن الطقس كان حارًّا، والقطار بطيئًا، وكان رفيقي متجهمًا وصامتًا، لا يتحدث إلا نادرًا لإبداء ملاحظة تهكمية من حين إلى آخر تتعلق بعدم جدوى إجراءاتنا. وعندما وصلنا أخيرًا إلى المحطة الصغيرة، ركبنا عربة لنصل إلى بيت قسيس الكنيسة الذي كان على بعد ميلين من المحطة، وهناك استقبلنا قسيس كبير مهيب ذو أبهة، وأدخلنا إلى مكتبه حيث وجدنا برقيتنا موضوعة أمامه. سألنا قائلًا:

– حسنًا أيها السيدان، ما الذي أستطيع فعله لأجلكما؟

فأوضحت قائلًا:

– لقد جئنا استجابة لبرقيتك.

– برقيتي! لم أرسل أي برقية.

– أقصد البرقية التي أرسلتها إلى السيد يوشيا أمبرلي بشأن زوجته وأمواله.

فقال القسيس بنبرة غاضبة:

– لو أن هذه مزحة يا سيدي، فهي مزحة غريبة جدًّا. إنني لم يسبق لي أن سمعت عن هذا السيد الذي ذكرت اسمه، ولم أرسل برقية إلى أي أحد.

تبادلت أنا وعميلنا نظرات الدهشة، ثم قلت:

- ربما هناك خطأ ما، أهناك بيت قسيس آخر في هذه المنطقة؟ ها هي البرقية ذاتها، موقعة من إلمان ومؤرخة من بيت قسيس الكنيسة.

- لا يوجد غير قسيس واحد يا سيدي، وهذه البرقية تزوير فاضح، ويجب على الشرطة التحقق من مصدرها بكل تأكيد. وفي الوقت نفسه، لا أرى أي سبب يستدعي إطالة هذه المقابلة أكثر.

ومِن ثَم وجدنا أنفسنا أنا والسيد أمبرلي على جانب الطريق في قرية بدت لي وكأنها أكثر القرى بدائية في إنجلترا. اتجهنا إلى مكتب التلغراف، ولكننا وجدناه قد أغلق بالفعل. وجدت هاتفًا عند محطة السكة الحديدية، ومن خلاله تواصلت مع هولمز، الذي شاركنا دَهشتنا. قال الصوت البعيد عبر الهاتف:

- هذا في منتهى الغرابة! أخشى بشدة يا عزيزي واتسون أنه لا يوجد قطار للعودة ليلًا. لقد حكمت عليك عن غير قصد بمواجهة أهوال النُزل الريفية. ومع ذلك، فأنت محاط بالطبيعة يا واتسون - الطبيعة ويوشيا أمبرلي- يمكنك أن تكون على اتصال وثيق بكليهما.

ثم سمعت ضحكته الساخرة المكتومة بينما أخذ الصوت يبتعد. وسرعان ما اتضح لي أن سُمعة رفيقي البخيل كانت مستحقة، فقد تذمر من تكلفة الرحلة، وأصر على السفر على الدرجة الثالثة، وأخذ بعد ذلك يعترض في صخب على فاتورة الفندق. وفي صباح اليوم التالي، عندما وصلنا أخيرًا إلى لندن، كان من الصعب تحديد أي منا كان في مزاج أسوأ من الآخر. قلت:

- من الأفضل أن نمر على شارع بيكر، فقد يكون لدى السيد شيرلوك هولمز إرشادات جديدة.

قال أمبرلي بوجه عبوس ناقم:

- إذا لم تكن ذات قيمة أكبر من تلك الإرشادات الأخيرة، فلن تفيدنا كثيرًا.

ومع ذلك فقد رافقني السيد أمبرلي. كنت قد أخبرت هولمز بساعة وصولنا بالتلغراف، وعندما وصلنا وجدنا رسالة تفيد بأنه قد ذهب إلى لويشام وينتظرنا هناك. كانت تلك مفاجأة بالفعل، ولكن المفاجأة الأكبر كانت اكتشافنا أنه لم يكن وحده في غرفة الجلوس الخاصة بعميلنا، فقد كان يجلس بجانبه رجل صارم وهادئ، أسمر البشرة، يرتدي نظارات رمادية اللون ودبوس ربطة عنق كبير عليه رمز ماسوني. قال هولمز:

- هذا صديقي السيد باركر. إنه مهتم بموضوعك هو الآخر يا سيد يوشيا أمبرلي، رغم أننا نعمل بشكل مستقل. ولكن لدى كل منا السؤال نفسه لنطرحه عليك!

انهار السيد أمبرلي على الكرسي وأحس بخطر وشيك. فقد بدا ذلك من عينيه المتوترتين وملامحه المضطربة.

- ما السؤال يا سيد هولمز؟

- السؤال ببساطة هو: ماذا فعلت بالجثتين؟

فهب الرجل واقفًا على قدميه وصرخ بصوت أجش، وأشاح بيديه النحيلتين في الهواء، وفمه مفتوح وكأنه طير جارح مخيف. ورأينا للحظة يوشيا أمبرلي على حقيقته، فبدا كشيطان بشع الخِلقة روحه

مشوهة كجسده. وبينما كان ينهار مرة أخرى على كرسيه وضع يده على شفتيه وكأنه يكتم سعالًا، ولكن هولمز قفز وانقض ممسكًا برقبته مثل النمر، ولف وجهه نحو الأرض، فسقطت حبة بيضاء من بين شفتيه اللاهثتين. قال هولمز:

– لا مجال للفرار يا يوشيا أمبرلي. يجب على الأمور أن تتم بشكل لائق ومنظم. ما رأيك يا باركر؟

فقال رفيقنا قليل الكلام:

– لدي عربة أجرة تنتظر عند الباب.

– إنها على بُعد بضع مئات من الأمتار من مركز الشرطة. سنذهب معًا. يمكنك البقاء هنا يا واتسون. سأعود في غضون نصف ساعة.

كان لرجل الطلاء العجوز قوة أسد في جسده الهرم، ولكنه كان عاجزًا في أيدي رجلين متمرسين ذوي خبرة. أخذ يتمعج ويتلوى وهو يُجرّ إلى العربة المنتظرة، وتُركت وحدي في المنزل المشؤوم. وفي وقت أقل مما ذكره عاد هولمز ومعه أحد مفتشي الشرطة الذي بدا عليه أنه شاب ذكي. قال هولمز:

– لقد تركت باركر يعتني بالإجراءات الشكلية. أنت لم يسبق لك لقاء باركر من قبل يا واتسون. إنه منافسي اللدود في قضية مقاطعة سَري. وعندما أخبرتني عن ذلك الرجل الطويل أسمر البشرة لم يكن من الصعب عليَّ إكمال الصورة، فقد استطاع حل العديد من القضايا الصعبة من قبل، أليس كذلك أيها المفتش؟

أجاب المفتش بتحفظ:

– لقد تدخل عدة مرات بالتأكيد.

– أساليبه في التحقيق غير نظامية بلا شك كأساليبي. وهذه الأساليب تكون مفيدة في بعض الأحيان كما تعلم. فأنت أيها المفتش على سبيل المثال، بتحذيرك الإلزامي بأن كل ما سيقوله يمكن أن يستخدم ضده أمام المحكمة، ما كان من الممكن أن يتم خداع هذا الوغد لكي يُدلي باعتراف فعلي.

– ربما لا يمكننا فعل ذلك، ولكننا نصل إلى النتيجة نفسها يا سيد هولمز. لا تعتقد أننا لم نشكل وجهات نظرنا الخاصة في هذه القضية، وأننا لم نكن لنستطيع الوصول إلى الرجل المطلوب والقبض عليه. وسوف تعذرنا لشعورنا بالغضب والغيظ لاستخدامك أساليب لا يمكننا استخدامها، ومِن ثَم تسلبنا فضل حل القضايا.

– هذا لن يحدث يا ماكينون، أؤكد لك أنني أعفو نفسي من الآن فصاعدًا، أما بالنسبة إلى باركر فهو لم يفعل شيئًا سوى ما قلته له.

– هذا نبل كبير منك يا سيد هولمز، أعرف أنك قد لا تهتم كثيرًا للثناء أو اللوم، لكن الأمر مختلف جدًّا بالنسبة إلينا، خاصة عندما تبدأ الصحف في طرح الأسئلة.

– نعم، إلى حد بعيد. لكن من المؤكد أنهم سيطرحون الأسئلة على أي حال، لذلك سيرغبون أيضًا في الحصول على إجابات. فماذا ستقول –على سبيل المثال– عندما يسألك المراسل الذكي الجريء عن النقاط الدقيقة التي أثارت شكوكك، والتي كونت لك قناعة معينة فيما يتعلق بالحقائق الفعلية.

بدت على المفتش ملامح الحيرة، وهو يقول:

– يبدو أننا لا نملك أي حقائق فعلية حتى الآن يا سيد هولمز. إنك تقول بأن السجين، بحضور ثلاثة شهود، اعترف بالفعل بأنه قد حاول الانتحار، وأنه قد قتل زوجته وعشيقها. فما الحقائق الأخرى التي لديك؟

– هل رتبتم لعملية البحث؟

– هناك ثلاثة شرطيين في الطريق.

– إذن ستحصل قريبًا على الحقيقة الأوضح على الإطلاق. فلا يمكن أن تكون الجثث بعيدة. جرب البحث في السراديب وفي الحديقة. لا ينبغي أن يستغرق حفر الأماكن المحتملة وقتًا طويلًا. هذا المنزل أقدم من وجود أنابيب المياه. يجب أن تكون هناك بئر مهجورة في مكان ما، جرب حظك هناك.

– ولكن كيف عرفت بالأمر، وكيفية حدوثه؟

– سأُريك أولًا كيف حدث ذلك، ثم سأقدم لك التفسير الذي تحتاج إليه، والذي يحتاج إليه أيضًا صديقي الذي طالت معاناته هنا، والذي كان وجوده لا يقدر بثمن طوال الوقت. ولكن أولًا سأعطيكما لمحة عن عقلية هذا الرجل، إنها عقلية فذة للغاية. فطبيعة عقليته تشبه إلى حد كبير الطبيعة الإيطالية في العصور الوسطى وليس الطبيعة البريطانية المتحضرة الحديثة. هو رجل بخيل بائس، وقد تسبب هذا في إتعاس زوجته لدرجة أنها أصبحت فريسة سهلة لأي مغامر طائش، وتجسد هذا المغامر في شخص الطبيب لاعب الشطرنج. فقد كان أمبرلي بارعًا في لعب الشطرنج يا واتسون وهذه علامة تدل على براعته في التخطيط. وكحال كل البخلاء، كان رجلًا غيورًا، وازدادت غيرته حتى أصبحت هوسًا جنونيًّا. كان يشك أن هناك مؤامرة ما، وسواء أكان ذلك صوابًا أو خطأً، فقد صمم على الانتقام منهما، وخطط لذلك بذكاء شيطاني. تعالا إلى هنا!

قادنا هولمز على طول الممر، وبدا أنه يعرف الطريق كما لو كان يعيش في المنزل، ثم توقف عند باب الغرفة المحصنة المفتوح. صاح المفتش قائلًا:

– أف، يا لها من رائحة طلاء كريهة!

قال هولمز:

– كان هذا أول مفتاح لحل اللغز. يمكنك أن تشكر الدكتور واتسون على ملاحظته تلك، فعلى الرغم من أنه فشل في استخلاص الاستنتاج منها، إلا أن تلك الملاحظة قد وضعت قدمي على أول الطريق. فلماذا قد يملأ هذا الرجل بيته بتلك الرائحة القوية في مثل هذا الوقت؟ من الواضح أنه فعل ذلك لكي يغطي على رائحة أخرى كان يأمل ألا تنكشف، رائحة جريمة من الممكن أن تثير حوله الشكوك. ثم خطرت له فكرة تلك الغرفة التي ترونها هنا، ذات الباب والمصراع الحديديين؛ غرفة محكمة الإغلاق. وإذا جمعنا هاتين الحقيقتين معًا، فما الذي يمكن استنتاجه؟ لم أتمكن من معرفة هذا إلا من خلال فحص المنزل بنفسي. كنت متأكدًا بالفعل من أنها قضية خَطِرة، لأنني تفحصت مخطط شباك التذاكر لمسرح هايماركت –وهي ملحوظة دقيقة أخرى من الدكتور واتسون– وتأكدت أنه لم يتم حجز المقعد «ب 30» ولا «ب 32» من الدور العلوي في تلك الليلة، مما يعني أن أمبرلي لم يذهب إلى المسرح، وها قد

سقط ادعائه أرضًا. لقد ارتكب خطأً كبيرًا عندما سمح لصديقي النبيه أن يلاحظ رقم المقعد الذي ادعى أنه قد حجزه لزوجته. وكان السؤال الذي يشغل بالي في ذلك الوقت هو: كيف يمكنني تفتيش المنزل؟ فأرسلت عميلي إلى أبعد قرية خطرت ببالي، ثم استدعيته في ساعة لم يتمكن فيها من العودة. ولتفادي أي إخفاق، جعلت الدكتور واتسون يرافقه. أما بالنسبة إلى اسم قسيس الكنيسة الطيب فقد أخذته من دليل كنائس كروكفورد بالطبع. هل أوضحت لكما الأمر كليًّا؟

قال المفتش متعجبًا:

- يا للبراعة!

- ولعدم وجود خوف من أي شيء قد يقاطعني شرعت في اقتحام المنزل. لطالما كان السطو مهنة بديلة بالنسبة إليَّ، ولو اهتممت بتبنيها، فليس لدي أي شك في أنني سأكون أفضل مَن يزاولها. انظرا ماذا وجدت، ثمة أنبوب غاز على طول الحافة هنا. جيد جدًّا، إنه يتجه لأعلى في زاوية الجدار، ويوجد محبس هنا في الزاوية، وينفذ الأنبوب في الغرفة المحصنة كما ترون، وينتهي عند ذلك الجص المرتفع في منتصف السقف؛ حيث أخفته أعمال الزخرفة. إن هذا الطرف من الأنبوب مفتوح بالكامل. وفي أي لحظة سيتم فيها فتح المحبس الخارجي ستمتلئ الغرفة بالغاز. ومع إغلاق الباب بمصراعيه وفتح المحبس عن آخره، لن يستغرق الأمر سوى دقيقتين لكي يغيب أي شخص عن وعيه ويموت داخل هذه الغرفة المغلقة الصغيرة. لا أعرف بأي حيلة شيطانية استطاع أن يستدرجهما إلى هناك؟ ولكن بمجرد دخولهما من الباب كانا تحت رحمته.

تفحص المفتش الأنبوب باهتمام وقال:

- لقد ذكر أحد ضباطنا وجود رائحة للغاز، ولكن بالطبع كانت النافذة والباب مفتوحين حينذاك، وكان الطلاء -أو بعض منه- موجودًا بالفعل. وكان قد بدأ في أعمال الدهان في اليوم السابق حسب روايته. ولكن ماذا حدث بعد ذلك يا سيد هولمز؟

- حسنًا، ثم حدث الشيء الذي لم يكن متوقعًا حتى بالنسبة إليَّ. كنت أقفز عبر النافذة في مطلع الفجر حينما شعرت بيد تمسكني من ياقتي وصوت يقول: «أخبرني حالًا أيها الوغد؛ ما الذي تفعله هنا؟» ولما تمكنت من لفّ رأسي رأيت النظارات الملونة لصديقي ومنافسي السيد باركر. كانت رؤيتنا لبعضنا بعضًا شيئًا غريبًا ومثيرًا للفضول فابتسم كلانا. يبدو أنه قد استُدعى من قِبَل الدكتور راي إرنست لإجراء بعض التحقيقات، وقد توصل إلى النتيجة نفسها بأن هناك جريمة قد تمت. كان يراقب المنزل لعدة أيام، واعتبر الدكتور واتسون واحدًا من الشخصيات المشبوهة التي رآها هناك. لم يتمكن من القبض على واتسون، ولكن عندما رأى رجلًا يخرج من نافذة المخزن، وجبَ عليه أن يضع حدًّا لذلك وأن يلقي القبض عليه. وبالطبع أخبرته كيف آلت الأمور إلى هذا وواصلنا القضية معًا.

- لماذا هو؛ وليس نحن؟

- لأنني كنت أنوي أن أضع هذا الاختبار الصغير الذي أجاب عليه بشكل مثير للإعجاب. أخشى أنكم لم تكونوا لتستجيبوا لي كما فعل.

ابتسم المفتش وقال:

– حسنًا، ربما لم نكن لنفعل ذلك. ولكنني حصلت على وعد منك يا سيد هولمز بأنك ستتخلى عن القضية الآن، وأنك ستطلعنا على كل النتائج التي توصلت إليها.

– بالتأكيد، تلك عادتي دائمًا.

– حسنًا، إنني أتقدم لك بالشكر باسم قوات الشرطة. إنها تبدو قضية واضحة وبسيطة، كما وصفتها أنت، ولا أتوقع أن تكون هناك أي صعوبة في استخراج الجثتين.

قال هولمز:

– سأُريك القليل من الأدلة الأخرى المتعلقة بجريمة القتل المروعة، وأنا متأكد من أن أمبرلي نفسه لم يلاحظها. إنك تحصل على النتائج يا سيدي المفتش حينما تضع نفسك مكان الشخص الآخر، وتفكر ماذا كنت ستفعل في تلك الحالة. يتطلب الأمر خيالًا خصبًا، ولكنها طريقة مجدية. والآن، سنفترض أنك قد تم الإيقاع بك واحتجازك في هذه الغرفة الصغيرة، ولا تمتلك سوى دقيقتين ستظل فيهما على قيد الحياة، ولكنك تريد الانتقام من ذلك الشيطان الذي يسخر منك على الجانب الآخر من الباب، فماذا كنت ستفعل؟

– سأكتب رسالة.

– بالضبط، ستود أن تخبر الناس كيف مُتَّ، ولن تكون هناك فائدة من الكتابة على الورق، فذلك من شأنه أن يُرى. ولكن إن كتبت على الجدار فربما يستند إليه أحدٌ فيَراه. والآن، انظر هنا! فوق إزار الحائط مباشرة، هناك خربشة بقلم أرجواني غير قابل للمسح، كُتِب به: «نحن نتعر...» هذا كل شيء.

– ما رأيك في ذلك؟

– حسنًا، إنها فقط على ارتفاع قدم واحد فوق الأرض. لقد كان الرجل المسكين يحتضر عندما كتبها، وقد فقد وعيه قبل أن يتمكن من إنهائها.

– كان يكتب «نحن نتعرض للقتل».

– هكذا قرأتها. إذا وجدتم قلمًا غير قابل للمسح مع الجثة...

– سنبحث عنه، كن متأكدًا من ذلك. ولكن ماذا عن تلك السندات؟ من الواضح أنه لم يكن هناك سطو إطلاقًا. ومع ذلك فقد كانت كل تلك السندات في حوزته. لقد تحققنا من ذلك.

– تأكد من أنه قد أخفاهم في مكان آمن. وعندما تذهب قصة هروب العاشقين في طي النسيان قد يدعي فجأة أنه وجدها ويعلن أن المذنبين قد رجعا في قرارهما فأرسلا ما سرقاه منه، أو أسقطاه في الطريق.

قال المفتش:

– يبدو أنك أوضحت كل النقاط الغامضة بالطبع. ولكن كان لا بد له أن يستدعينا، لماذا كان عليه الذهاب إليك؟ لا يمكنني فهم ذلك.

أجاب هولمز:

– شعور محض بالزهو والكبر، فقد كان يشعر بأنه شديد الدهاء. وجعله هذا واثقًا من نفسه لدرجة أنه تخيل أن أحدًا لا يستطيع أن يمسه. يمكنه أن يقول لأي جار يشتبه به: انظر إلى الخطوات التي اتخذتها. إنني لم أرجع إلى الشرطة فحسب، بل أنني حتى استشرت شيرلوك هولمز.

ضحك المفتش وقال:

– يجب أن نغفر لك كلمة «حتى» يا سيد هولمز، فهي وظيفة محترمة أيضًا على ما أتذكر.

بعد مرور يومين، قذف إليَّ صديقي نسخة من مجلة «نورث سَري أوبزيرفر» التي تصدر كل أسبوعين. وتحت سلسلة من العناوين البراقة، والتي بدأت بعنوان «رعب الملاذ» وانتهت بـ «تحقيق الشرطة العبقري»، كان هناك عمود مكتظ يضم أول سرد مترابط لهذه القضية، وجاءت الفقرة الختامية كالآتي:

(الذكاء الاستثنائي الذي استنبط به المفتش ماكينون أن رائحة الطلاء قد تخفي بعض الروائح الأخرى. كرائحة الغاز على سبيل المثال، والاستدلال الجريء بأن الغرفة المحصنة قد تكون هي غرفة الموت، والتحقيق اللاحق الذي أدى إلى العثور على الجثث في بئر مهجورة، تم إخفاؤها بذكاء بجوار مأوى كلب، يجب أن تحيا كل هذه الأشياء في تاريخ الجريمة باعتبارها مثالًا دائمًا على ذكاء محققينا المحترفين).

قال هولمز وعلى وجهه ابتسامة سمحة:

– حسنًا، حسنًا، إن ماكينون زميل فاضل. يمكنك أن تحتفظ بحقيقة هذه القضية في سجلنا يا واتسون، فربما تُروى القصة الحقيقية للناس في يوم من الأيام.